اصدق التاريخ
ما كتب في زمانه
وصدق فيه كاتبه
وصدّقه معاصروه
فيما روى

بابكر بدري

كتبه عثمان عبد الله وقيع الله

تاريخ

حياتي

بابكر بدري

التاريخ يكتب الحوادث منه العادية للفكاهة
وغير العادية من الحقائق للاقتداء بها حسنا وقبحا

بابكر بدري

الجزء الأول

من سنة ١٢٧٩ الى سنة ١٣١٦

UNIVERSITY OF KHARTOUM LIBRARY
LOCATION.
ACC.No 76436
CLASS MARK 89
Babikr

الاهداء

الى تينك الروحين الطاهرين العظيمين من ورثا روح الامام المهدى عليه السلام بالوراثة أو الدراسة .

الى من صدقا ما عاهدا الله عليه حتى أتاهما اليقين وهما فى جهادهما سائرين اليهما نهدى هذا السفر الذى قدمه أحدهما مرشدا للأجيال الحاضرة والآتية فى صدق الجهاد وقوة العزيمة الى روحى والدى :

((الامام عبد الرحمن المهدى والشيخ بابكر بدرى))

أقدمه زلفى وقربى ومحبة ..

يوسف بدرى

أمدرمان ١٩٥٩/٩/٥

مقدمة الكتاب

بقلم الأستاذ الكبير

شيخ أدباء الجيل

الدكتور محمد فريد أبو حديد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب الذى بين أيدينا مظهر من التجديد الذى امتاز به صاحبه المغفور له الشيخ بابكر بدرى ، فقد كان رائدا مجددا فى كثير من السنن الحميدة فى حياته الطويلة الخصبة . فقد عرفنا الكثيرين ممن شاركوا فى غمار الحياة العامة ، وتطلعنا وتساءلنا لعلنا نلمح ما كان يختلج فى صدورهم من المشاعر وما كان يدور فى عقولهم من الآراء ولكننا كنا فى أكثر الأحوال نرجع من تطلعنا وتساؤلنا بصور غير واضحة ونضطر الى جمع أخبارهم من هنا ومن هنا بغية الاهتداء الى الحقائق التى كانت تنطوى فى حياتهم الزاخرة . ولكن الشيخ رحمة الله عليه يوفر علينا كثيرا من المشقة وكثيرا من التساؤل ويجنبنا كثيرا من مواطن الخطأ فى التفسير والتأويل لأنه خلف لنا صورة واضحة من تاريخ حياته فى هذه المذكرات التى يحتويها هذا الكتاب ، وهى صورة تشتمل على شخصه كما تشتمل على وصف صادق لكل ما كان يحيط به . فهذا الكتاب وان كان سيرة لحياة الرجل يحتوى على تاريخ عصر كامل وهو عصر من أخطر ما مر على السودان وعلى الامة العربية جمعاء .

وقد عرفت الشيخ المغفور له بابكر بدرى منذ وطئت قدماى أرض السودان لأول مرة فى عام ١٩٤٠ ، وكنت سمعت به من بعيد قبل وفودى على القطر الشقيق ، وما كان لى الا أن أسمع برجل وقف حياته على التعليم وجعله هواية حياته ، مدفوعا بايمان صادق جعله لا يتردد أمام عقبة من العقبات سواء أكانت من جانب سلطان الحكم الأجنبى الذى كان يتحكم فى السودان ويخشى عاقبة التوسع فى التعليم فى زلزلة سيطرته أم كانت من جانب الشعب نفسه لما كان يتقيد به من التقاليد البالية التى عاقت تقدم العالم العربى كله فى القرن الماضى .

كان الشيخ الوقور من أول من سعيت الى لقائهم ، وكان لالتقائى به أثر من أعجب ما وقع لى فى حياتى . ذهبت اليه وأنا أسائل نفسى عما سمعته عنه

ـ وكنت سمعت عنه أشتاتا متناقضة من الأخبار ـ وخرجت من عنـده وأنا أحسب أنى خارج من لدى صديق عزيز قديم . رأيته لأول وهلة رجلا ضئيل الجسم له لحية وخطها الشيب ، ويدل ظاهره على أنه قد بلغ العقد السادس من عمره ، وهو فى الحقيقـة كما علمت فيما بعد قد بلغ السادسة والسبعين . وأسترعى انتباهى منه بصفة خاصة وجه بشوش تبدو فيه بساطة الشـباب وعينان تتألقان بنور ينم عن اخلاص وحيوية دافقة . وجرى بيننا الحديث كأن كلا منا يعرف الأسرار الكامنة فى صدر صاحبه . فمنذ تلك المقـابلة الأولى استمرت الصداقة بيننا وان بعدت شقة المسافة بين موطنينـا وقـد وقع فى روعى بعد تكرار المقابلة ان ذلك الشيخ الوقور البشوش يطوى فى حيـاته صفحة السودان الحديث كلها ، وتمنيت فيما بينى وبين نفسى لو استطاع أن يسطر تلك الصفحة فى كتاب .

لهذا كنت سعيدا عند زيارتى الثانية للسودان فى عام ١٩٥٥ ، اذ عرفت أن الشيخ قد سطر ذلك الكتاب .

وأول ما يطالعنا فى هذا الكتاب صورة صادقة للشيخ نفسه منذ طفولته ، ومنها تتبين شخصية صاحبها ـ شخصية صريحة بسيطة ، عميقة التفكير ليس فيها أثر من الالتواء أو الادعاء ، وأول حياته جدير بأن تجمله فى بضع فقرات ، فان النواة هى أصل النخلة السامقة .

ولد الطفل بابكر ولد بدرى حـوالى عام ١٨٦٤ للميلاد لوالدين « فقيرين فى المال ، غنيين أعظم الغنى فى الخلق » وكان مسقط رأسه على نهر (أتبره) فى شمال السودان . وأحاطت الشدائد بالطفل منذ مولده ، اذ غاب والده عن الأسرة وتركت الأم وحدها تواجه مجاعة شديدة وقعت عند ذلك . فكان سعيد أخوه من أمه يجلب الصمغ فى ثوبه لتخلطه الوالدة بدقيق الذرة والطفل بابكر يأخذ ما يعلق بثوب أخيه من ذلك الصمغ فيعلكه علكا . ولما بلغ سن الرابعة انتقلت الأسرة الى موطن عم الطفل فى رفاعه (على النيل الأزرق) فاستقرت الأسرة هناك حتى بلغ بابكر مبلغ الرجال وتزوج من أهلها .

وكان حكم السودان فى ذلك الوقت يدعو الى الحنق والأسف معـا ، والشيخ يذكر فى سيرة حياته بعض حوادث يوردها عرضا فى ثنايا حديثه وهى تدل دلالة واضحة على أحـوال ذلك الحكم الذى كان يجمع بين الضـعف

والعسف ، ومن ذلك ما ذكره بمناسبة غياب والده عن الأسرة . فقد ذهب الوالد مع سبعة من أبناء قبيلته (الرباطاب) بقصد اكتساب الرزق فى الخرطوم. وهناك قبض عليهم أحد النظار السودانيين الذين كانوا فى خدمة الحكومة وأودعوا السجن لسبب مضحك مبك فى وقت واحد .

كان بعض أفراد قبيلة الرباطاب قد اقترفوا جريمة احراق غابة مملوكة للحكومة ، فلما عرف الناظر أن هؤلاء السبعة من قبيلة الرباطاب كذلك ، قبض عليهم بغير أن يكلف نفسه مشقة التحقيق فى أمرهم . واستمروا فى السجن شهرا وكان المدير السودانى لا يحرك ساكنا فيما يتصل بأمرهم ، فلم يخرجهم الا وكيل المدير الذى فطن بالمصادفة الى أن هؤلاء السبعة قد يكونون غير الآخرين الذين أحرقوا الغابة ، فبدأ يتحقق من أمرهم حتى تبين له أنهم أبرياء فأطلق سراحهم . ومن العجيب أنهم بعد الخروج من السجن لم يأمنوا على أنفسهم من العودة اليه الا لسبب عجيب أيضا . فقد سخر الله لهم أحد مشايخ البلد فى الخرطوم وكان من قبيلة الرباطاب ، فاحتال فى أمرهم بأن أوهم الحكومة أن هؤلاء السبعة قد توفوا الى رحمة الله واحدا بعد آخر ، وذلك بأنه كان كلما مات رجل فى شياخته بعث الى الحكومة بأنه واحد من السبعة الذين سبق لهم أن سجنوا ، حتى أفناهم جميعا على الورق وأصبحوا فى مأمن من عودة الحكومة الى تعقب آثارهم .

ونستطيع أن نكون صورة صادقة لتلك الحكومة مما ورد فى ثنايا سيرة الشيخ من النوادر ، وهى صورة كافية لتبرير حنق الشعب عليها ولتبرير أى ثورة تثور على فساد حكمها .

وقد نال الشيخ حظا طيبا من التعليم المعتاد فى زمانه فبدأ بدخول الخلوة ـ أى المكتب أو الكتاب ـ منذ بلغ سن السادسة ولكنه لم يبدأ دراسة جدية الا على يدى أحد مشايخه الذين كان لهم أثر عظيم فى نفسه وهو الفقيه (الكراس) ، الذى استمر يتلقى التعليم على يديه الى أن مات وكان بابكر قد بلغ السادسة عشرة . وتتلمذ بعد ذلك على فقيه آخر من أقربائه وهو الشيخ الأزيرق وكان يتلقى دروسه عليه فى (مدنى) .

وكان بابكر فى شبابه يمتاز بحساسية مرهفة تجتمع الى نفس ثوارة ، وكانت هذه الحساسية لا تجد متنفسا تنطلق ثورتها فيه ، فكان يلجأ الى

التنفيس عن ثورته بطرق أخرى يصفها لنا فى صراحة .

حدث مرة أن دخل أحد الضباط الأتراك على شيخه ليؤاخذه على أمر من الأمور وانتهت المؤاخذة بأن عاقبه بالجلد أمام تلاميذه • وكان بابكر حاضرا عند ذلك فيقول فى صراحة : « فتجاذبت كذبا ورميت بنفسى على الأرض شاخص البصر عادم الحركة فحملونى من الخلوة للمنزل وأنا أعرف كل من حولى من الجالسين ولكنى أتصنع الجذب » • ويذكر لنا بعد هذا أنه جعل يقول فى حالة جذبه المتصنع بعض أقوال ينفس بها عن غيظه فتنبأ بأن ذلك الضابط سوف يقتل • ومن عجيب الاتفاق انه قتل حقا فى أثناء ثورة حدثت بعد عام واحد من تلك الحادثة •

ولم يتردد الشيخ فى حديثه عن نفسه أن يورد بعض أمور كان غيره يؤثر أن يتجنب ذكرها • فهو أحيانا يذكر بعض أخطاء ارتكبها ويذكر بعض مواقف تهور فيها وجانب الاعتدال ، كما انه يورد ذكر أحلام شتى كانت تعتاده بين حين وآخر ، وهى بغير شك مجالات وهمية كان يجد فيها متسعا للقيام بأدوار لم يتهيأ له القيام بها فى عالم الحقيقة • فهو لا يخفى شيئا وان كان مما يتحرج الناس من ذكره وليس أدل من ذلك على صدقه وتحريه الحقيقة فى كل ما أثبته فى سيرته •

ومما يظهر واضحا فى ثنايا هذه السيرة انه كان من أشد الناس تحمسا للثورة كان يضمر الثورة منذ صباه وشبابه ، حتى قبل أن يقوم المهدى بثورته فما كاد المهدى يعلن الثورة حتى بادر بابكر بمبايعته ، فلنعرج قليلا على هذه الثورة ، فهى من أكبر الحوادث وأعظمها دلالة ، وكانت مثار كثير من الأقوال واختلفت فيها الآراء ، وانه لمن الانصاف لأنفسنا أن نتعرف حقيقتها وأن نلمح الدافع الذى حدا بالشاب بابكر أن يسارع الى الانضمام الى صفوف المجاهدين فيها •

وقد مضى الآن وقت طويل على حركة المهدى وفى استطاعتنا أن ننظر اليها من بعيد ونحن فى مأمن من تدخل المؤثرات التى تضلل أحكامنا • فما هى حقيقتها وما هى العوامل الدافعة اليها ؟ وما هى الأغراض التى كانت تقصد الى بلوغها ؟

فلنعد بالذاكرة الى القرن الثامن عشر لنستعيد ما حدث فيه عندما بلغت

موجة الضعف الى حضيضها فى الأمة العربية • كان حكام هذه الأمة يلهون فى حياتهم الرخيصة ولا يبالون شيئا سوى سلطانهم وكبريائهم الجوفاءويسخرون الأمة فى اقامة حكمهم الذى نخره الجهل والغفلة • كانوا يعسفون بالشعوب العربية ويهدرون كرامتها حتى تدهورت أحوالها من كل ناحية ــ فى الحياة الاقتصادية والحياة الثقافية والاجتماعية وفى موقفها السياسى بين شعوب العالم ، وحاولت الشعوب مرة بعد مرة أن تتخلص من ربقة هؤلاء الضعفاء الذين لا يقوون الا على الطغيان ، ولكن حركاتها كانت تنتهى الى الفشل لأن الطغاة على ضعفهم كانوا أقوياء على اخماد حركات الشعوب العزلاء • واتجهت أنظار دول الاستعمار فى أوربا الى العالم العربى فى أواخر القرن الثامن عشر بعد أن انصرفت عنه طوال القرون الثلاثة الماضية ، عندما كانت مشغولة باستعمار بلاد آسيا وافريقيا ، لأنها فطنت آخر الأمر أن أقدامها لا يمكن أن تستقر فى تلك المستعمرات الا اذا أمنت الطريق اليها ، وكان ذلك الطريق هو الوطن العربى الممتد من خليج البصرة الى المحيط الاطلنطى •

فما كاد الاستعمار يلمس حكم الطغاة المتحكمين فى الأمة العربية حتى انهار ذلك الحكم ووقعت الشعوب العربية فى قبضة الاستعمار قطعة بعد قطعة •

وكانت سطوة الطغاة على أمة العرب ثم انهيار حكمهم أمام صدمة الاستعمار بمثابة هزة قاسية ارتجت لها النفوس وثارت لها العواطف ، فتحركت عوامل الثورة فى الصدور جميعا •

وكان تاريخ القرن التاسع عشر يمثل محاولات الأمة العربية فى كل أوطان العروبة أن تنهض من عثرتها ، وأن تحاول أخذ أمورها بيديها بعد أن اتضح لها أن الطغاة الذين يتحكمون فيها لم يدافعوا عنها بل حرصوا على المحافظة على أنفسهم ومصالحهم وباعوا شعوبهم وباعوا ضمائرهموصاروا عبيدا للاستعمار.

فنشأت حركات فكرية نفسية فى كل قطر عربى ، تقصد الى تنبيه وعى الأمة واعادة الثقة اليها وجمع صفوفها للجهاد من أجل حريتها ، والخلاص من حكامها الأذلاء ومن سادتهم المستعمرين •

واتخذت هذه الحركات صورا شتى وهى جميعا تنبع من منبع واحد وتقصد الى غاية واحدة • كانت تدعو الأمة العربية لاصلاح شئونها وتنحو

عليها باللائمة لانحرافها عن جادة الحياة الفاضلة وتحملها مسئولية الذل الذى صارت اليه منذ تركت شئونها نهبا للانانيين وعقولها نهبا للجهـــالة : وكانت خلاصة الدعوات الجديدة ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مابأنفسهم • وكانت هذه الدعوات جميعا لا تعترف بالحدود التى تقام بين أوطان الأمة العربيـة بل كانت كل دعوة منها توجه الى الأمة العربية فى أوطانها جميعا •

هكذا فعلت الوهابية فى بلاد العرب وهكذا فعلت السنوسية فى شمال افريقيا وحركة جمال الدين الأفغانى بمصر والمهدى فى السـودان . فلم تكن حركة المهدى سوى واحدة من هذه الدعوات التى كانت تهيب بالعـــرب أن ينفضوا عنهم غبار الهوان والتهـــاون ويهبوا لاسترداد حرياتهم ويستعيدوا حياتهم المجيدة التى كان يحياها أجدادهم •

وكان من الطبيعى أن يخشى الطغاة تلك الحركات ويحاولوا بكل الوسائل أن يخمدوها ، وكان من الطبيعى أيضا أن تدفعهم أنانيتهم الى التعــاون مع الاستعمار فى كثير من الأحوال للقضاء عليها فى سبيل الابقــاء على سيطرتهم المزيفة • فتجرد الطغاة لاخماد حركة الوهابية فى جزيرة العـرب كمـا قاوموا السنوسية فى شمال افريقيا • وكان جمال الدين هدفا لسخطهم فى كـل مكان يستقر فيه • فلم يكن من العجيب أن ينزعج الطغاة لحركة المهدى فى السودان ويعملوا بكل ما استطاعوا على اخمادها بالقوة • وقد كان شعب مصر فى الوقت عينه يتحرك لاسترداد حريته بقيادة عرابى فأدى ذلك الى ما أدى اليه من ارتماء الطاغية الذى كان يحكم مصر فى أحضـان الاسـتعمار كى يبقى على حكمه الذليل •

أليس من أعجب العجائب مع هذا أن توصم حركة المهدى بأنها لم تكن سوى حركة عداء ضد شعب مصر ؟

انها لم تكن سوى احدى الثورات الشعبية العربية التى كانت الأمة العربية فى كل موطن تنتفض فيها بغية استرداد حريتها • والتخلص من حكم طغاتها •

لم يعد خافيا على أحد فى أيامنا الحاضرة ان ثورة المهدى كانت موجهـة ضد طغيان الحكم العثمانى وممثله فى مصر ، فهى موازية لثورة عرابى ضد هذا الحكم نفسه • وكان المهدى مثل السنوسى يأمل أن يعود بعد نجـاح ثورته فيتجه الى الاستعمار الذى أصبح محيطا بالسودان من كل جهة ، بل صار يمد

مخالبه فى قلب السودان نفسه فى أشخاص مثل أمين باشا (شفيرز النمسوى) حاكم اقليم خط الاستواء وغوردون الحاكم العام فى الخرطوم .

فواعجبا للاستعمار اذ يتدسس الى حكم مصر فيحتلها فى سنة ١٨٨٢ ، ثم يقوم بالدعاية العريضة لاظهار المهدى فى صورة الثائر على مصر وصورة المعادى لشعب مصر ! وأعجب من ذلك ان تلك الدعاية وجدت قبولا عند طوائف شتى أخذت تردد صيحة الاستعمار ـ بعضها سيء النية وبعضها حسن النية ولكنه واهم مغتر . ويكفى فى دحض هذه الفرية ما ثبت من براهين عدة ومنها ما قاله الشيخ بدرى فى كتابه من ان المهدى كان حريصا على أن يبقى غوردون حيا عند فتح الخرطوم ، فانه كان يطمع أن يقبض عليه حيا لعله يساوم به الانجليز الذين قبضوا على عرابى بعد نصرهم المختلس ونفوه الى جزيرة سيلان . فلم تكن ثورة المهدى سوى ثورة شعب عربى سار وراء زعيم دعوة من دعوات التجديد والتحرير وهى مثل سائر الدعوات تتجه الى الأمة العربية كلها بغير نظر الى حدود الأوطان . واذا كانت ثورة المهدى قد تعثرت فى الظروف التى أحاطت بها فهى مثل ثورة عرابى فى تعثرها بالظروف التى أحاطت بها ، واذا كان أبطالها وزعماؤها قد ذهبوا ضحايا فى الجهاد وانزوى من بقى منهم عن الحياة العامة ، فلا نستطيع أن ننسب اليهم تلك الدعاية التى نشرها الاستعمار البريطانى فى السودان على نطاق واسع بعد أن مد مخالبه الى الخرطوم بعد امتدادها الى القاهرة . لقد كان هم الاستعمار أن يلقى فى روع شعب مصر ان شعب السودان يريد به الشر ويلقى فى روع شعب السودان كذلك ان شعب مصر يريد به الشر . وهذا هو السر فى كل ما خيم على العلاقة بين الشعبين من سحب قاتمة طوال مدة الاحتلال البريطانى .

فلنعد الى صاحب السيرة لنواصل الحديث عنه ، فانه كان منذ شبابه الأول من أنصار ثورة المهدى . فذهب لمبايعته فى أول عهده كما سبق القول ، وكان عند ذلك فى صحبة والدته التى كانت تؤمن ايمانا عميقا بالدعوة المهدية . ولعل بابكر الشاب كان متأثرا فى حماسته لهذه الدعوة بايمان والدته التى كانت عظيمة الأثر فى توجيه حياته كلها . فهى التى احتضنته صغيرا وهى التى عنيت بتربيته وكانت تختار جلة الفقهاء ليتلقى عليهم دروسه . وكانت تعنى بكل كبيرة وصغيرة تتصل به ، بل لعله ورث منها حساسيتها المرهفة التى كانت تغذيها فى

كل مناسبة • وكان الفتى بابكر يفضى اليها بكل أسراره ولو كانت مما يندى له الجبين خجلا ، ويلوذ بها كلما اشتدت عليه وطأة الحياة • فهى التى حملته على أن يهاجر الى مدنى عندما وجدت انه يلقى عنتا شديدا على يدى معلمه فى رفاعة وهى التى اختارت له فقيها فاضلا من أقاربها ليكون أستاذه فلم يكن عجيبا أن يندفع معها فى حماستها للدعوة الجديدة بكل مافى قلبه من حرارة • وفى الكتاب نوادر شتى تدلنا على مبلغ حماسته للمهدية ، وكان يتعرض بعد التحاقه بصفوف المجاهدين للسفن الحربية بغير ستار رغبة فى الشهادة ، حتى اضطر قائد فرقته أن يقيم عليه حراسا لمنعه من الخروج للاصطدام بالسفن الحربية اذا مرت قريبا من موقعه • وقد دفعته الحماسة الى التضحية بأموال الأسرة عندما ترك زراعتها وحمل أهله ذاهبا الى موطن القتال • وكان أبوه فى صفوف المحاربين فسأله « كيف جئت ولمن تركت الزرع ؟ » فأجابه : « تركته لله والجهاد أفضل منه » وكان عند حصار الخرطوم فى مقدمة المحاربين فى أقرب النقط من المدينة بحيث كان يرى السجارة المشتعلة ويسمع كلام المحصورين ليلا •

ولما انتهت ثورة المهدى الى الفشل وقف من بقى من صفوف الثوار وجها لوجه أمام حكم الاستعمار ــ وكان فى ظاهره حكما مشتركا بين الانجليز والمصريين ولكنه كان فى الحقيقة حكما استعماريا محضا • فاذا كان الشيخ يوجه اللوم فى مواقف كثيرة للحكام المصريين ويدعوهم بأنهم كانوا أشد وطأة من الانجليز أنفسهم ، واذا كان يقول ان الحكام الانجليز كانوا أقرب الى الرحمة من الحكام المصريين الذين كانوا أولى بالرحمة ، فما ذلك الا شبيها بما كان المصريون أنفسهم يقولونه فى مصر لاعوان الاستعمار من أبناء مصر • وهل شيء أشد فى التقريع من أن يوصف المصرى بأنه أقسى حكما من الأجنبى المستعمر ؟ ولقد كانت هناك خطة مدبرة للايقاع بين المصرى والسودانى • كان الحاكم الانجليزى يأمر تابعه المصرى بالتشدد والقسوة فى تنفيذ أوامر الحكومة ، فاذا ما صدع المصرى بالأمر خاضعا عنيفا ، وتظلم السودانى من جبروته الى رئيسه الانجليزى ، عاد ذلك فألغى الأمر الذى يشتكى منه السودانى ثم عاد الى المصرى فألقى عليه وزر العنف والتشدد • وكان يفعل كل هذا علنا حتى

تذيع أخباره بين الناس فتحملهم على كراهة أبناء مصر وسوء الظن بهم وبنواياهم

وانه لمما يؤسف له ان مصر المحتلة لم تستطع أن تفعل شيئا فى مواجهة هذه الخطة المدبرة . وقد آثر صاحب السيرة أن ينزوى بعد فشل الثورة فى زاوية بعيدة ، ولكنه اختار زاوية أقرب الى أن تكون كمينا يتحفز فيه لوثبة جديدة ، فانه اختار التعليم ملجأ يعتصم فيه . وكان يؤمن بأن قومه قد خسروا الجولة الأولى وان عليهم أن يستعدوا للجولة الثانية عن طريق اكتساب العلوم والمعارف . كان يؤمن بأن التعليم هو المقدمة لكل نهضة ، ويؤمن بما آمن به قاسم أمين من أن الأمة لا يمكن أن تسير على قدم واحدة بتعليم الرجال وحدهم. وكان الشيخ شجاعا فى عقيدته فلم يتردد فى افتتاح مدرسة لتعليم البنات على رغم ما يعرفه من تمسك قومه بالتقاليد القديمة التى حالت بين المرأة والتعليم طوال القرن التاسع عشر فى كل أنحاء الأمة العربية . وقد كنت فى مناقشاتى معه ألمح ما كان يملأ قلبه من الآمال فى مستقبل هذه الأمة وما كان يشرق عليه من الاستبشار كلما لمح تقدما فى ركن من أركان الوطن العربى . لم يكن متزمتا ولا متعصبا ضد شىء مادام يرى فيه مصلحة لقومه ، وكان قومه دائما هم الأمة العربية . وقد كان له ما أراد فرفع راية التعليم فى مقدمة نهضة السودان الحديث .

وبعد فانه من دواعى سعادتى أن تحققت لى أمنية كنت أخمرها فى نفسى. اذ كنت منذ عرفت الشيخ بابكر بدرى أرى فيه ممثلا لعصر كامل ولحركة ثورية كاملة مستمرة . وكنت أتمنى فى نفسى لو استطاع هذا الرجل أن يكتب تاريخ حياته بنفسه فتكون صورة واضحة لكل عصره ، فهو شيخ شهد مبدأ الحركة واستمرارها على مدى عشرات من السنين ، وهو لذلك جدير بأن يجلى للاجيال القادمة حقائق كثيرة كانت جديرة بأن تخفى عليهم .فلما زرت السودان للمرة الثانية فى عام ١٩٥٥ أطلعنى نجله الوفى السيد يوسف بدرى على مجموعة من المذكرات بخط يد والده ، وكانت نيته تتجه الى طبع تلك المذكرات. فكان ذلك تحقيقا لأمنية أخمرتها ولهذا كنت سعيدا أن أكتب هذه المقدمة للكتاب ، مشاركة منى فى الوفاء لصديقى الشيخ الوقور الكريم عليه رحمة الله

ومشاركة منى فى تجلية السحابة التى أثارها الاستعمار وأعوانه حول العلاقة بين شعبى السودان ومصر وهما شعبان تشاركا فى الحياة على الوادى المبارك منذ ألوف السنين وتشاركا فى الرضاع من نهرهما الخالد ، فهما شعبان أخوان شقيقان رضيعا لبان تجمعهما العروبة والمصالح المشتركة وسيواجهان المستقبل دائما بعون الله وهما سائران جنبا الى جنب .

فرغ منها يوم ١٠ أغسطس سنة ١٩٥٩

محمد فريد أبو حديد

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتى

أصدق التاريخ ما كتب فى زمانه وصدق فيه كاتبه وصدقه معاصروه ـ فيما روى

الميـــلاد

أخبرنى والداى انى ولدت يوم الخميس غرة صفر الخير سنة ١٢٧٨ هـ ولقائل يقول كيف عرف والداى الأميان تاريخ ولادتى باليوم والشهر والعام فالجواب ان تاريخ اليوم والشهر كل امرأه فى الغالب تعرفه بالحوادث الهامة فى نظرها ، وأما العام فان والدى جعل الأساس الذى جعـله مبدأ هو زيارة الخديوى سعيد باشا للسودان وتاريخ هذه الزيارة أنه دخـل الخرطوم يوم ٢٣ ربيع ثانى سنة ١٢٧٢ و ١٨٥٧/١/١٦ وكان بين هـذه الزيارة وولادتى سبع سنوات تأيمت فيها والدتى خمس سـنوات ووضعت أختى التى ولدت قبلى بسنتين ـ ولدت من والدين أميين فى التعليم وفى الأرزاق حينما ولدانى ولـكنهما غنيان فى الأخلاق فى حالتى بؤسهما ونعيمهما والحمد لله «مذكوراتى» مما وعيت مما أتذكر لبن رضـاعى على انى مارضعت أكثر من سنتين أتذكر لبن الثدى يأتينى من فتحات صغيرة متعددة وهو رقيق وطعمه فيـه حلاوة ، ثم أتذكر المنزل الذى كنا به بنهر أتبرة وعمرى اذ ذاك لا يتجاوز ثلاث سنوات وأتذكر أنه فى آخر سنه ثلاث وثمانين تغيب والدى وحصلت لنا مجاعة وكانت المجاعة عامة ان سعيدا أخى من والدتى ـ يجلب لنا الصمغ فى ثوبه لتخلطـه والدتى مع دقيق الذرة وكنت آخذ ما يبقى فى ثوبه مما يلتصق بفمى أكده كدا. ثم أتذكر أن عمى محمد على حمد السيد أخذنا لرفاعة وحينما دخلنا المدينـة وكان يحملنى على كتفه فهرش فينا كلاب فوضعنى على الأرض ليضرب الكلاب وعمرى لا يتجاوز الأربع سنوات وما زلنا برفاعة الى أن تزوجت بها .

اسمحوا لى أن أذكر هذه الحكاية وأن كانت خارجة عن تاريخى . سبق أن قلت أن والدى تغيب منا ونحن بأتبرة ، كان فى غيبته هـذه ضمن سبعة رجال ذهبوا للخرطوم وما بعده للتكسب كلهم رباطاب وأحدهم يدعى الماحى

وكان أن حصل اتفاقا أن سبعة من الرباطاب أحدهم يدعى الماحى أن حرقوا غابة الحكومة بالقراصة قبلى الخرطوم فنشرت الحكومة للنظار فى تلك الجهة أن يبحثوا عن هؤلاء الرباطاب ومن ضمن النظار ناظر السوق محمد عبدالقادر ولد أبى دبل المحسى فمر فى مروره سحرا فوجد والدى ومن معه بحلة الثمانيات نائمين فى أحد خلوات الضيوف فحسبوهم وهم نيام فنبهوا أحدهم فسألوه عن اسمه وكان صدفة هو الماحى فسألوه عن جنسه فأجابهم : نحن رباطاب . فقالوا هم هم والله فألقوا القبض عليهم وأرسلوهم للخرطوم باسم الذين حرقوا غابة القراصة فوضعوهم فى السجن مدة شهر كامل وتركوا البحث عن الجانين فعلا وكان المدير اذ ذاك أحمد بك أبو سن الشكرى وكان كل جمعه تعرض عليه المساجين طائفة طائفة بحسب جناياتهم فيسأل عن جناياتهم فيجيبه المأمور هؤلاء أهل تهمة كذا فيأمر بردهم للسجن فاذا وصل طائفة والدى ومن معه يقال له هؤلاء الرباطاب الذين حرقوا غابة القراصة فيردون للسجن حتى تغيب أحمد بك أبو سن فى مرور وعرضوهم على معنى بك السورى وكيل المديرية الذى كان يقول للمأمور عند كل طائفة أين ورقهم حتى وصل لوالدى ومن معه فسأله عن ورقهم فقال لم يعمل لهم تحقيق فعجب من ذلك والتفت اليهم قائلا : حقيقة أنكم حرقتم غابة القراصة فقالوا له : ماهى القراصة ؟ ـ قال البلدة التى على بحر أبيض قبلى الخرطوم ـ قالوا : نحن ما وصلنا الخرطوم الا للسجن لأننا جئنا من الرباطاب فقال لهم : ما علامة أنكم جئتم من الرباطاب فقدم أحدهم « سركى الوصل » الذى دفع به الضريبة وهو بالرباطاب فوجد معنى بك أن تاريخ هذا الوصل بعد حادثة حرق الغابة ـ فقال لهم : هل تجدون أحدا يضمنكم ؟ حتى تتحقق من براءتكم فقال له المأمور نطلب الشيخ السعيد والد مولى بك شيخ الربع بمدينة الخرطوم لأنه رباطابى فاذا عرفهم وضمنهم تترك سراحهم فجاء الشيخ السعيد وسألهم فلما سأل والدى قال له أنا ولد حاج الصادق ولد الطيب ـ قال له انت ولد بدرى ؟ قال نعم . قال هل تعرف هؤلاء كلهم ؟ قال نعم . فوضع ضمانه عليهم وأخذهم لمنزله . وفى اليوم الثالث قال لهم اذهبوا حيث شئتم فذهب والدى لرفاعة ونحن بها وفى تلك السنة سافر لكركوج ورجع غنيا فزار الشيخ السعيد بالخرطوم وأعطاه كما قال ثلاثين ريالا ـ وقال له أن شاء الله ما تكون الحكومة أتعبتك كثيرا لغيابنا.

فقال السعيد أنت ياود بدرى من زمان مت قال وكيف ذلك قال له السعيد منذ سافرتم أنا صرت كلما مات رجل فى ربعى أعرضه على الحكومة بأنه أحدكم حتى آتممت السبعة رجال كلهم ماتوا وحجتى ضغط السجن وتغيير الهواء فشكره والدى متعجبا من جرأته وغفلة الحكومة . أليس مثل هذه الحكومة تستحق الزوال ؟ وانشاء حكومة رشيدة يقظة تحل محلها .

خلوة الفقيه الكراس :

أدخلونى خلوة القاضى الطيب لأنها بجوارنا ولم أستفد منها شيئا لاهمال الفقيه بها أو لصغر سنى التى هى أول السادسة حتى قالت المغنية حين ختانى فى آخر بيت « الكسرسنينات اللبن فى الخلوة » ثم نقلت لخلوة الرجل الصالح اليقظ المخلص فى عمله الفقيه أحمد حامد الشهير بالكراس سنة ١٢٨٨ واستمريت عنده الى أن توفى سنة ١٢٩٥ حيث أمرنى بتمريضه وأظنه كان مصابا بالحمى السوداء لأنه يتبول دما ويأمرنى بدفنه بعيدا عن الناس فى حفرة عميقة .

اسمحوا لى أن أذكر عن هذا الرجل ما أعرفه عنه اداء لواجبه على . كان رحمه الله فوق السبعين من عمره على أنه قوى البنية يمكث بخلوته الى الساعة ١١ مساء حيث يتمم تلاميذه سبع القرآن فيتوجه لاحدى زوجتيه ويرجع للخلوة فى أو قبل الساعة ٤ صباحا أفرنجيا أو الساعة ١٠ مساء عربيا (على الاستواء) فيثيرنا فنوقد النار بالنوبتجية ونشرع فى القراءة للعرضه وهو يدخل فى مخزن الخلوة يستحم يوميا ومعه تلميذان يقرآن عليه لوحيهما ليمحيانها بعد هذه القراءة ويكتبان غيرها فتستمر العرضه (قراءة الألواح حفظا) عليه تلميذين حتى يفرغ من اغتساله ــ فيخرج فيجلس على عنقريبه (سريره) والعرضه مستمرة حتى يسفر الفجر فيأمر بالقيام للوضوء فنصلى الصبح ونستأنف العرضه حتى نفرغ ومن سمعوا منا يمحون ألواحهم ويكتبون غيرها من رؤوسهم لأنهم قد سبق فحفظوه عصر اليوم الماضى وبعد الكتابة يصحون عليه ماكتبوا مثنى مثنى هؤلاء الكبار أما المتوسطون فانه يجلس أمامهم ويملى عليهم ما يكتبون فى يومهم هذا غيبا من راسه والصغار يكتب لهم ألواحهم بنوى التمر ليكتبوا عليه تعودا على الكتابةوتحسينا للخط وكل هذا يجرى يوميا لا يشغله عمل عن عمل لا فى النظام ولا فى الصحة ــ

ومما أذكر أنى تساهلت يوما فى حفظ لوحى وكان : « ولما فتحوا متاعهم » فى سورة يوسف عليه السلام فى وقت العشاء فلما حضر الفقيه . سحرا واجتهدت فى حفظه حتى جاءت نوبة تسميعى ظننت أنه لا ينتبه لى فمحوته وكتبت فلما دخلوا وعندما قرأته عليه ضحى الغد للصحة سكت الى أن ختمته بقولى « آنه هو العليم الحكيم » ـ قال لى تعال يا العليم الحكيم . انت عرضت على من ؟ فقلت له عرضت عليك يا سيدنا فقال متى ؟ قلت وأنت تستحم فى المخزن ـ قال أنا دخلت للاستحمام وكان يقرأ فلان وفلان ثم بعدهما فلان وفلان وبعدهما فلان وفلان وخرجت وهما يقرآن فبين ـ أى هذه الدفع أنت عرضت لوحك ومن كان معك فقلت يا سيدنا يموت الفكى ويموت أبوى أنا عرضت ـ فقال لى تموت أنت أمشى أمحى وتعال ـ أكتب ما محوته فذهبت ومحوته وكتبت سطرين مما محوته فاتضح أمرى فضربنى على الكذب وأملانى لوح ـ ولما فتحوا وحكم على ألا أبرح الخلوة حتى أسمعه اياه غيابيا أى أعرضه عليه وفعلا حصل ذلك . ومع أن حيران الخلوة يفيضون على الأربعمائة طالب ليس له منهم ساعد ولا من غيرهم . كان رحمه الله لا يبالى بأهل المال ولا أهل الجاه ولا يقبل هدية من أحد ولا يسمح لأحد أن يخدم تلاميذه فى بلاده ولا منزله كغيره ولا يستخدمهم هو وقد رأيت الشيخ عوض الكريم أبو سن وهو ناظر الشكرية جاءه زائرا وكان راكبا حصانا فوقف عند باب زريبة الخلوة فقابله الفقيه ابراهيم وقيع الله فقال الشيخ عوض الكريم أنى زائر الفقيه أحمد الكراس فجاء الفقيه وقيع الله العالم لشيخنا والحيران يصحون ويكتبون فقال الفقيه ابرهيم وقيع الله : يا فقيه أحمد الشيخ عوض الكريم جاء يزورك . فلم يلتفت له فلما رأى الشيخ عوض الكريم عدم قيام الفقيه أحمد من عنقريبه ترجل من حصانه ودخل المسجد راجلا حتى وصل الفقيه أحمد وصافحه وجلس مكانه مشتغلا بعمله والشيخ عوض الكريم جالس بجانبه فلما طالت المدة طلب منه الفاتحة فصفق الفقيه يديه علامة للسكوت وطلب الفاتحة من كل الحيران وودع الشيخ عوض الكريم حتى ركب حصانه ورجع فأنب الفقيه أحمد على عدم استقباله للشيخ عوض الكريم كما يستحق فكان رده عليه بعبارة

---

(١) البلاد باصطلاح السودان المزرعة المطرية .

الزاجر « يازول هل ربنا يسألنى عن مجاملة الشيخ عوض الكريم أو عن اصلاح ألواح الحيران . »

عادة فقهاء الخلوات يفزعون حيرانهم للغابات يومين من كل أسبوع ليكثر الخشب عندهم ليبيعوا منه لحيران الخلوة ويستعملون منه فى منازلهم أما شيخنا فكان جمع حطبه سنويا من البحر زمن الفيضان فحينما يسمع (أن البحر[1] رامى) هذا اليوم يأمرنا بالتوجه للبحر — الكبار منا لجلب الخشب من بطن البحر والمتوسطون يتناولونه من الشاطىء والصغار يحملونه للخلوة ولذا يكتب لكل واحد اسمه بخطه للمتوسطين على الذراع والصغار على الساق وبعد رجوعنا يفتش على ما كتب فمن وجده أضاع العلامة جلده أو منعه من التوجه مع أخوانه للبحر هذا أنكى للولد . كان رحمه الله يمنعنا من عادات الخلوات المؤدية للدناءة كالشحتة بالشرافة فى السوق أو فى المنازل وكالسعى لمأتم الأموات لنأكل لحم الصدقات .

مكثت فى الخلوة سبع سنوات لم يذهب حيرانه لمأتم عدا مرتين مأتم الشيخ على أبو سن ومأتم الفقيه ولد عون الله قريبه . ما رأيت له عملا يدنى الى الدناءة الا أنه كان يقسم لنا كرامة العائد أو المنتهى فى أيدينا لكثرتنا . كان لا يستعمل كالفقهاء آلة الفلكة ليضرب الولد على راحة رجليه بل كان له سوطين أحدهما قصير يسمى « الجدوه » من جلد القرنتيه (فرس البحر) والثانى من جلد البعير يسمى « الفرطوق » مربوط فى خشبة وكان سريع الجلد يمسك بتلابيب الولد بثوبه ويجلده بالجدوه فاذا رأى الولد اشتد فى الجذب طلقه فيقع الولد على الأرض فبسرعة كالحاوى يضع الجدوه ويأخذ الفرطوق ويستمر فى جلده والولد يسحف حابيا حتى يبتعد عنه وكان رحمه الله ميالا للعقاب أكثر من الضرب حيث يقول سليمان خلف الله :

حزنان الجدوه داير الشرف والفوت[2] وقالت مرتبتى أنا أخير من صوت
مقابلة الفكى بالمر أخير الموت والعشرين تحلف تقول[3] فد صوت

---

(١) اصطلاح معناه حاملا أخشابا
(٢) التفوق
(٣) فد بمعنى واحد أى سوط فرد

كان رحمه الله يقرأ القرآن كل ليلة مع كثرة عمله وكان طالب علم الى أن توفاه الله رحمه الله رحمة واسعة أضعاف أضعاف عمله الصالح .

حصلت على القرآن فى سنة ١٢٩٧ بعد موت الفقيه أحمد الكراس دليت عوده المروق على الفقيه الجابرى الذى كان يجتذب كل اليوم لا يأكل ولا يشرب وأحيانا يكون مفتوح العينين . ثم اشتغلت بقراءة العلم على الفقيه يوسف محمد نعمه أحد العلماء برفاعه مع تعليمى القرآن لبعض الصغار بخلوة أحد جيراننا وقت فراغى ـ أتذكر أنه قد جاء على كاشف أحد الضباط الأتراك فجلد شيخنا الفقيه أحمد تور ياسين المعتقد دينيا لسبب أجهله وغضبت وقلدت شيخى ولد الجابرى فى الانجذاب فتجاذبت كذبا ورميت بنفسى على الأرض شاخص البصر عادم الحركة فحملونى من الخلوة للمنزل حيث وضعونى على عنقريب وأنا أعرف كل من حولى من الجالسين ولكنى متصنع الجذب ـ فأتكلم كلام الانسان المجذوب كما سمعته من شيخنا .

ومن العجيب أنى قد صرحت فيما قلته أن على كاشف سيقتل فى قرية أبى شوكه وفعلا بعد عام قتل على كاشف فى ثورة حصلت بحلة أبى شوكه .

تشاكست مرة مع أحد يدعى محمد الشاطر نعيمه فأقسم الفقيه محمد الجابرى يضربنى مائة سوط على رجلى بسوط العنج بالفلكه فجعلت أصرخ الى أن ذبح صوتى وكلما أتاه من يشفع يقول : « عز الله فى ملكه » لا يتركنى حتى يتم المائة . فلما أتمها ماقدرت أتحرك فجاء أهلى رحلونى على حمار وصار الكثير من الجروح يقىء فيعالجونه بالمسلى المغلى حتى شفيت ورجعت للخلوة وأظنه كان مجذوبا عند توقيعه هذه العقوبة لأنه كثيرا ما يجذب .

مما أتذكر عن الحياة العامة أنه قد ضاع منى ثوبى بالبحر فاحتلت وسرقت ثوبا كبيرا من عبيد كانوا يملأون الأحواض فى بئر بقريتنا وذهبت للخلوة فلما رأى حمزه السوارابى الثوب الكبير قال لى « الأحسن تقطع منه بقدر ثوبك وترمى الباقى . »

حكاية الكجورية :

سرق (قرن خمرى[1]) من أم طبول أختى وبحثنا عنه ولم نجده فاقترح

(١) قرن خمرى نوع من القماش المزركش تلبسه نساء السودان كازار

أحد الناس أن نذهب للكجوريه (عطا ٢ منه) نسألها لعلها تكشف عن حكاية الثوب المسروق أو مــن سرقه فأنكرت أنا عليهم ذلك بقــولى هــل اذا قالت الكجوريه أن بابكر هو الذى سرق الثوب يكون حقيقة ـ فقال أخونا مرغنى شكاك نمتحنها أولا بسؤالها عن أشياء معروفة لدينا فان أصابت نعتمد كلامها وعليه نسألها عن اسم أمى فهى غريبة وماتت منذ زمن ولا يعرف اسمهــا الا القليل من عائلتنا فقبلنا رأيه وسرنا نحوها فلما دخلنا عليهــا وجدناها تأكل كسرة بروب فى قرعه فسلمنا عليها وقالت لنا « أمونه » ما موجــودة فجلسنا حولها وبعد برهه امتقع لونها وصرخت صرخة عالية ثم قالت « أمونه جات » فناداه أخونا مرغنى قائلا « أمونه » فأجابه صوت من داخل بطن « عطامنه » (حبابك يا مرغنى ود كسبه) وكان كسبه هو اسم أمه فعند ذلك سررنا وبدأنا نسألها عن « القرن الخمرى » فقالت أخذه فلان ود فلانه وباعه لفلانه وذهبنا لها ودفعنا لها المبلغ الذى اشترت به القرن وردته لنا .

واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه وقد هيئت لى الأسباب فى يوم ما حينمــا أخذت قصبه من سقف الخلوه (غرفة الضيوف) لا بريها قلما فاظن نزل بعض الغبار على عمى محمد أحمد شكاك الذى خرج على وأوجعنى ضربا موجعا بلا شفقة فغضبت والدتى التى لم تتعود الغضب وأدخلت لى كتبى فى شنطة من قماش وقالت لى أمشى لمدنى . اقرأ على عمــك الفكى الأزيرق فذهبت من ساعتى برجلى فأدركت آخر سوق المسلمية فوجدت للحظ رجلين على حمارين ذاهبين لمدنى فتعلقت فى حمار أحدهما وبعد برهة سألنى : أين أذهب ؟ قلت لمدنى أقرأ العلم على الفقيه الأزيرق قال لى : أحفظت القرآن ؟ قلت نعم . قال لى اقرأ « ورد الله الذين كفروا بغيظهم » فقرأتها عليهم فأردفنى على حمــاره وقال : يا ولدى الحكيم قال لولده احفظ القــرآن فانه لا يرميــك واذا رماك يرميك على برش وتعلم العلم فانه لا يرميك واذا رماك يرميك على سرير فسررت من الرجل ودعوت لهم بخير .

---

(٢) اسم متعارف بين الجوارى ودائما تسمى الجارية بنعت يضــاف الى سيدها « تام زينه » « فرجه قريب » وهكذا

مسجد الفكى الازيرق :

وصلت مدنى والتحقت بطلبة العلم وقرأت السنوسية بشرح ولد بقادى وشرح ولد عيسى والجزريه بزكرياء فى التجويد والعزيه بعبد الباقى وهذا أهداه لى شيخنا وكان بخطه رحمه الله .

اسمحوا لى أن أحكى حكاية حصلت بمدنى (الأولى) لحقنى ابرهيم مصطفى الذى كان وكيل الفقيه محمد ولد الجابرى الذى دليت عليه عودة بعد وفاة شيخنا الفقيه أحمد الكراس وكان ابرهيم محترما عندنا ومعه أحمد عثمان وكلاهما قريبى من ناحية والدتى وهما فقيران فصار أخى سعيد يرسل لى فى كل يوم أحد أو يوم أربعاء قرشين أو ثلاثة قروش وكلما اشترينا فاكهة تمرا أو بطيخا أو كنبا أو نحو ذلك أدفع الثمن منى ، ففى بعض الأيام هزر معى ابرهيم مصطفى فانفت نفسى واشتعلت غضبا خلاف عادتى معهحينما كنا برفاعه فبحثت عن سبب هذا الانقلاب فما وجدت له سببا غير أنى منيت عليه بما أصرفه عليهما فأخذت باقى نقودى وكانت أربعة عشر قرشا ودمجه واحدة وذهبت لشيخنا الفقيه وقلت له أنى أخشى أن أتكبر على اخوانى فاستلم منى هذه النقود ـ فاستلمها وحفظها الى أن مر علينا والدى من كركوج بمدنى فطلبنى الفقيه أمام والدى وسألنى الفقيه كيف تأكلون يوم الأحد والأربعاء ؟ فقلت دائما نأكل لحما وسمكا وباقى الأيام نأكل الملاح . قال لوالدى : هل فى رفاعه أكلكم خير من هذا ؟ قال لا والله فأخبره بمسألة النقود وسلمها اياه فشكرنى والدى على هذه . فلذلك عندما بدأت المدرسة برفاعة جعلت أبحث عن مصاريف التلاميذ الغرباء الخصوصية وأسلمها لمخصوص من المعلمين وأجعل لكل تلميذ مذكرة يحفظ فيها حسابه أثناء السنة بعد تصديقى له بعد المناقشة وما يبقى له نسلمه اياه عند العطلة ليشترى له هدايا لأهله .

كنا ـ ونحن بمدنى ـ نذاكر الدرس قبل عرضه على الفقيه كل يوم أحدنا مدرسا والباقون تلاميذ وما نختلف فيها من المسائل نعرضها على الفقيه ففى بعض نوبات تدريسى شرحت لهم قول ابن عاشر (اذ معجزاتهم كقولهم وبر ـ أن قصده وبر الجمال أى الصوف الناعم فلم يعترضنى أحدهم فلما

قرأها شيخنا قال أن معجزاتهم كقوله جل وبر تعالى صدق هذا العبد فى كل خبر فضحكنا كلنا فبدأ يغضب فأخبرناه بشرحى فضحك حتى أدمعت عيناه وكان كلما رآنى منفردا يذكرها لى .

أول بيت قلته شعرا بمدنى حيث كنا نشرب قش الشيخ سجارا كشيخنا فقلت لأحدنا :

منك السجار ومنى النـــار حاضرة
الشيخ منك ومنى الشرب والكيف

وهذا سلخا من البيت الشهير :

منك الدقيق ومنى النـار أوقدها
الماء منى ومنك السمن والعسـل

نبذة عن تاريخ شيخنا الفقيه محمد الازيرق :

قرأ القرآن وبعض معلومات فى الدامر ثم رحل لمدنى بواسطة عبد اللهأغا الذى بنى له مسجدا مركبا من غرف ومنزلا بجوار المسجد وذلك سنة ١٢٧٥ هـ وفى عام ١٢٨٢ هـ ـ ١٨٦٦ م جاء المرحوم جعفر باشا مظهر واليا على السودان وكان عالما محبا للعلم وأهله فجعل للمساجد بالمدن الكبرى مرتبات بالامتحان فلما قصد مدنى وجد بها لجنة العلماء وتقدم كثير منهم ومن ضمنهم الفقيه الأزيرق الذى أخبرنا أنه ضمن أسئلته له فى باب المسافات فأجاب . فقال له جعفر باشا : غلطت يا مولانا فى هذه المسألة فرد عليه الفقيه بقوله : اذا كنت غلطان فالشيخ خليل غلطان فقال له الباشا عندك شارح خليل قال عندى منه الدسوقى والزرقانى والخرشى فأمره باحضار النص من الثلاثحواشيفأحضرها من كل حاشية كراسا فلما رآها جعفر باشا متحدة الخط قال له صدقتولكنى أرى هذا الخط متفق فى الثلاثة نسخ فقال له الفقيه نعم وهو خطى فقال له الباشا متى وكيف كتبت هذه الحواشى قال حينما كنت طالبا أطلب من الراجل الغنى الراغب فى كتابة أحدهما يحضر لى ورقا يكفى لنسختين ويحضر لى الكتاب الذى أنقل منه فأكتب نسخة لى ونسخة له فقال هل ممكن نرى هذه الكتب ؟ قال هل يشرفنا سعادة الحكمدار أو تنقلها له هنا فقال له الباشا : كم مجلدا عندك بخطك ؟ قال له ثمانون مجلدا فنهض الباشا ومن معه الى

مسجد الفقيه الذى نشر لهم الكتب فلما رآها جعفر باشا قال : هـذا هو الامتحان الفعلى وجعل مسجد الفقيه هو المسجد الذى يستحق المرتب فصار يأخذه الى أن قطعته المهدية التى كان غير مرتاح لها •

ظهور الامام المهدى :

اشترينا مرة بطيخة ووجدنا على كل حبة منها خطوطا تقرأ على صفحة الحبه لا اله الا الله وعلى الصفحة الأخرى الخط مسقوم ولكن ممكن تجمع منه كلمة محمد والباقى مسقوم فأخذت حبات وعرضتها على شيخنا فقرأ الصفحة الأولى ثم قلب الحبة وقال لى ما هذا قلت هذا محمد قال والباقى قلت طبعا يكون المهدى قال ولماذا لا يكون رسول الله قلت رسول الله لا يحتاج الى معجزة فى هذه البلاد الاسلامية قال لى ألقه فى الأرض ثم اضطجع وقال : آه ياولد نكتوت الذى شبعت الناس موت » فغضبت جدا ولكن لهيبته لا أستطيع أكلمه رغم اعتقادى فى المهدى الذى كنت أعرفه حينما كان يزور رفاعة كثيرا لوصال أقاربه •

وقد رأيت مرة رؤيا وهى انى وجدت لوحا مكتوبا فيه كلام رجز ميمى كنت أحفظ منه شيئا وفى آخره يقول سليم فى نزل من حميم وتصلية جحيم ثم رجز آخر يأتى آخره محمد الازيرق فى عيشة راضية فى جنة عالية فلما قصصت عليه هـذه كان متكأ فجلس وقال قاتلك الله يا سـليم لم تقتلنى ثلاث مرات واتكأ كما كان فلم يكمل ذلك العام حتى قتله عبده سليم ذبحا فعرف سليم وقتل به رحمه الله .

وكان من قوله فى المهدى عم مما أذكر من قصيدته : ـ

الحمد لله شديد البطش — بديع الأحوال مجيد العرش
مكور الليل على النهار — بدون أعوان ولا أنصـار

ومنها : ـ

أن تنزل البأس من العذاب — على عتاة فرقة الأعراب
اذ غرهم شخص الجزيرة أبا — بكونه المهـدى أبا الله أبا

فلما وصل خبرها المهدى عم قال سامح الله أخانا الفقيه الأزيرق ما يعرفنا

الا بشخص الجزيرة أبا . ثم لما وصل أمراء المهدية الجزيرة طلبه نصر أخو الأمير أبى قرجه بعد ما قتل العالم ولد القبة بالمسلمية وهدده بالقتل قال له الفقيه الأزيرق .والله يا ولدى أن عمرى فى السبعين وان قتلتنى فتبوء بأثمى وأثمك لا مانع عندى ثم هاجر الى المهدى بقصيدته التى منها :

فأول الظهور من بطن أبا — بالسيد المهدى حبا الله أبا

وفى آخرها :

محمد الأزيرق وابن الطاهر — يرجو العفو من عالم السراير
مؤملا بالصفح بالبتول — وبأبى السبطين والرسول
من كل ما جنيت من انكار — ولست شاغلا به أفكارى

وهاجر بها الى المهدى بالرهد وكان والدى معه فقال والدى سألتهوالمهدى راكب على جمله يبايع الناس فقلت له يامولاى أنا أمى وانت عالم هل اعتقد أن هذا هو المهدى المنتظر فقال لى أنا لا اعرف مأأقول لك بخصوصه ولكن ياود بدرى ــ وقبض على لحيته قائلا : يملكوكم الأنكليز فرجع من هجرته وذبحه سليم رحمه الله رحمة واسعه .

رجعت من مدنى على الا ارجع لها وشيخنا مسجده عامر بالطلبه وذلك لأن الشريف احمد ولد طه تحرك ضد الحكومه بأسم المهديه وكانت قريته قريبه من رفاعه فأخذت أهلنا الشفقة علينا وأرجعونا رغم رغبتنا ورغبة شيخنا فى البقاء بمدنى وذلك لأنالشريف احمد طه قتل عساكر الحكومه مرتين وفى المرة الثالثة انضم للحكومة الشيخ عوض الكريم أبو سن والشيخ حمد النيل العركى اللذان نصحا للشريف ليسلم فرفض وقتل فعلا حيث كتب المهدى فى آخر جواب للشيخين عوض الكريم ابو سن والشيخ حمد النيل يقول (قتلتم ولد طه خذلة للدين ونصرة للكافرين فلتعلمن نبأه بعد حين .

رجعت لرفاعه وفى اثناء وجودى بها تزوج أخى سعيد آمنه بنت الحاج الحسن ففى يوم أردت زيارته فمررت ببيت جارتنا زهراء فأمرتنى بالمرور عليها وهى راقدة فقالت لى بطنى توجعنى فاعزم لى يا فكى بابكر فلما قبضتها باصبعى انقلبت فوق وركى وغنجت فدفعتها عنى ومضيت لسبيلى ولما رجعت لمنزلى صليت العشاء اماما ولما اضطجعت للنوم غالبتنى

نفسى بالمسير لزهراء وغلب على الهـوى فوصلتها وجدتها منفردة فسرت جدا بدخولى عليها ومكنتنى من نفسها ثم قالت لى من اخبرك أنى زانيه قلت انت نفسك أخبرتنى فضحكت . فى تلك الساعة ضرب بابها عمى محمد على حمد السيد فخرجت له وبعد ان عرفته سعلت بصوتى : ـ قال لها من عندك قالت له : التميم اخوى فانتظرتها لابسا للخروج قالت الى أين قلت هذا عمى وقد يجىء غيره فانصرفت

أخبرت والدتى حينما أصبحت بكل ما حصـــل منى ومن زهراء وعمى محمد على فأخذت والدتى تكرر قولها أفى أفى[1] وحياة محمد سعيد هى تعمـل عمل « قلوبه » (فرس البحر) مع وليدها وتتفل (تبصق) فى الأرض ولكنى لم أرها ـ أى زهراء ـ الا بعد رجوعى ووالدتى من أخذ البيعة على المهدى « عم » فزارتنا ومدت لنا يدها فأبيت أن أصافحها فقالت « تندخرلك[1] » تعجبا منى وانكارا على وعلى عهد الله لم أذق امرأة غيرها .

فى هذه الفترة رجعت أقرأ على الفقيه يوسف محمد نعمة حتى ظهـرت المهدية بالحلاوين حيث لبى الشيخ محمد البصير طلب المهدى عم وشق عصا الطاعة على الحكومة بقتلهم العسكرى فى سوق الحلاوين وقطع سلك التلغراف فعرض الشيخ عبد الله عوض الكريم برفاعه رغم والده عوض الكريم أبو سن بالبطانة مع الحكومة فلبست الجبة وأخلصت للمهدية كوالدتى ظاهرا وباطنـا رغم أن والدى ومشايخى كلهم مراءون ظاهرا فصرت أتعرض للوابورات دون ساتر رغبة فى الشهادة فلما علم الشيخ عبد الله الأمير تعرضى لها جعل على حرسا حتى تمر الوابورات وكان الشيخ محمد البصير طلب من الشيخ عبد الله حصار قيقر صالح بالشرق بمن معه وكان الشيخ عبد الله أظنه غير مخلص فى أول مرة فيأمرنا بالتوجه ويتقدم معنا ثم يقول لنا أعرفوا مروا بحلة العريباب وتعـالوا الرصاص ما يأخذ الناس مع أنه بين العريباب وفداسى مسافة ضعف المسافة بين رفاعة والعريباب فلما رأيت ذلك ذهبت لديم أحمد ولد البصير الذى حضر من المهدى وحاصر معه بالغرب وحضرت موقعتين احداهما هجمنا حتى قلعنا بعض

---

(١) أفى اسم صوت معناه واحسرتاه
(١) تبالك

شوك الزريبة ولكن الوابور هاجمنا من جهة البحر فرجعنا تاركين وراءنا أمواتا منا ومنهم ثم أن محمد البصير سمع بأن الشيخ عوض الكريم جمع الشكرية وجاء ليحتل الشرق قبالة قيقر صالح فضغط على عبد الله الذى سبق والده واحتل شرق القيقر فلما رأى صالح ذلك أرسل للشيخ العبيد ليحضر بنفسه واسطة للحلاوين ليقبلوا شروط صالح التى يعرضها عليهم للصلح وفى الباطن يريد أن يحفظه معه بالقيقر فيأمن عادية العركيين بالشيخ حمد النيل وعادية الشكرية بعبد الاله وأبى عاقله وعادية المسلمية بالشيخ العبيد ويأخذ طريق الشرق الى الخرطوم فلما حضر الشيخ العبيد أرسل له الوابور ليدخله بالقيقر فقال جملته المأثورة — انا ترن ترن[٢] عند القيف حرن — أنا مانى فار بدخل (الجحار) ومانى صبر بدخل الققر أنا ود ريه المايربط النية أنا مانى متل ولد الطريفى (حمد النيل) —جاء يتفولح جاب ضقلها يتلولح ان سلمت سلمت واما سلمت باكر يجى أبو قرجه وتقيف الهرجه ورجع الشيخ العبيد لرفاعه فلما وصل أبو قرجه ومعه المدافع ندم صالح وأرسل للشيخ العبيد فرجع من رفاعة وحصل التسليم على يده وسافر صالح وسناجكه ومن معهم للخرطوم والحلفاية وتوجه أبو قرجه بجيشه فحاصر الخرطوم وصارت كل الجزيرة خاضعة للمهدية عدا الخرطوم وسنار .

هجرتنا للمهدى وحصار الخرطوم :

أخذت والدتى كطلبها الملح وهاجرنا للمهدى بشوق وأخلاص عظيمين (لأنى كنت رايته) وأعتقدته حينما كان يزور رفاعة لوصال أقاربه ومعه تلاميذه نائروا الوجوه نظيفوا الثياب منظموا الاذكار وكثيرا ما كنا ونحن طالبوا علم نقصد معه صلاة المغرب لنسمع قراءة الخشوع منه وقد قرأ سورة القارعة مرة فى الركعة الأولى فحينما قرأ «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» صعق وخر مغشيا عليه فتقدم غيره من حيرانه وأتم الصلاة بالناس وأنا منهم فلم يصح حتى بارحناهم . هاجرنا أنا ووالدتى ومعنا خالى باشا الذى غير اسمه

---

(٢) ترترن اسم صوت بمعنى امتنع عن السير والقيف هو الشاطىء وحرن توقف النية الشىء الغير ناضج من طعام أو عمل — يتفولح بمعنى يحاول الفلاح والضقل هو الوتد طار فشج من كان يثبته

المهدى عم الى محمد يوسف فوجدناه بديم الحنيك أو فى الديم الذى جنوبه وفى الفيضان خرج جيش الخرطوم بالبر والوابورات بالبحر على أبى قرجه بديم برى فهزموه بعد أن قتل أخواه نصر ـ الذى أدخل حصانه أو أدخله حصانه القلعة قبل الناس فكان أول قتيل ومصطفى ، فارتفع أبو قرجه بجيشه قبالة قرية ولد جار النبى قبلى الخرطوم بنحو يوم ونصف بالقافلة حيث كتب له المهدى كتابا جاء فيه « ولا تبتئس بما حصل فان الله تعالى أراد أن يميز الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى قبضتنا . » وما زال هناك حتى جاءه ولد النجومى وعبد الله ولد النور حيث وضعوا ديم العائلات فى المنتصف بين شجرة ماحى بك والجريف وحاصر ولد النجومى على النيل الأبيض وعبد الله ود النور على النيل الأزرق وعبد الله ود جبارة وحاج خالد العمرابى بحلينقو الخرطوم بحرى فلما رجعنا لرفاعة طلب والدى مرة ثانية لحصار الخرطوم مع من طلبوا وكانت مزارعنا ماثلة للحصاد ولوالدى سمسم كثير جلبه من كركوج فما كان منى الا أن يتحكم فى عقلى الشوق للجهاد فأخذت والدتى وزوجتى وزوجة والدى وكل السمسم فى مركب استأجرتها وتركت المزارع لأخى موسى بدرى ومن معه من الرقيق وسافرت حتى وصلنا الجريف خرجت من المركب قاصدا الديم فلما رآنى والدى اندهش وقال كيف جئت ولمن تركت الزرع ؟ قلت تركته لله والجهاد أفضل منه ولما كان يعلم صحة عقيدتى وضعف عقيدته فى المهدية سكت لئلا يسمع الجلوس مادار بيننا فيتهم بالانكار وبعد هنيهة قال لى من جاء معك ـ قلت لم أترك غير موسى والرقيق ـ قال : والسمسم ؟ ـ قلت أحضرته معى ـ فهز رأسه عجبا أو اعجابا لا أدرى . فى الحال قام واشترى ثلاث غرف لحفظ السمسم واشترى بروشا وأخشابا لبناء منازلنا وفى الصباح أنا مشيت حالا للديم بالغرقان ووالدى توجه للمركب بنفسه وبعض من أولاد معارفه فلم أرجع لمنزلى ولا لوالدى وأشقائى الا بعد أسبوعين وكنت فى أقرب النقط المعدة لحصار الخرطوم بحيث نرى السجارة ونسمع الكلام ليلا ولا نمكن عدونا نهارا من الخروج من مكمنه كما أنه لا يمكننا كذلك من ورود الماء الا ليلا .

حوادث :

كان الجيش جميعه يخرج يوم الجمعة للعرضة (الاستعراض) وحينما

يرجع يقف عند بيت عبد الله ولد النور بجوار الجامع فظننته منزل ود النجومى ففى بعض الأيام جاء المدعو محمد حاج خالد الرباطابى بمنشور بخصوص المتخلفين عن المجيء للحصار بألا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم ولا يعاملونهم واذا مات أحدهم لا يصلى عليه ويختم بالآية : قال تعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » الخ ...

فعارضته فقلت المهدى عم رحمه لا يكتب مثل هذا القول ـ فقال لى بحده واستهانة ـ انتم ناس الجزيرة مثل أهل القيقر لا يصل الى قلوبكم نور الايمان بالمهدى عم فغضبت وتوجهت فى الحال الى المنزل الذى كنت أظنه منزل ولد النجومى وجلست فى راكوبة صغيرة عند باب الزريبة حتى خرج رجل لا أعرفه فقمت اليه وقلت له يا أخى هل جاء منشور من المهدى عم عند الشيخ عبد الرحمن النجومى موضوعه كذا وكذا ؟ قال لى لم يأت عندنا . اللهم الا أن يكون جاء عند الشيخ عبد الله ولد النور ووضع يده اليسرى على كتفى ووضع يدى اليمنى على كتفه وسار بى يحادثنى بخصوص المنشور وصرنا كلما رآنا أحد المارة يتبعنا حتى جاء أحد حاملا ظروف طبنجية مسدس من النوع الذى فى آخره شوكة فوقف أمام ولد النجومى بخضوع فقال له ـ أعطانى فلان هذه الجبخانة وقال أوصلها لسيدى ولد النجومى فقال له صاحبى ـ سلمها فلانا ـ فتأكدت ان هذا هو ولد النجومى الذى ارتفع بهذا التواضع فشرعت أتحلل منه فلما شعر بذلك صافحنى وقال لى : صل الظهرفى الصف الأول جهة اليمين فاذا سلم الامام قم واقفا لأراك ـ فلما رآنى أشار لى بيده ان تعال ـ فمشيت نحوه مطمئنا وكان الامام الأمير عبد الله ولد النور فلما وصلته قال : يا عبد الله اسمع كلام الانصارى هذا فحكيت له قصة الأنصارى ـ فقال : لم يأتنا هذا المنشور وأنا كثير الشك فيه فطلبنا محمد الحاج خالد واستلما منه المنشور وأرسلاه للمهدى عم بجواب فجاء الرد بالسلب ويزيد التأكيد بأنه كل منشور لم يكن مختوما بختم المهدى لا يعتبر صحيحا .

الحالة الثانية رؤيا منامية رأيت فيما يرى النائم أن أحدا جاء يخبرنا ونحن بطابية الحصار ان المهدى عم سيزور الرباطاب هذه الليلة وسترسى به

المعدية عند ديم النور الكترى بقرب الشجرة فذهبت فيمن ذهبوا لمقابلة المهدى عم فلما وصلتنا المعدية خرج منها رجلان وعند أحدهما مخلاة فيها كتـــاب فاستأذنته فى قراءة جزء منه فأذن لى فلما فتحته وجدته مناشير المهدى مطبوعة بنفس المطبعة التى طبعت بها بعد فتوح الخرطوم بنحو عام وبنفس السجـل ففتحت منشور حياة الدين فلما وصلت منه الى قول المهدى عم ــ قال عليـه الصلاة والسلام آخر أصحابى دخولاً الجنة عبد الرحمن ابن عوف لمكان غناه قال صاحب الكتاب لأخيه : اسمع ياعبد الرحمن مايقولهذا؟ فقالعبد الرحمن: هذا ما أراد الله ــ فقلت له ومن عبد الرحمن ؟ قال هو عبد الرحمن بن عوف قلت ومن أنت ؟ قال أنا سعد بن معاذ فأعطيته الكتاب وتبعتهما حتى وصـلا طابيتنا فوقفا وقالا لى اذهب الى ذلك القصر وقل لمن تجده فيه أن سعدا وعبد الرحمن ينتظر انك لتذهب معهما فلما دخلت القصر وجدت تحت سلمه فردة نعال من ملبوس النساء مما نسميه المحبوكة ذات سيور كأنها الحرير فأخذتها بيدى وثنيتها فطاوعتنى حتى يكاد يلتقى رأسها بمؤخرها فقلت فى نفسى هذا ملبوس أهل الجنة والحال انها بليت فألقيتها ثم دخلت الغرفة فوجدت الرجل على سرير فى ناموسية من نسيج التل (وما كنت رأيته) فلمسته بيدى فكادت تنزلق عنه فبلغته الرسالة فأبدى أسف الحزين وقال هما عارفانى أنا أستطيـع السعى معهما أبلغهما سلامى فذهبت لهما وأخبرتهما فسمعت أحدهمـا (ولم أميزه منهما) يقول للاخر عبد الله ولد النور بقى له سبعة أما عبد الرحمن ولد النجومى فكثير ولم يذكر أياما أو شهورا أو أعواما وذهبا وانظر اليهما حتى قطعا النيل ولم تحجبهما عنى منازل الخرطوم فانتبهت ووجدت نفسى باكيـا وعيناى غرقى بالدموع فأخبرت أخوانى بهذه الرؤيا وانتشر خبرها حتىوصل ود النجومى فسألنى عنها وتعجب منها وبعد يومين سمعتمن عبد القادرالعجب ان الترك اليوم سيخرجون الى برى وهو راكب حصانه ومعه فارس آخر عزما على أن يحضرا هذه الغزوة فصحبتهما وأنا راجل حتى وصلنا برى وفعلا نحو الساعة ٣ مساء ونحن فى الطابية المسماة بالدار الآخرة ببرى رأينا جيش الترك خرج من القيقر فنهض عبد الله ولد النور وخرجنا معه فالتقينا فى فسحة فيهـا أشجار صغيرة فصار عبدالله ولد النور يقول : يا أصحاب المهـدى أما ترون الحور العين يتبخترن وبأيديهن المناديل البيضاء يلوحن بهاوهو يهدرويزبد بحالة تشبه

الذهول فلماهجمنا على الجيش ارتد أمامنانحو القيقر فاذا الضابط ٠٠٠٠ يردهم برجله وصوته فهجم عليه عبد الله ولد النور وطعنه بكرسه فى بطنه فجاء أحد عساكره من خلف عبد الله ولد النور وسحب الكرس بقوة قطع بها شاكلة ابهام يد عبد الله ود النور اليسرى وهجمنا عليهم هجمة ردتهم الى القفرة نهائيا فلما رجعنا وجدنا الضابط ٠٠٠٠ ميتا ورأيته خارجا مستعدا للموت حالقا جميع شعر جسده وهذه علامة من يستعد للموت وفى يوم السبت المقبل وهو اليوم السابع لرؤيتى سمع ولد النجومى أن جيش الترك خارج لولد النور برا وبحرا من كل الجهات فأرسل من الفرقان مددا لبرى وكانت رايتنا من ضمنهم ولكننا ندبنا مؤخرا فلما قابلنا باب المسلمية رأينا جيشا خارجا من الباب فوقفنا لمقابلته فلما قرب منا هجمنا عليه ورددناه بعد أن قتلنا أكثره وغرزنا رايتنا بين قتلاهم ونقلنا قتلانا بعيدا وراءنا لعلهم يرجعون بمدد غزير فيلجئونا لترك موتانا وراءنا ٠ كنا نرى موتاهم وكان أكثرهم سودانا نبهنا بعض من كانوا رأوا النار تحرق الأجسام من الموتى لأحدهم .

فرأيت جرحه قد احمر احمرارا شديدا ثم أسود ثم أخذ يبدو منه زبد صغير ثم خرج منه دخان كدخان السيجارة ثم اشتعلت فيه النار فجعلته فحمة هذا وما زلنا نسمع فى برى ضرب المدافع والبنادق وأصوات الأنصار كرا وفرا حتى العصر وما زال أميرنا محمد الحاج بشير يقول ما لعبد الله ولد النور لا يرسل لنا أحدا يعلمه حقيقتنا حتى جاءه من أخذه بعيدا عنا فأخبره بموت عبد الله ولد النور فرجع لنا وما زال يكرر قوله الأول ليطمننا على حياة ولد النور فرجع لئلا تضعف قوتنا المعنوية حتى كان الاصفرار فسكتت الحالة فى كل الميادين وذهبنا لبرى وحينما وصلنا جاءنا ولد النجومى ونزل فى القبر الذى وجدناه محفورا ووضع جنازة صديقه الحميم بيده وحمد الله على نيل الشهادة ولم ير فى وجهه أى أثر للحزن ٠ وفى الوقت نفسه طلب أخاه مكين ولد النور وسلمه راية أخيه وجعله أميرا مكانه فانظر لمصداق هذه الرؤيا ٠ ولما علم المهدى عم بوفاة عبد الله ود النور وصبر ولد النجومى قال عم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر عبد الرحمن ولد النجومى وما بدلوا تبديلا ٠

حادثة :

خرجنا مرة من الديم ذاهبون الى برى وكنا تسعة فلما قابلنا باب المسلمية رأينا حركة عساكر خارجين من القفرة . فقال أحدنا هؤلاء العساكر يلزم أن يكونوا ذاهبين الى الجريف والوابورات تأخذ الغلال ـ فالأحسن أن تقف هنا ونشاغلهم ببنادقنا حيث نضرب مرة واحدة ليسمع ولد مدرع ومن معه صوت البنادق فيتنبهون . وقفنا وجعلنا نضرب بنادقنا بصوت واحد وبينما نحن كذلك اذا رأيت أنا شبح المهدى عم حاملا كرسه مقدم على باب المسلمية حيث الجردة ظهرت تماما وقائدها على حصانه فجعلت أقول لمن معى هل ترون المهدى قاصدا الجردة يقولون لم نره أقول ها هو مال عند تلك الشجرة الصغيرة وهاهو صعد القوز الرملة ذاك فلم يره أحد غيرى وأنا أنظر لذلك الشبح حتى دخل وسط الجردة فقلت لرفقتى هاهو دخل الجردة فما لبثت أن جالت واختل نظامها فغيرت اتجاهها رجعت للقفرة فغيرناسيرنا لبرى أنا لاأعتقد أن ذلك هو المهدى عم ذاته لأنه محاصر أم درمان بالغرب ولكنى أظنى من ذلك الوقت أنه ملك أو من مؤمنى الجن تمثل بصورة المهدى عم ليطمننا فى موقفنا الحرج فنؤدى واجبنا بعد ذلك جاء فيضان النيل المنتظر للفرج لسكان الخرطوم فأرسلت الوابورات لسنار فجاءت بقليل من الغلال فما وجدته فى نفس المدينة بعد تمكنها من الوقوف فى أى مكان بين المدينتين كذلك أرسل للنيل الأبيض وابور فيها سأتى بك فخرج فى القطينة التى هو من سكانها فحاربوه وقتل فيها فرجع الوابور خائبا فأحس غردون باشا بشدة الوطأة ولم ير فائدة فى بقاء الأهالى الذين لا يشتركون فى الدفاع عن أنفسهم ويشتركون فى الغذاءات أو يموتون على حساب قسوته فسرح لهم بالخروج الى حيث يريدون فخرج منهم عدد كبير نشروا خبر المجاعة بالخرطوم وشدد ولد النجومى الحصار وغردون باشا لم يرسل جيشا خارج القفر ليهاجمنا بل اقتصر على اعداد الغذاء لمن بالخرطوم والمحافظة على الذخيرة حتى يصله جيش الحملة المرسلة لانقاذه ـ وصار يعلل الناس ويمنيهم كلما اشتدت المجاعة عليهم وطأة الحصار وملهبة الجوع بتنويع الحيل ولم يبق مما على القائد المحنك عمله الا عمله ولكن الحذر لا ينجى من القدر ، فلما سمع المهدى عم باقتحام جيش الحملة لعقبة جقدول أرسل جيشا كثيفا من خيرة جيشه أكثره من دغيم وكنانة تحت امرة الشيخ

موسى ولد حلو شقيق الخليفة على ود حلو فالتقوا بمكان يقال له أبو طليح فعنى أكثر جيش المهدى وقتل قائدهم ولم ينج منهم الا النادر .

بايعونى على قص الرقبة

لما وصل جيش الحملة الى المتمة فلما علم المهدى عم بذلك جمع أهل شوراه واتفقوا على التعجيل بفتوح الخرطوم قبل وصول الجيش الحملة وفعلا فى ليلة الاثنين ١٦ ربيع ثان آخر سنة ١٣٠٢ جاء المهدى عم وجمع له الجيش بين حلة الغرقان ومدينة الخرطوم فخطبنا وهو على جمل فمما قاله قبل البيعة الأخيرة أن أعداء الله قد حفروا حفرة القفرة (الخندق) عريضة غريقة وبثوا فيها ضريساء الحديد وهى أربعة أشواك من الحديد تعتمد دائما على ثلاثه وترفع الرابعة لتدخل فى رجل الرجل والفرس بايعونى على قص الرقبة وسكت هنيهة حتى قال كل الجيش بصوت واحد بايعناك على قص الرقبة كرر هذه العبارة ثلاث مرات وبعد ذلك قال اذا فتح الله عليكم فغردون لا تقتلوه والشيخ حسين المجدى لا تقتلوه والفقيه الأمين الضريرى لا تقتلوه ولهم رابع نسيته [1] ثم قال ومن رمى سلاحه لا تقتلوه ومن قفل عليه بيته لا تقتلوه فعارضه رجل أسمع صوته ولا أرى شخصه قائلا يا سيدى فى بعض الجردات التى قتلناها رأينا العسكرى يرمى سلاحه فاذا تعديناه أخذ سلاحه من الأرض ويرمينا أو يضربنا به فقال المهدى عم بعد ما سمع كلامه الذى تجدونه فى خط النار أقتلوه . قال تعالى «فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا » ثم بايعنا البيعة المعتادة وهى بايعنا الله ورسوله وبايعناك على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نعصيك فى معروف وألا نفر من الجهاد (وربما زاد) بايعناك على زهد الدنيا واختيار الآخرة ولم أعقلها تماما تلك الساعة وقلعت الرايات وقصدنا القفرة فكان طريقنا من الجنوب الغربى حيث دخل النيل الأبيض فى الخندق ورجع فردم الخندق وكنت فى أوائل الناس فلم أشعر بأنى مررت على خندق حتى وجدت نفسى عند المدفع الذى كان يضرب فينا فلما وصلنا دخل الذين كانوا يضربونه فى خيمة وألقوها عليهم فقتلوا تحتها وما زلنا نتقدم على شفير الخندق الداخلى حتى وصلنا قبالة صرايا غردون فالتقينا بالأنصار الذين دخلوا عن طريق برى

---

(١) سمعت من عمنا الشيخ أحمد حسن عبد المنعم فى مرة وأبى يحكى هذه القصة أن قال له أن الرابع هو الشيخ محمد السقا .

وملنا نحو الصرايا فوجدنا غردون باشا ملقى ودمه يجرى فغضبنا على قاتله حيث أوصى المهدى قبل ساعتين بأعلى صوته بعدم قتله وكانت الساعة ٤ أو ما يقرب من ذلك ثم أخذنا شارع النيل حتى وصلنا قبالة الجامع فعجنا عليه فوصلناه عند شروق الشمس فرأيت الفقيه الأمين الضرير بالجامع وعليه جبة صفراء وعمته كبيرة على طربوش ولم أذكر لون القفطان تحت الجبة فحمدت الله على سلامته أما الشيخ حسين المجدى فقد قتل . ونحو الساعة ١٠ صباحا اجتمعت بمختار الرباطابى فمشينا معا حتى وصلنا منزل أبى السعود باشا ووقفنا فى دهليزه الذى كان بين غرفتين الغربية منها بابها مفتوح وكانت ابنته البكر العانس تمشط شعرها على المرآة فرأت شبح حرابنا فخرجت من باب شمالى وجرت على ممشى بجانبيه على ما أتذكر قصب سكر أو ما يشابهه حتى دخلت المرتفق وقفلته عليها فأخذت أقول لها أخرجى نحن أولاد بلد نحفظك ولا نؤذيك — عليك أمان الله ورسوله والمهدى . وما زلنا بها حتى خرجت لنا وهى ترتجف فخرجنا بها الى خارج بيتها لنضعها فى مأمن فلقينا بقرب الباب راية الكلاكله فادخلناها فى منزل محمد باشا حسين الذى علمناه أن مكين ولد النور أميرنا الأكبر اتخذه مأوى له ولم أرها بعد ولكننى سمعت انها تزوجت بالسيد محمد صالح جد الاشراف آل المهدى قلت لم أرها حتى يوم غرة رمضان سنة ١٣١٤ ليلة زواجى لأم أولادى ، حكيت بمناسبة حكايتها فقيل لى انها ضمن المدعوات فى زواجك وأخبروها فجاءتنى وشكرتنى حتى أخجلتنى وحكت نفس الحكاية . قلت أنا دخلت الخرطوم فى أول الداخلين ولم أشعر بوجود خندق ولكننى اجتمعت بعد ما فارقنى مختار فى نحو الساعة ١٢ بمحمد مصطفى عبد القادر الرباطابى فوجدت ملابسه ملطخة بالطين وقد يبس عليها فقلت له ما هذا الطين — فقال لى حينما دخلنا الخندق وجدناه ملىء طينا مائعا فغصت فيه الى ما بعد ركبتى وجعل كل من جاء من الأنصار يمسكنى من كتفى ويقفز أمامى فبعضهم يمسكه الطين والخفيف منهم يخرج من اليابس حتى جاء والدى مصطفى فلما وضع يديه على كتفى رأيته فعرفته وقلت له يابا فقال لى محمد ؟ قلت : نعم فخرج ووضع سلاحه خارج الخندق ورجع لى فجرنى من الطين الذى وصل صلبى ثم توجهنا معا وكان العامل قد أمر أن يرتفع السلاح والأنصار يحوزون المنازل من أهلها وأمر سكان الخرطوم بالخروج للديم فوالدى

الرؤوف لم يقتل أحدا مع أنه دخل الخرطوم مع أول الداخلين بل أخذ ثمانية رجال خرج بهم قبل رفع السلاح وكلما هجم عليهم أحد يقول لا لا أن الأمير ولد النجومى أمرنى أوصلهم الديم لأنهم صناع يحتاج لهم فى خدمة الدين فيتركونهم حتى أوصلهم الديم وبقى بعضهم بمنزلنا حتى سافر والدى لكركوج بعد ثمانية شهور من فتوح الخرطوم .

عندما صدر الأمر للانصار بحجز المنازل فى يوم الفتح حجزنا أنا ومحمد مصطفى منزل رجل يدعى محمد على بك وصوص أظنه تاجرا أصوليا فوجدنا فيه الزبيب ودقيق القمح والسمن واللحم المقدد وجوالات الذرة ولم نجد به أحدا فلم نمس شيئا من هذه المأكولات لانى كنت صائما ولو كنت غيرصائم لا يمكن أن آكل كصاحبى حتى يصدر الاذن من ولد النجومى عن المهدى عم باباحة ما يؤكل مما يوجد من المأكولات وفعلا لم يصدر الاذن الا ضحى الثلاثاء حيث خبزنا من الدقيق قراصة ادمناها بالزيت تقشفا مع وجود السمن والعسل ثم فكرت فى أن صاحب هذا المنزل يجب أن يكون عنده من النقود والحلى الشىء الكثير فأخذنا فى البحث الدقيق فلم نجد شيئا حتى استعنا بجيراننا الذين أخبرونا انهم يخبئون حليهم فى البئر أو المستراح فانزلنا محمد مصطفى فى البئر فوجدنا حلى المرأة شيئا كثيرا كان من الذهب فأخرجناه وربطناه فى بشكير وحملناه معا الى بيت المال ـ فوالله ـ ما كنا نفرق بينه وبين الجنائز التى كنا نمر عليها حتى أوصلناه لبيت المال ولم يخطر ببال أحدنا أنه يحمل مالا فيه الغناء لمدة الحياة لو اختلسه

انظر الى هذه التعليمات التى تصرف شابا مثلنا عمره ٢٣ سنة وله زوجة ومن له زوج يرجو له أولاد ولكن رجاءنا لما عند الله صرفنا عنها رحلنا من بيت محمد على بك الى بيت حاج ناصر أبو حشيش الفتيحابى لأنه واسع يسع عائلتنا وبعد يوم من رجوعنا به سمعنا حركة فى خزنة أحد الغرف فظنناه رجلا مختبئا فخاطبناه بالأمان ليخرج فلما طال الزمن دخلت عليه ومعى عمى محمد أحمد شكاك خلفى وكان المخزن ظلاما فلما وصلته نفر منى وكاد ينطحنى فاذا هو ثور مخبأ .

سمعنا ليلة الجمعة أن المهدى عم سيزور الخرطوم ضحى يوم الجمعه ٢٠ ربيع آخر فنزلت فيمن نزل للنيل للقائه فجاءوخاض الشاطىء كغيره وركب

حصانا أسودا بلجامه وسرجه كناتل وسرنا خلفه حتى وصلنا بيت المال وكان بمنزل المفتى شاكر فنزل عند الباب ودخل فكنت خلفه مباشرة فوجدنا ابراهيم ضرار ابن خال احمد سليمان المحسى امين بيت المال وكان من عماله فصعد السلم وصعد المهدى عم وصعدنا معه وكنت متلصقا بصفحته فأول ما فتح له الغرفة المحفوظ فيها الذهب من حلى وجنيهات وسبائك اكواما فلما فتحت الغرفة وتوهج الذهب التفت المهدى عم عنه بسرعة البرق وصد عنه راجعا فوقفت وتفكرت بالذهب وذكرت بيت البوصيرى :ـ

فراودته الجبال الشم من ذهب ...

وقلت لنفسى هذا والله هو الشمم. فلما نزل من السلم رأى الميزان ذا الرمانه قال ما هذا ؟ قيل له ميزان يا سيد للمثقلات فقال هل يبين نصف الرطل قيل له نعم فاذن فى استعماله فلما خرجنا من باب السور قابلته امرأة تبكى وقالت له يا سيدى المهدى ابنتى باطفالها فى الزريبة ، وهم متعبون ائذن لى فى أخذها فقال لها ما هى الزريبة ؟ قالت : المكان الذى جمعت فيه النساء . فطلب أحمد سليمان وهو واقف مكانه فقال له : ما الزريبة ؟ فقال أحمد سليمان : الزريبة اسم المكان الذى جمعنا فيه نساء الخرطوم أللآتى لم نجد لهن معارف قال له امش بنالها لا نظرها وتبعناه طبعا فلما قربنا منها سمعنا ضجة كبيرة فلما وصل أمر أحمد سليمان قائلا : يا أحمد كل هذه الحريمات يوزعن قبل غروب الشمس فمن عرفها أحد أو عرفت هى أحد تسلم اليه والشباب ممن لم يعرفن ولا يعرفن أحدا زوجوهن ورجع ونحن معه واحمد سليمان أمامه حتى وصلنا منزل أحمد سليمان وجاءوا لنا بزلابيا (لقمة القاضى) ففطرنا منها ورجعنا الى منازلنا وفى الظهر حضرنا للجمعة بالجامع حيث خطب المهدى عم وصلى بالناس وفى آخر خطبته قال : ياأصحاب المهدى أحمد سليمان شغل الاشراف بالمال فولوا : نعوذ بالله من حالهم ثلاث مرات وهم طروق كأنما على رؤوسهم الطيروهم عشيرته الأقربون بينهم أعمامه وأبناء أعمامه هذا هو القول الفصل الذى ليس بالهزل وفى عصر هذا اليوم زار المهدى عم قبر والدته وهو على الربوة التى بجنوب أسبتالية العيون بالقرب من الباب الذى يقفل للقطارات . وفى يوم الاربعاء ثالث يوم الفتح نحو الساعة ٤ مساء ا بالافرنجى وصلت الخرطوم وابوران مرسلان من جيش الخلاص ولعله وصل خبر فتح الخرطوم ليتأكد من

ذلك ، وقد وصلت شرق الاسكله حيث ثنا بجنينة النور الخبير (جنينةالأوقاف) فضربناها بالبنادق وحينما تأكدت من وجودنا بالخرطوم رجعت

صار المهدى عم يتنقل بين أم‌درمان التى أسست جديدة شمال بلدةأم‌درمان التى‌كانت‌قرية صغيرة ثكنات الجيش الآن حيث قبورها ظاهرة يتردد بينهـا وبين الخرطوم حيث أتخذ بيت بابكر الجاركوك منزلا له وتزوج أبنته وجعله مسجد صلاته لغير الجمعة‌وأصحابه‌الموجودين‌بالخرطوم فمما أذكره‌أنه قرأ آية ولقد ضرب لهم القول فلما قرأ آية : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها » الى قوله «وكنا نحن الوارثين» وانحنى فقلت أنه سيموت‌ورفع‌رأسه‌فاذا لحيته كلها تقطر من دموعه ولما وصل آية «ممن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه» كررها ثلاث مرات بتلك الحالة .

التحضير لغزو الشمال :

لم يسكت المهدى على قتل الانجليز لجيش موسى الحلو بأبى طليح فبعد شهر أمر جيش ود النجومى بالتوجه للمتمة لطرد الانجليز منها وكنت فى هذا الجيش حيث ركب معنا المهدى نفسه الى كررى حيث زار قبر والده وودعنا هناك بتجديد البيعة ورجع ولما وصل ولد النجومى المتمة وجـد الجيش قد بارحها راجعا بطريق جقدول وسار توا لدنقلا حيث بلغ المهدى عم تناقله‌لدنقلا فكتب منشوره الشهير ببلاغته الذى كتبه وهو محموم منه . « أحبابى لا يخفى انكم ممن صحبنى فى القلة وقام معى فى الله بلا علة وفدى الدين بمحبوباته‌رغبة فيما عند الله » ومنه : « أحبابى أن الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار . » وليجدوا فيكم غلظـة ... الآية .. وأن أمر مديرية دنقلا قد صار أمرا مهما لتراكم أعداء الله بها ولو أن تحزبهم العارى عن معونة الله لا يغنى عنهم شيئا ولا هم ينصرون ماداموا فى‌نصرة جاههم ومالهم . ومنه « وسيروا الى الله عرجى ومكاسير ولا تنظروا الى خيال التشاهيل المؤدية الى التعطيل فانكم أحبابى من العقلاء والفطناء الذين يعلمون أن قيامنا هذا هو بالله لله ابتداء وانتهاء ولو كانت الأموال والتشاهيل ممـا ينفع أو يضر لكان للترك فى ذلك حظ وافر ولكن كل من كان لله كان الله له ــ ومن تمسـك بالأسباب تقطعت به من مقام الأطياب الى‌منازل الكلاب وحاشاكم ذلك أيهـا الأحباب . » الخ ... كل من هذا النوع فانظر الى قائد أعلى يأمر جيشا من

خيرة جيوشه بالتوجه الى أقوى عدو جربه فى جيش لا يقــل عن جيش ولد النجومى عددا وعدة وروحا معنوية وينهاه عن الالتفات الى التشاهيل بالذخيرة والمؤن بل يأمره أن يسرع كما بدا أمره يكلف أصحابه الممتلئين منه حماسا المقتدين به فى أقواله وأفعاله وبعد شهرين أو تزيد قليلا توفى المهدى عم ورجع جيش ولد النجومى لأم درمان وكنت قبل وفاة المهدى مرضت بالملاريا ورجعت الى أم درمان حيث كنت بالخرطوم حينما انتقل المهدى عم الى الدار الآخرة .

عجيبة أحكيها . كنا بالخرطوم وكان يقرأ لنا الراتب عمى على شكاك وهو ليس من المظنونين بالكشف لكنه كان يقرأ ثم يضع الراتب من يده على فروته ويقول لنا اذا جاءنا أحد الآن وقال المهدى مات ماكنا صانعين به تقول له : ـ نقتله أو نشبعه ضربا يرفع راتبه ويقرأ كرر هذه المقالة أياما ـ وفى تلك الأيام انتقل المهدى للدار الآخرة .

عجيبة أخرى رأيت مناما انى والمهدى عم ومعنا ثالث يدعى محمد أحمد الشامابى رايتنا نحن الثلاثة بأرجلنا القيد الذى يسمى مكيه ـ فالمهـدى مشى بقيده وأنا تبعته قليلا وصاحبنا لم يستطع أن يقف ثم أن المهدى مشى غربا وأنا أنظر اليه حتى غاب عن عينى بدون حائل ولا ظلمة ولا غبار بل حجب عنى فى السهل القريب نهارا فقصصت هذه الرؤيا على جماعة وكان ضمنهم عبد الله حاج الحسن قديلاوى فقصها على صاحب له مصرى وكان وكيل التلغراف بالخرطوم بعد الفتح فقال له أحضر لى صاحب هذه الرؤيا فاجتمعت به فسألنى هل المهدى مشى بقيده ـ قلت نعم ـ وهو الذى غاب عن عينيك دون حائل ما قلت نعم . قال اذا صحت هذه الرؤيا يحصل أمر عظيم غير منتظر فلما توفى المهـدى عم اجتمعت بذلك المصرى وقال لى لو قلت لك فى ذلك اليوم المهدى يموت قريبا ماكنت فاعلا بى ؟ قلت كنت أقتلك قبله .

تسليم حامية سنار :

وبعد وفاة المهدى اشتدت وطأة جيش سنار على محاصريهـا فانكسرت رجل القائد الأكبر السيد محمد عبد الكريم فى وقعة البقره وقتل الشيخ عبد القـادر أبو الحسنى أمير اليعقوباب ومعتقدهم والشريف على الهندى ورحل الديم من مكانه فطلب الخليفة عبد الرحمن ولد النجومى من المتمـة ليرجع بجيشه فرجع ووجهه لفتح سنار فلما وصلنا المسلمية انتخب عمى على شكاك

ليكون أمينا لبيت مالها فاستعار حصانى وعبدى صباح الخير ولما وصلنا البرياب وجدنا السيد محمد عبد الكريم هناك ورجله مكسورة وهو فى قطية عليها راكوبة فجلسنا فى الراكوبة ودخل عليه ولد النجومى مسلما ومسليا وفى تلك الساعة حضر مندوب من حامية سنار تطلب التسليم على يد ولد النجومى فقال ولد النجومى للسيد محمد النصر نصرك واسمك هو الذى أكرههم فلا أجحد ذلك ولا أعمل عملا يشركنى معك فى النصر وألح عليه ولد النجومى وأقسم ولد النجومى أنه لا هو ولا جيشه يدخل سنار كفاتح الا بعد تسلمها وجمع أسلحتها وغنائمها على يدك أو على يد من تعينه عنك فقال له السيد محمد عبد الكريم أوكلت السيد محمد أحمد ادريس والشيخ مضوى برا لقسمك فودعه ولد النجومى ورأيت السيد محمد يكرر الشكر لولد النجومى ويدعو له بالخير ــ وصلنا سنار وحجزنا ود النجومى فى البقره بالمكان الذى أخلاه السيد محمد عبد الكريم وجيشه وباشر التسليم الشيخ محمد أحمد شيخ ادريس ومعه الشيخ مضوى عبد الرحمن العالم المحسى ــ ونحن لم يدخل أحد منا سنار الا متفرجا . وفى اقامة جيشنا بسنار قبل رجوعه لأم‌درمان زرت والدى بكركوج رجعت فوجدت الجيش رحل لأم درمان فواصلت‌سيرى راجلا حتى وصلت الخرطوم حيث كنا مقيمين هناك .

رؤيا الموت :

عاودتنى حمى الملاريا التى انهكت قواى حتى صرت تحملنى الخادم بخيته للمستراح وترجعنى كالطفل فانقطعت من الصلاة فى الجامع وهذا أشد ما كنت أجده من ألم الحمى ففى ضمن بعض الأيام سمعت الجماعة الراجعين من الجامع يرتلون الشهادتين بأصوات عالية فانتحبت حتى غبت عن وعيى وفى أثناء غيبوبتى رأيت ثلاث رجال بيض الوجوه واللحى أحدهم يحمل سكينا كبيرة والثانى يحمل ميزانا والثالث يحمل حبلا من القد فجلس الذى بيده السكين فى حجرى والذى بيده الحبل عند رجلى والذى بيده الميزان عند رأسى فاستحضرت فى نفسى أن هؤلاء ملائكة الرحمة جاءوا لقبض الروح وكنت قرأت وأنا صغير فى كتاب أن الانسان فى حالة الاحتضار يسلط عليه العطش ويأتيه الشيطان حاملا كأسا من الماء ويقول له أن سجدت لغير الله

سقيتك أو يقول له أن قلت انت ربى سقيتك وقد قرأت أيضا فى ذلك الكتاب أن من قرأ ـ لقد جاءكم يعصم منه الشيطان فجعلت أقرأ : لقد جاءكم فى سرى وبعد كلام قليل دار بينهم لا أفهم منه شيئا ـ تقدم من بيده السكين وقطع رجلى اليمنى من فخذها فخززت خزة شديدة شعر بها الناس الذين اجتمعوا حولى يلقنوننى الشهادة وأنا لا أسمعهم ـ ثم تحول لرجلى الشمال وأنا تحولت معه بعينى فقطع رجلى الشمال فجاء من بيده الميزان فوزنها فرجحت أحدهما ـ وأظنها اليمنى على اليسرى رجحانا واضحا فرمى الميزان وأنا أسمع له صوت صليل عال ثم قطع من بيده السكين يدى اليمنى ثم تحول فقطع اليسرى وفى كل حركة عينى تتبعه بتحديد شديد يتعجب منه من حولى ثم وزن صاحب الميزان يدى فرجحت أحدهما عن الأخرى أيضا فرماهما أيضا وأنا أنظر الى العضل يرف رفيفا شديدا فقلت فى نفسى يا سلام ـ لهذا السب الناس يقولون الروح للمحتضر خرجت من رجليه لأجل انهما يقطعان أولا • وأن الروح الآن جاءت فى حلقى بعد قطع يدى وصار الرجال الثلاثة يتكلمون • فى أثناء كلامهم رفعت رأسى فرأيت بنتين فى السقف بيد احداهما منديل أبيض وبيد الأخرى كوز شديد البياض وهما بيضاوان . شعر كل منهما متدل من السقف بارعتا الجمال فقلت فى نفسى هاتان حوريتان ينتظران خروج روحى لتسقيها صاحبة الكوز وتتناولها صاحبة المنديل الى النعيم المقيم وسررت جدا واستسلمت لخروج روحى ولكنى سمعت صاحب الميزان يقول لأخويه وهو يفرطق بأصبعيه بعيد وصعدوا فاتبعتهم بنظرى فلم أر للبنتين شبحا فانفتح لهم سقف البيت وحينما غابوا من عينى رأيت من حولى من أهلى وأخواتى يصحن والحسنى على صدرى ووالدتى ممسكة سبحتها تسبح بها ففى الحال شعرت بنشاط قوى فى بدنى فقلت بصوت عال مالكم اعطونى الطريق فافسحوا لى وهم فى سرور وبشر وعجب فقمت نشطا وخرجت ودخلت ولم يشتد المرض بعدها على وفى صباح ذلك اليوم شربت من ملح الطعام كمية وبعد قليل شعرت بأن الذى كنت أشعر به فى معدتى يصعد نحو حلقى فصرت أتنخم بشدة حتى أحسست به قريبا من فمى • فأدخلت أصبعى ورميت به فاذا هو ثعبان الباطن يتحرك متلويا فتم شفائى فما زلت الى اليوم كلما تذكرت حادثة احتضارى هذه تمنيت ان لومت آنذاك •

من فش غبينته أنهدمت مدينته :

أتذكر أنا وأحد أقاربى المدعو أحمد القويضى الشهير بجبد ذهبنا للخليفة شريف رحمه الله بعد شفائى ليعطينا خادمة نبيعها لضرورة لحقتنا فقال لنا اكتب لكم لأى أمير فقلت اكتب لنا لعلى شكاك بالمسلميةفتوجهنا له فوصلته وأنا محموم من تعب المشي راجلا وحصانى وعبدى عنده فلم ينتبه لى فرقدت على برش فى غرفة مظلمة وانى أسمع فى أنسهم وضحكهم وأتململ من الجوع والحمى (لأن الحمى الملاريا لا تمنعنا الأكل وانما تضعف الحركة حتى قال والدى بابكر وعلى شكاك نصيحا جوف ومرضى قوائم حينما رجعنا من المتمة محمومين)

ولما جاء عمر حجازى يرقد على فراشه بعد السهرة من سمرهم وطئنى وقال من هذا قلت بابكر بدرى فرجع الى عمى على وأخبره بحالى فلم يبد حراكا حتى أصبحنا وللحظ وجدت موسى أخى معه مستبنيه ولم يعلم موسى بمجيئى لوصولنا مساء وهو غائب فلما أصبحنا تقابلنا فأرسل عمى على موسى للجزار يحضر لهم أقتين كبده وثلاث أقات لحم ضان فاحضرها وكان عمى على شكاك متزوجا امرأة من غنائم سنار تدعى زينب بنت خير الله فلما جهز الغداء دخل موسى البيت فوجد عمى على ومن معه يأكلون وأنا لست بينهم بل راقدا فى جامع على ود شمو بجوار منزله فاغتاظ موسى وطلب صباح الخير وسالما عبيدنا فقال لهما شدا الحصان وأتيابه فلما أحس عمى على شكاك بذلك أخذ يستعطف موسى فما بالى به . فجرب السلطة ليكرهه على ترك الحصان والعبدين فما استطاع لأن موسى أهاج صباح الخير بأن حكى له ما حصل لى وأنا فى الجامع لا علم لى بذلك ولو أخذ رأيى لما حركت ساكنا لأننا زاهدون الدنيا وما فيها لا يهزنا مدح ولا يغضبنا قدح والانتقام لا يخطر ببالنا لأن المهدى عم يقول : (من فش غبينته انهدمت مدينته) فأخذ صباح الخيرالحصان وساق سالما قدامه وجاءونى بالجامع فركبت الحصان وركب موسى حماره وسافرنا فى تلك الساعة فأخبرت موسى انى جائع فاشترى لنا زاد وبقيت معه نقودا وصلتنا الخرطوم فى هذه السفرة اعترفت تماما بأن موسى أخى رحمه‌الله أكرم منى وذلك أنا وصلنا حلة الجديد فوجدنا فى سوقها كسرة مجلوبة ونحن

جياع جدا فاشترى موسى بكل ما معه طعاما قليلا أعطى للعبدين منه بقدر ما أبقى لنا وكان بودى أن نزيد عليهما ثم جاءنا رجل سائل فوددت أن نعطيه شيئا ونصرفه بكلام طيب فما كان من موسى الا أن قال له تفضل كل معنا فتصاغرت نفسى لدى وأكبرت أخى حد الاكبار .

فى سرية ود النجومى :

وصلنا الخرطوم وبعد شهر عزل عمى على شكاك ووصل الخرطوم بامرأته وبعد أيام سافر جيش ولد النجومى لبربر فى طريقه لدنقلا فلحقناه بالمراكب بكل عائلتنا ولم يزل والدى بكركوج فوصلنا بربر ومكثنا بها شهرى شعبان ورمضان وكان الحر أشد ما رأيت حتى كنا نضطر فى رمضان أن نمكث فى الماء فى النيل الساعة والساعتين حتى الاصفرار ترى الناس عائدين لمنازلهم وكأنهم جاءوا من عمل أو سوق ثم تحولنا لأبى حراز بالغرب وهناك حضر لنا مساعد قيدوم أميرا لأنصار الغرب مستقلا تقريبا من ولد النجومى وذلك فى أواخر سنة ١٣٠٣ وهذا من أوائل تغيير السياسة فى المهدية بعد وفاة المهدى عم من الحوادث التى حصلت فى أبى حراز — قتل محمد الفحل كبير الفحلاب وذلك أن رجلا يدعى محمد عبد الماجد من أقاربه ومن معتقدى المهدية المتطرفين زار محمد الفحل فى بيته فأخذ الحديث يدور بخصوص المهدى وكان محمد الفحل مطمئنا لضيفه وقريبه فقال لمحمد عبد الماجد من باب الجدل أسكت المهدى غشانا والخليفة للان يكذب علينا فما كان من محمد الا أن قام من حينه وذهب الى ولد النجومى وأخبره الخبر كما حصل فأحضروا ولد الفحل من بيته فاعترف فكتب ولد النجومى بدوره الى خليفة المهدى فأمر بضرب عنقه ونفذ قتله فى محفل حافل .

طلبنى ولد النجومى لأصحب أحد عماله لتحصيل الضرائب من قبيلة المناصير فبكيت وقلت له يا سيدى ما رأيت غيرى تقطعه من الله أرجوك وأرجوك بالله ورسوله والمهدى أن تعفنى فبكيت . ثم قال ولد النجومى هكذا يكون أصحاب المهدى وأرسل غيرى ثم أرسل ولد النجومى من أحضر الجمال من العربان الحسانية والقريات والهواوير بالغرب والجميعاب والعبابده والبشاريين بالشرق فأحضرت وكان الكثير منها صعبا لم تروض بعد فروضت تحت الحمل سافرنا طوائف للشايقية التى وصلناها فى أكثر من عشرة أيام وكان الأمير

محمد الخير راجعا من كرمه كأمر خليفة المهدى فقابلناه بصنم (مروى الآن) ورأيته على حصانه فى استعراض عمله لمقابلتنا وأشبه الناس بابنه التجانى ثم واصلنا سفرنا بالبر والبحر حتى وصلنا (الاردى) دنقلا المركز فوجدنا الأمير مصطفى ولد جباره وضع الديم على شاطىء النيل بقرب المديرية القديمة فلما وصل ولد النجومى رفعه من محله الموجوده خرائبه الى اليوم والتى سكن بها بعض من العرب وبها قبر الأمير محمد الخير الذى أمره خليفة المهدى بالرجوع فتوفى بها .

كالعادة سكن ولد النجومى شمال الجامع بجماعته وسكن مساعد قيدوم جنوب الجامع بجماعته ثم أخذت سلطة مساعد تعلو وسلطة ولد النجومى تنخفض تدريجيا . حينما وصل النجومى أرسل النور الكنزى ومعه نحو ثلثمائة من الأنصار لصرص فجعلوا بها ديما وأرسل محمد أحمد هاشم الى صوارده وكنت من جماعته فأقمنا بها نحو أربعة أشهر غالب أكلنا التمر والذرة لا تصرف الا للمرضى فمن الحوادث المضحكة أن أمرنا ابن عم لى يدعى البحارى ليدعى المرض لنتمكن من صرف ملوة من الذرة باسمه لتخلط بها مديد التمر التى سئمناها ولما صرف لنا الذرة باسمه جئناه وأخبرناه ليقوم فادعى علينا نحن أنفسنا المرض لئلا يخدم ما يلزمه من الخدمة فعدنا نحركه فلا يتحرك ولا يضحك كأنه ميت فلما طبخنا العصيدة وأحضرناها نهض قائما . فى صوارده هذه اتفقنا نحن تسعة وتحالفنا على أن نذهب لحلفا نفتحها أو ننال الشهادة وكلهم رجال الا أنا لى حصان تركته فى مراحه خوفا من أن يفقدوا حصانى فيكشفوا خبرنا ويلحقونا ولكن فاتنا اننى كنت الذى أقرأ الراتب صباحا بعد الصلاة فلما غبت ظنونى مريضا فلما لم يجدونى انتبهوا لكشف خبرى فورد عليهم رجل من قرية تسمى مرشد شمال صرص فأخبرهم بأنه رأى تسعة من الأنصار كلهم راجلون جادون فى السير فاركبوا وراءنا خيلا فيها صديقى الشيخ عبد الجليل الصادق وأرجعونا حزينين .

بين صرص وصواردة :

ثم تعين عبد الحليم مساعد قائدا عاما لجيش صوارده وصرص فنقل ديم صوارده لفركه ليكون وسط بين العرضى وصرص فأقمنا بفركه قليلا ـ فبلغ عبد الحليم أن عرب القراريش بأم بكول ينقلون أخبار الديم للترك بحلفا فعين

سرية لترحيلهم برئاسة ابن عمه عبد الله محمد شنكوله . كنت فى تلك السرية وسرنا بالشرق حتى قابلناها اختفينا وراء الجبال حتى الثلث الأخير من الليل اقتحمنا البحر الذى لم نعلم أنه واسع ولولا هضبة فى وسط النيل ارتحنا عليها لكنا من المغرقين ولا أنكر انى بعد ما كنت ماسكا لجام حصانى أقوده صرت وراءه ممسكا بمؤخر السرج أحيانا وارتكز على كفله أحيانا وصباح الخير عبدى الشديد المانع يعوم أمامه حتى خرجنا بالجزيرة متفرقين فلو كان أهلها مستعدين لقتالنا لأكرهونا على اقتحام البحر راجعين أو لاستأصلونا قتلافرادى ومثنى ولكن الله سلم صبحانهم وأكثرهم نيام ما نبههم الا صياحنا المزعج فاستسلموا لنا فجمعنا الرجال فى مكان خارج الحلة وامر العامل الجهدية بجمع البهائم بكل أنواعها وأختار ممن يأمنهم منا ليصحب كل اثنين منا رجلا الى منزله ليخرج اهله وأولاده مجردين مما يحمل من الامتعة ويصل بهمالمكان الذى جاء منه ففى ظرف اربع ساعات جمعنا كل ما بحلتهم من الامتعة والغلال والبهائم وسلمت النساء ما عندها من الحلى وكنت كاتب السرية فكتبت لكل منهم ما سلمه من النقود أو الحلى تماما بعد ذلك رحلناهم معنا حيث دلونا على ان بغرب الجزيرة خور صغير خضناه حتى الماعز خاضته فاسفنا لتعبنا سحرا اوصلناهم فركة بالغرب فوجدنا الشيخ عبد الحليم قد احضر المراكب لنقلهم ونقلنا عبر النيل فطلب الكشف وسلم كل أحد ماقيد لأسمه وعين لهم مكانا شمال ديمنا بالغرب فى جبل جحا وفرض على رجالهم ملازمة الصلاة كل الاوقات بالجامع ومن تغيب اعتبر جاسوسا يقتل ثم رأى عبد الحليم أن يختبر حالة ما وراء عقبة البنات أى أكمة وجزيرة كلب لأنا لم يسبق أن وصلناها لحيلولة عقبة البنات بالبر وشلال دال بالبحر فعين الشيخ حاج على ليحصل العشور من النخيل وزرع السواقى وعيننى معه كاتبا ايضا فخضعوا لنا بواسطة عمدتهم آدم سليمان فحصرنا النخل شرقا وغربا حتى وصلنا جزيرة كلب وجدنا بها الشيخ محمد صالح هلال الازهرى العالم الجليل فجعلت اكثر مجلسى معه ووجدت عنده ضمن كتبه كتاب الخريفشى فى التصوف فاهداه لى (ولهذا الكتاب قصة ستأتى) ففى بعض الايام طلب العامل الشيخ حاج على محمد صالح هلال بمنزل العمدة الذى بجوار قبة عكاشه وضربه بجريد النخل بعد ما ارقده على الارض مع انه كان يجله فلما سمعت صراخ الشيخ محمد صالح

أسرعت اليه ووقفت عليه وهو راقد وجعلته بين رجلى فجاء العــامل الشيخ وكلمنى بغلظة وحده وشممت منه رائحة (الدكاى) مشروب ربما أسكر فأخذته جانبا واسررت فى أذنه انك شارب دكايا فانتبه ودخل البيت باديا عليــه الخجل ولكن الاهالى لم يتركوا جلد الشيخ يضيع سدى بل تحركوا حــركة تخشى عاقبتها فكتبت للشيخ عبد الحليم بالخبر وارسلت الكتاب مع عبدى صبــاح الخير فأرسل عبد الحليم طلبــا للشيخ بالرجوع وما معه وليبقنى بأكمه وأمر صباح الخير يقيم بفركة لحينما يعطيه الرد لى ونسى ذلك لكثرة أعماله المتعددة المتنوعة فلما رأيتنى وحدى وحالة الاهالى مضطربة رحلت فى سور من الحجر على ربوة شرق قبة عكاشة وليس معى أحد غير حصانى وانما يأتينى العمــدة بما أحتاجه لى ولحصانى مدة واحد وعشرون يومــا حتى وصلنى عبد الله شانكوله بدل الشيخ حاج على فاطمأن البلد وشرع يحبنا ويحسن ظنه حتى صرنا كأننا منهم .

الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم :

بعد رجوعنا لفركة ذهبت للعرضى ولا أذكر السبب فى ذهابى له ولكننى أذكر فى بعض الليالى ضرب النحاس ليــلا فاجتمع الناس فرســانا ورجالا فى ميدان الجامع ينتظرون خروج ولد النجومى من بيتــه فاذا هو الذى ضرب النحاس واذا هو قائم على ظهر غرفة النحاس قائلا بأعلى صوته . قال الله تعالى « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ٭ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم ســـوء وابتغوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ـ انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافونى أن كنتم مؤمنين » (ألقاها بصوت ليت القــارىء كان معنا فسمع صوته ليعلم كيف يكون الالقاء المقرون بالشجاعة فى وقت الخوف والطمأنينة فى وقت المحنة) ثم قال جاءت البوستة الآن من عبد الحليم مساعد يخبر باستشهاد النور الكترى ومن معه بصرص جميعهم لم ينج منهم الا حسن ود القوز مجرحا مقطوعة أصابع يده اليسرى ومجروحا فى وجهــه فالآن أريد تعيين جيش ممــن يتبرعون بأرواحهم ويكون أميرهم منهم ليذهبــوا لصرص يدفنون الشهداء ويوغلون بعد صرص لمسافة بعيدة يضعون فيهــا علامة تدل العدو على وصولهم هذا المكان ويرجعــون لفركه حتى يأتيهم أمرنا فكنت من

هؤلاء وأمر علينا ولد النجومى محمد عبد الماجد صاحب قتل ابن عمه محمد الفحل ولكنا لما وصلنا فركه عين عبد الحليم ابن عمه محمد أحمد هاشم أميرا مقيما بصرص وزيد جيش فركه من العرضى وصلنا سمنه ونحن بالشرق رأينا جمالا ترعى غرب النيل وحمولا ملقاه فعين محمد أحمد هاشم عمى محمد أحمد شكاك وأرسلنى معه ككاتب له • فلما وصلنا الا حمال وجدناها بضائع سكرا وأقمشة ودقيقا فأخذنا عشرها وأخذنا أصحابها للشرق فأعطاهم محمد أحمد هاشم وصولات لئلا يأخذوا منهم عشر فى كل مكان آخر فكان هذا نواة بيت مال صرص الذى عينت أمينا له فلما وصلنا صرص دفنا الشهداء فوضعنا العلامات بين جمى وعمكة وهى أعلام صغيرة مكتوب عليها لا اله الا الله محمد رسول الله محمد المهدى خليفة رسول الله وتوجهت مع من توجهوا لوضع العلامات كأمر الأمير وكان محمد أحمد هاشم دقيق المعاملة لا يؤثر أحدا على أحد حتى نفسه وبما أنا لم نكن معنا عائلات كنا نأكل بليلة الذرة مخلوطة بالتمر وبعد مدة جاءنا قليل من الذرة جعله الأمير فى غرفة أمسك مفتاحها بنفسه وصار يصرف لكل شخص قدحان فى الأسبوع فطلب منه الأمراء الذين معه أن يخصهم بشىء فرفضه بتاتا فقلت المثل الذى شاع (صرص جوعها قرص وأميرها حرص لا يؤثر فارسا ولا فرس .) وحينما طال علينا أكل البليلة بحثنا فى الجبل فوجدنا حجرا باصلاح قليل يصير مرحاكه أصلحناه وصرنا نطهى بالنوبتجية الطحن على أحدنا والخبز على غيره والطبخ على ثالث والملح من تراب مالح . كان على الطبخ يوما فطبخت ملاح لوبيا وضعت الملح فيه دون أن أحله فى الماء وأصفيه فصار طينا فضحكوا على وبما انى ماهر فى الطحن والخبز اقتصرت عليهما . عزمت على الزواج بفركه فاستأذنت الأمير الذى سمح لى بعد عناء وسلم بيت المال لمحمد حمودى الحضرى الذى كان تاجرا • وصلت فركه وبنيت بيت العرس الذى كان مكعبا طوله وعرضه وارتفاعه لا يزيد عن مترين ونصف الا قليلا أعنى كل منهما أربعة أذرع ومكثت نحو شهرين فعلمت أن أخى سعيد حضر بالعرضى ومعه والدى وزوجته وأولاده وسعيد راجع لكركوج بمأمورية فتوجهت للاردى لأوصل والدى لفركه وبوصولى الاردى طلبت من الياس أحمد الزين أمين بيت ولد النجومى أمرا لكل العمال بالطريق يساعدونا بالزوامل والزاد فاستلمته وقمنا فلما وصلنا بلدة بالمحس غرب دلقو

نزلنا بالنخل بقرب منزل رجل تاجر يسمى فضل شنبو فدخل عليه عبدنا صباح الخير فى منزله ليأخذ منه ما يسكت به الطفلين من التمر فغضب فضل وصار يسب ودخل عليه والدى بعد ما رأى سور منزله الواسع كله محاط بالسويباب الملأى بالذرة والقمح وأنواع التمر والقطانى . انت يافضل غضبت من دخول العبد وأخذه ثمرات لاسكات طفلين فحينما يصلكم ولد النجومي بجيشه ينهبون كل ما تملكه فقال فضل والله ما يقدروا يعملوا لى شيئا مما تقول لأنى أقفل بابى وأمسك بندقيتى فقال له والدى هم لا يأتونك من الباب وانما يكسرون السور عدة كسور يدخلون بها حينما يرونك يكتفونك (يربطون) يديك ويدخلون ركبتيك بينها ويضعون عصا فى داخل ركبتك ويلزونك ماتشاء ثم يأتون دفعا حتى آخر دفعه حيث يأخذون التراب الذى يكون مخلوطا بشىء مما بقى من الغلال وأنت ملقى حتى يحلك أهلك بعد ذهاب كل الجيش فانكر ذلك جدا فلما وصل جيش ولد النجومى حصل عليه كما صور تماما ولما جاء أهله وحلو وثاقه قال لهم أنا كان جاءنى نبى الله الخضر وأخبرنى بكل ماحصل ولكنى ما سمعت نصحه فدفنت محصولاتى فى التراب بعيدا عن بيتى سرنا من عنده وكلما جئنا فى بلدة عمدة طالبناه بتنفيذ أمر بيت المال فكان الكثير منهم يعصون لولا قوة صباح الخير لتعبنا مع أغلبهم (أكثرهم) ولما وصلنا بلدة قرقور وجدت حمارة فى مربط (نقر) ساقيه ترعى وكان والدى ومن معه تقدمونى حتى وصلوا الحلة ونزلوا فى بيت الشيخ • وجدت الحماره فركبتها لألحقهم • جاءنى رجل طويل متين أنزلنى منها فلما عارضته فيها صفعنى فوقعت على الأرض مغشيا على فلما تأخرت كثيرا رجع صباح الخير يتعرف خبرى فوجدنى ملقى على الأرض فلما فقت سألنى فأخبرته بما صنع الرجل لى فقلت هنا دربه (أثره) فتبعته فوجده بساقيته والحماره ترعى بجانبه فأخذ الحمارة فلما انتبه الرجل لحقه عند مكانه الذى ضربنى فيه فمسك الرجل الحماره فصفعه صباح الخير صفعة ألقاه بها على الأرض وكتف يديه بظهره وساقه معنا وأركبنى الحمارة حتى وصلنا المنزل فكتفه وأدخل له العصا وألقاه فى الشمس .

سألنا عن أحمد عبد الوهاب الرباطابى وهو عامل الجهة فقيل لنا أنه بالشرق لتشهيل سرية من أهل الغرب وهذا الذى أنتم نازلون فيه منزل زوجته

وبعد قليل حضر أحمد عبد الوهاب الذى رأى والد زوجته مكتوفا وعلم منه أن من كتفوه داخل بيته فدخل علينا وبعد أن رحب بنا أخبرنا أن الرجل المكتوف هو نسيبه والد زوجته فحللناه واعتذر كل منا لصاحبه بعدم المعرفة. بتنا الليلة عندهم وفى الصباح بارحناهم على رواحلهم ثم وصلنا فركه ورحلنا منها بعوائلنا الى صرص التى استقمنا بها حتى جاءنا ولد النجومى .

أوغلنا فى أرض الحجر والتحمنا مع الترك :

وفى صرص رأى عمى على شكاك أن ننفصل من راية مكين النور ومن راية على حمد السيد الرباطابى ونتبع راية عبد الحليم مساعدوفعلا تبعناهوذلك لأسباب اقتصادية وقد صار عمى على شكاك وكيلا للراية وصرت أنا كاتبا نائبا للشونة وأمين الشونة يدعى فرح الصاحب محمد والباشكاتب بابكر كرم الله عبده وبالنسبة لكثرة عائلتى وقلة الغلال صرت أختلس الغلال كل يوم صرفية مع من آمنهم حتى جمعت أكثر من أردب جعلته فى عدلين تمارتين ووضعتهما بغرفتى الخاصة بى وزوجتى البقيع بنت عثمان فاشتبه فى أمين الشونة وأخبر عبد الحليم الأمير الذى قرر رفتى فاتهمت عمى على شكاك وأخبرت والدى الذى حكم قياسا بخلقه ونهانى أن أعتقد ذلك فبعد قليل أراد عبد الحليم مساعد ارسال مراكب للسكوت والمحس لتأتى بالغلال والتمر وعلف الخيل فكتبت اسمى ضمن مندوبى هذه المأمورية وعرض الكشف على عبد الحليم الذى أقره مبدئيا وبعد ما قابله عمى على شكاك بعد يوم شطب اسمى واسم قريبنا عطا المنان القويضى وهو عديل عمى على وبينهما خصام فعارض عطا المنان عبثا وقال للامير انت ظالم لأنك تسمح لابن أخيك هاشم سنويا يمر على القسمين فيرجع منها غنيا أما أنا لم أتكلم ولكن أقنعت والدى أن عمى على هو الذى سعى فى هذا التأخير وقبل قيام المراكب توجه عبد الحليم لغرفة الهجرة فدخلت معه فيها وصارحته بما يأتى يا عمى عبد الحليم نحن ما خرجنا من رأيه مكين ولد النور وفارقنا أهلنا الرباطاب الذين بقوا بها الآن الا لننال منك بعض الراحة فى عيشتنا لقدرتك لأنك تعلم أن الدين واحد فى كلا الرايتين فأنت يا عم عبد الحليم رفتنى من الشونة والآن شطبت اسمى بعد ماصدقت مبدئيا فهذا العمل يشين سمعتى زيادة على تضييق عيشى مع علمك بكثرة

من أعولهم فاذا كنت مصمما على هذه المعاملة لى فانى أنصحك بأنى وكل من فى مقدومية على شكاك ينفصلون معى حتى شقيقه محمد أحمد شكاك فاسأله أن شئت فارسل له أمامى وسأله عن صحة قولى فقال له عمى على شكاك والده موجود معنا وهو كبيرنا فاذا أمرنى نفسى بأن انفصل منك لا يمكننى أن أخالفه وخرج عمى على شكاك فقال لى عبد الحليم أنت تسافر فى المراكب قلت والآن عائلتى عريانه فاكتب لى لبيت المال كسوة فقال لى اكتب ورقة من كل نوع قطعة واحدة فكتبت عشرةأنواع والعادة يكون الأمر بالصرف هكذا : « المحترم أمين بيت مال صرص ــ أصرف الأشياء الموضحة أعلاه لفلان ازالة ضرر . » فعرضت له الورقة فمضاها بخطه فأخذتها وحفظتها الى آخر يوم تسافر فيه المراكب ليلا لتصبح فى شلال سمنه صباحا فجعلت يمين كل عدد صفرا ومشيت عند الغروب ومعى صباح الخير لمحمد حمودى طلبت منه صرف الاذن فقال لى : أنا ماشى للجامع تعال غدا فقلت له لا يمكن أن تتحرك قبل أن تصرف لى فلما رأى صباح الخير معى وهو وحده رجع وصار يرمى لنا كل نوع حتى يكمل العدد يرمى لنا غيره حتى أتممنا الصرف فربطت من كل نوع تسعة وسفرت بها أخى موسى للعرضى فباعها واشترى لنا من ثمنها ناقة وحملها غلالا وجاء بباقى النقود وجعلها رأس مال دخل بها السوق جزارا مرة وتاجر فاتورة مرة أو غلال وهكذا ونحن سافرنا سحرا بالمراكب كان عامل دلقو محمد الحاج الخضر قيلى من جيران شيخنا الفقيه أحمد الكراس ومن سكان رفاعة فلما رآنى رحب بى ترحيبا حارا وعاملنى معاملة جعلتنى عنده واسطة خير لمن جاءوا معى فأعطانى أردبين غلال وثلاثة أرادب تمرا وأرسلنى فى المركب التى تصعد شلال كاجبار حيث المندوب بها الصافى ود حاج عبد الله الذى هو فى قيد الحياة بمشرع أبى روف فأعطانى بدوره أردب تمرا ومائة كليقة قصب لحصانى ورجعنا لدلقو فجعل الجماعة يكلفوننى أتوسط لهم عند محمد الخضر: صار يقول لى اعطه كم ريالا أقول له ريالين ثلاثة يعطيه فبعد مرتين قال لى (سجم أمك) فعلمت أنه يعطيهم مما قرره لى فأمسكت عن الوساطة وجدت ما بقى واحد وعشرين ريالا من ثلاثين ريالا التى كان قررها لى هدية فأخذت كل ما أعطيت ورجعنا بالمراكب فحاول عبد الحليم أن يجردنا مما معنا ولكنا وسطنا له الشيخ العاقب قاضى السرية الذى هددناه بأنا نشتكيه عندك فنصح

له بقوله أنه اذا اشتكوا له يحكم لنا ضده فتركنا وشكرنى أخوانى على رأيى.
هذا وبعد ما سافرنا بالمراكب شكانى محمد حمودى لعبد الحليم بأنى ضايقته وهددته بعبدي أخيرا وأخبره بالاعداد التى استلمتها منه فبعد رجوعى طلبنى عبد الحليم وقال لى أنت صلحت الورقة قلت له أنت حينماصدقتهاكنت محموما وهل مثل عائلتى يكفيها عشر قطع وكان القاضى حاضرا وهو رباطابى ويعرف أفراد عائلتنا بالأسماء والذوات . فقال لعبد الحليم لا يمكن أن تكسى عائلتهم بأقل مما استلم وانتهت المسألة بعد قليل اشتد الجوع وحصروا عدد العائلات بدقة فاحتجنا الى عدلى التمر اللتين اختلستهما حينما كنت بالشونة فوجدناهما فارغين فعلمت أنه أخذه من لا يرده ولا أستطيع أن أتهمه ثم أعتذر اليه لأنى لا يمكن أن أستغنى عنه فى اشتداد هذا الحال الذى بلغ فيه الربع المصرى من الغلال أربعة ريال مجيدى ـ رأيت بعينى الشريف سليمان العبيد يخرج كل جمعه جوالا من الغلال يقسمه على الناس خارج بيته فى الشـــارع عدة جمع متوالية ولم أر ازدحاما من الناس غير اعتيادى حتى يؤذى بعضهم بعضافجعلت أتعجب من كرمه وقناعتهم البادية فى نظامهم .

فكان موسى أخى وصباح الخير يأخذون الحمارة والنـــاقة يتوجهون ليجلبوا رطب التمر أو كلما سمعوا بأن الأهالى يريد قتـل السمك فى بعض الترع يحضرون بينهم فيأتون بسمك كثير نأكل من طريه ونقدد الباقى لحفظه .
خرجت سرية برئاسة عبد الحفيظ شمت فغزت طابية خور موسى باشـا وبعد ما دخلوا القيقر جاء المدد من عنكش وأخرجوا الأنصـار بعد ما قتل أكثرهم وقد رأيت عبد الحفيظ وبه أربعة عشر جرحا بالسنج تداوى كلها بالسمن المغلى وهو يستأنس مع عواده كأن المحمى عليه غيره .

واقعة الجميزة :

لم يسكت عبد الحليم على هذه الحادثة وندب سرية أخرى برئاسة حسين ولد جبارة ببعض الناس ليكونوا كقاعدة يرجع اليهم وانتدب عثمان أزرق غازيا فلما قربنا من خور موسى باشا قال قائل منا الأحسن نقلب قضيب الســكة الحديد لنحتاط اذا فشلنا لئلا يقطع العدو علينا خط الرجعة فأخذنا نمسـك الفلنك فلا نستطيع تحريكه لاتصاله ببعضه وربطه بالقضيب فلما تعبنا قال لنا

عبد الرحيم أحمد الرباطابى أنا كنت دفنت مفتاحا يفتح القضيب عن بعضه فليمش معى خمسة من الفرسان يقفون خلفى لعلى أجده فمشيت ضمن هذا الحرس وبعد دقائق رجع لنا عبد الرحيم وبيده المفتاح ففصلنا به قضيبين عن بعضهما وصرنا نقلب القضيب بسهولة حتى قلبنا نحو ميلين أو أكثر ثم نزلنا خور موسى باشا حيث صلينا الصبح أول الفجر وقرأنا الراتب الصغير ومشينا حتى طلعت علينا الشمس وكلما مرت قنبلة على رؤوسنا نجرى وراءها وتقول لها سلمى سلمى فبعد وقوعها على الأرض يغوص بعضها فنأخذها من الأرض وننك مساميرها بواسطة من يتقنون فكها منا ثم نفرغ بارودها ونحفظه ولكن لا ينفع وبعد ساعة على وقوفنا صفوفا والخيل ترقص لمسافة وترجع للصف كأننا فى عرضة الجمعة اذ رأينا حركة غير اعتيادية نحو عنكش فتأكدنا أنه استعداد جيش للخروج علينا فكررنا راجعين ولكنا راجعين بغير طريق البحر فندب منا خيل كنت من ضمنها لتسير على طريق البحر الذى جئنا به لربما نجد مريضا أو فترانا أو خائنا يريد الدخول للقيقر وصحب جيشنا ليتوصل به لغرضه وفعلا وجدنا ما ظننا فدرجنا العاطل وبعد ما تعدينا ما قلبناه فى سكة الحديد جنوبا اطمأنينا فوجدنا نخلة بها رطبا ومشرعا سهلا لسقى الخيل فنزلناه وطلع صباح الخير النخلة يرمى لنا الرطب ونحن نأكل مطمئنين اذ رأيت ذيل حصان أبيض فى ثنية جبل فقلت لصباح الخير انظر شرقا ماذا ترى فصاح : « أخوانكم معكم » وهى جملة مصطلح عليها تنبىء بوصول العدو فألجمنا خيلنا وركبنا فلما تقدمنا قليلا رأينا السوارى والهجانة قريبا منا فالتفتنا لهم وكررنا عليهم ونحن قليلون فهربوا منا وطلعوا الجبال فطلعنا وراءهم فأصيب حصان أحدنا المدعو أبا يزيد ادريس من أخواننا الدناقلة فكسرت رجل الحصان الذى رفعها وجرى نحو خيل العدو فأخذ أبو زيد خمسة من جمال العدو وكانت باركة فى سفح الجبل وأصحابها بعيدون عنها يحاربوننا ولما طلعنا فى سهل بين الجبال ضربت أحدا بحربتى الكبيرة فانثنى سنانها فرميت بها كما أن ثوب غطائى وقع فى الأرض أثناء المقاتلة مع العدو فرأيت مكانه بقرب الحربة واشتغلت عنها بما هو أهم منها وكنت طعنت عسكريا مصريا ونحن بالأرض فوقع على جسر السكة حديد قبل طلوعنا فلما طلعنا الجبل معهم صار العدو وهو أضعافنا اذا هجمنا عليه يتقهقر واذا تركناه يقدم علينا وما زال كذلك

حتى سمع جيشنا الذى سار بغير الشاطىء صوت السلاح فقدم الينا وفى هذا الكر والفر قتل بكباشا انجليزى وأخذنا جمالا منهم وما زالوا يدرجوننا حتى أوصلونا البيادة عند رأس السكة حديد المقطوع فوجدناهم مصطفين فلما رآنا ورأيناهم قال أحمد أبو سن أمير اللحويين لعثمان أزرق الأمير العام الأحسن أن نقف وراء هذا الجبل ونترك العدو يقدم علينا فنهجم عليه فى هذا السهل ولا نمكنه يؤذى الخيل والناس فرد عليهم عبد الحفيظ شمت « الخيل خيل المهدى تموت فى سنة المهدى » فسكت أحمد أبو سن ووضع رجله على قربوس حصانه فلما استعد العدو رمانا بطلق متحد فهرب عثمان وعبد الحفيظ وغيرهم وأنا هربت معهم ولكن بعد ما تقدمت مسافة قليلة التفت فرأيت أحمد أبو سن ومعه ابن عمى المدنى مصطفى والطاهر اسحاق الزغاوى واقفين مكانهم فرجعت لهم وقلت لأحمد أبى سن لماذا أنت واقف ؟ فقال : خيل المهدى تموت فى المهدى ـ فأخذت لجام حصانه وقدته ورجعنا ولكنا نزلنا بطريق البحر فوجدنا عمى محمد أحمد شكاك ومعه كثير من الرجالة فلما وصلنا مكان العسكرى المقتول على جسر السكة حديد قطع عمى محمد أحمد رأسه وقد أدخله فى مخلاه فلما قابلت الطريق الذى صعدنا به فى الجبل صعدت به رغم معارضة عمى محمد أحمد لأخذ ثوبى وحربتى وصعدت فعلا فوجدتها ووجدت بجانبها برنيطة بهلالها ولما وصلنا صرص راجعين أرسل الجمال ورأس العسكرى وبرنيطة البكباشى لود النجومى الذى أرسلها بدوره لخليفة المهدى . هذه الواقعة تسمى واقعة الجميزة .

بعد قليل عينوا عثمان أزرق أميرا علينا ونحن سوارى وبيادة مجموعنا أربعمائة رجل غزونا فى بلد يدعى ـ سيرى ـ شمال حلفا بالغرب . دخلنا البلد عند شروق الشمس ونهبنا بهائمها ومحصولاتها وكان البصل كثير فتعرض لنا رجل يدعى خليل ابراهيم وأظنه مستخدم حكومة برمى رصاص بندقيته علينا فدخلنا عليه فى مكتبه وقبل أن نصله رماه أحد المجاهدين برصاصته فقتله وبعد قليل حضر الوابور يحمل بلكا من الجيش فواقعناه على بعد السلاح ولم نختلط بهم ولما اشتد الحر كررنا راجعين قبل أن نتزود من الماء الكافى فعند الغروب قسموا لنا بصلا خفف علينا وطأة العطش ومضينا سائرين أكثر الليل حتى وصلنا شونة الحديد جنوب حلفا بالغرب حيث يرابط بعضنا

هناك فشربنا وارتحنا ثم استأنفنا السير لصرص حيث قسم عبد الحليم ماوصلنا به من متاع على الرايات بالتساوى الشىء الذى لم يرض به الأمير حموده ادريس الهبانى نائب مساعد قيدوم بصرص ولكن عبد الحليم لم يبال فكتب حموده لمساعد بالأردى الذى أرسل كتابه لخليفة المهدى .

بين خليفة المهدى وولد النجومى :

طلب الخليفة عبد الله من عبد الحليم أن يحضر الى أم درمان ومعه ولد النجومى فى دوره الأخير فلما وصلوا أم درمان عتب خليفة المهدى عليهما ولما رجع عبد الحليم لصرص قال له عمى على شكاك ليتك أخذتنى معك لأرى خليفة المهدى فقال له عبد الحليم والله لو مشيت معنا ترجع منكرا فيه مما تسمعه وما تراه من غيره . قيل ان خليفة المهدى وبخ ولد النجومى بقوله « انت ياولد النجومى هوين أخوانك الذين معك كلهم استشهدوا فأنت الى متى تحيا خائفا من الموت . وبرجوع ولد النجومى صار الخليفة يرسل له ما يسميهم بالأمناء لينظروا فى الخلاف الذى بينه وبين مساعد قيدوم حتى آل الأمر الى ارسال يونس الدكيم رئيسا عليهما معا فلما وصل يونس الأردى وقرأ أمر تعيينه بالجامع فى حفل حافل بعد صلاة الظهر بأن يكون كلا من ولد النجومى ومساعد ليونس كالميت بين يدى المغسل فما كان من ولد النجومى تلو انتهاء القارىء الا أن تقدم ليونس الذى كان جالسا بالمحراب فسلمه سيفه وحرابه وقالوا أنه سحب سكينه من ذراعه الشمال ووضعها مع ماقدمه من سلاحه فشكره يونس الدكيم بقوله : « بارك الله فيك أنت يا ولد النجومى من أبكار المهدى عم ـ ومن أعظم قوادنا المنصورين ثم تلاه مساعد قيدوم فعمل مثل عمله فانقاد ولد النجومى انقيادا تاما وترك السياسة تركا باتا حتى وانى رأيته يخرج من بيته للصلاة ويرجع منفردا مما أدى الى احترام يونس له اما مساعد قيدوم فانى رأيت يوما يونس فى العرضه يوم الجمعة يناديه قائلا له مساعد كى : انزل خدلك طلقه المعنى ، انزل من حصانك وخذ حربتك وأجر برجليك مسافة ثم ارجع جاريا دون أن تقف وهكذا يفعل صعاليك القوم فعندما ينزل مساعد قيدوم ويبعد قليلا يلتفت يونس الى من معه قائلا : « الله عليك ما خليت لاك عبيد » سخرية به فيرجع ويركب حصانه فبعد قليل يكرر له هذه العبارة مرتين أو مرات كان سلاح النار أيام ولد النجومى برئاسة

حسن بن عمه فلما جاءه يونس عزله عنه وولى عليه أحد عبيـده ثم أطلق يده فعزل كل عمال ولد النجومى من تحصيل الضرائب وأبدلهم بعبيده فى الأماكن الطيبة والأماكن الأخرى كالمحس والسكوت يعين فيها من يقدم الهدية الكبيرة أو الخدمة الجليلة واذا نافس بعض عمال ولد النجومى بعد عزلهم سجن وضرب وبعضهم جمع له العقابين ومن ضمنهم من يدعى محمد نور الكتيـابى عامل الخندق فقد أمر بضربه خمسمائة سوط فضرب على صلبه حتى تقرع وورم ثم ضرب على بطنه حتى أصبح يؤتى به منبطحا على حمار فنظروا الى مكان يضرب عليه فلما لم يهتدوا له قال لهم انتم نسيتم لسـانى وأخرجه لهم فتمم الضرب على رأسه وضرب الشيخ عوض الكريم بن على الذى كان يدرس العلم الى عهد قريب بالمعهد العلمى بأم درمان ويؤم بعض المصلين فى صلاة المغـرب فى شارع الأربعين الى اليوم ضرب خمسمائة سوط لأنه كتب نصيحة وألقـاها ليونس دون امضاء فاتهم بها العمال الكبار المعزولين لأن عوض الكريم اذ ذاك كان عمره فوق العشرين سنة قليلا أو فيها ـ فلمـا رأى أن غيره سيعاقب بجريمته وخصوصا القاضى عثمان عبد المطلب الذى وجهت له التهمة أكثر من غيره كما اعتبرها يونس جريمة قدم نفسه له وأخذ جزاءه فهذه شهامة ونبـالة عظيمتان .

يونس ود الدكيم أميرا عاما :

فى أيام يونس اشتدت علينا وطأة المجـاعة بصرص حتى صار بعض الأنصار يرحلون من صرص فاجتمع أمراء الدناقلة عند عبد الحليم فتحـدثوا فيما يرفع الجوع ويهجموا حلفا يموت من يموت ويرتاح الحى من هذه الحالة فقد رأيت شيخ ادريس أحمد هاشم وهو على حصانه الكبير الجسم الجميـل الصورة وقال يا أصحاب المهـدى أن جيم الجوع مقرونة بجيم الجنـة فى كل أنحاء السودان خصـوصا فى ثقور الرباطات فمن أراد أن يستريح من الجوع فليقلع الجبة ويدخل حلفا أو ماوراءها فيرتاح من الجوع فكانت هذه الجملة نهاية المجلس الذى كان معقودا على ظهور الخيل فى مكان العرضه وفى رمضان سنة ١٣٠٥ هـ أرسل ولد النجومى جانبا كبيرا من الأبل التى غنمت من قبيـلة رفاعه أبى روف لنا فى صرص فقسمت على الرايات وذبحت فتعشى النـاس من

لحمها ولما جاء وقت السحور أنا فى ذلك اليوم ما صحوت للسحور ولكن زوجتى وأخوانى وكل جيراننا قالوا انهم رأوا كهربة تنبعث من اللحم حتى انك لترى فى فم الماضغ المضغة يمضغها كأن الوقت نهار فما العلة يا ترى فى هذه الظاهرة وكيف يعللها العلم أما تعليلنا لها فى وقت حدوثها فانا نعتبرها كرامة لنا كما اعتبرنا الضوء الذى يلمع من رؤوس الحراب ليلا والنار التى تأكل أجسام من نقتلهم .

من ضمن عمال يونس ولد الدكيم بالمحس سعيد أخى الأكبر الذى كان يندبه الأمراء بدنقلة ليحضر لهم الرماح للحراب من كركوج فلما تحقق قرب قيام ولد النجومى من العرضى لغزوة القطر المصرى جمعنا والدى وقال الأحسن أن تعطونى العائلات أسكن بها مع سعيد بالمحس وأنتم سافروا مع ولد النجومى . اذا قتلتم الترك فاحضروا لنا الوابورات البحرية لنصلكم بها وأن هزمتم تكونوا خفافا ترجعوا لنا فنجتمع وكانت والدتى الصماء العقيدة فى المجلس فهجمت على والدى وقبضت على خده وقالت له « هوى يادا الراجل الكافر صد براك من الله نحن ما صادين شى » فضحك والدى ورجع فعلا لسعيد وبقى معه حتى هزمنا ورجعت له زوجته الثانية فأخذها وتوجه لكركوج. كان والدى يقول ذلك وهو على يقين أن جيشنا سيهزم ومن أقواله ان ولد النجومى بليد يسافر بلا مؤونة قالت له والدتى لا تتكلم فى ولد النجومى رابع الخلفاء وما زالت مؤمنة الى أن توفيت بأم درمان وهى تقول « أحى يا رقيده فى ضل القبه » المعنى واشوقى الحار التمنى رقده فى ظل قبة المهدى « عم »

كنت فى ليلة أقرأ فى كتاب الحريفشى على ضوء عود من خشب الفلنك المدهن وكان رأسه المضىء لأعلى وزوجتى بجانبى فلما أطلت القراءة أخذت العود وطمسته فى التراب وقالت : «كفاك قراية» فوضعت الكتاب على الأثافى وقمنا لننام ففى سحر تلك الليلة ضرب النحاس فركبت حصانى كالعادة وسافرنا لجهة حلفا ، لما بلغنا أن الترك يتحركون لصرص فأقمنا فى هذه السفرة ثلاثة عشر يوما ما فككنا الكرابات ولا قلعنا الجبب وفى كل ليلة لنا خفراء وربطنا وصل الى ما بعد حلة جمى ولما لم يأتنا أحد رجعنا فوجدنا أن الديم بصرص تحول غربا استعدادا للسفر مع ولد النجومى عندما يصل صرص ووجدت فى محل منزلى عليه ردم السقف فما استطعت الحصول على كتاب الحريفشى

لضيق الوقت فانتظرنا ولد النجومى بالغرب وسافرنا معه يوم ٢٨ رمضـــان سنة ١٣٠٦

واقعة أرقين :

حينما رحل الديم للغرب سافر يوسف أخى وهو وقتئـذ تحت البلوغ ومعه صباح الخير الى العرضى ليأتوننا بمؤونة فلما رجعا وجدانا سافرنا فعلا. قبل أسبوع أخبرنى يوسف وهو صادق كما يعلم عارفوه أنه قال « لم أقتنع بسفركم حتى عملنا طوفا من الفلنك وعبرنا النهر للغرب فدخلت الديم فوجدت صاحبى المدعو . . . . ماسكا رجلا من شخص ميت معـه فى البيت ويمضغ فيها فلما قربت منه لم يعرفنى وناديته باسمه فالتفت على ولم يعرفنى فعلمت أنه فى غيبوبة فتركته ورجعنا للشرق حيث توجهنـا لوالدى بالمحس فأم درمان » أما نحن فسافرنا مع ولد النجومى وأميرنا عبد الحليم فلما وصلنا شونة الحديد قضينا فيها الليلة وعند السحر ضرب النحاس وفى أثناءالاستعداد للسفر طلع الوقت فصلينا الصبح ولم نقرأ الراتب فواصلنا سيرنا . فما طلعت الشمس الا ونحن قبالة أرقين حيث نرى النخل على مسافة ثلاثة أميال تقريبا. نزلنا الى البحر فوجدنا النخل حمله كله نيا فقطعناه لأنا جائعون وأخذنا المـاء للعائلات بالديم ورجعنا لمقابلة العدو الذى ما كان يعلم أين نزلنا ورتب الجيش كالآتى : ـــ

ولد النجومى ووزيره عبد الحليم بقيا فى الديم ـــ حسن جباره بسلاح النار قبلى أرقين بالغرب من قبالة التوفيقية ـــ الأمير ولد أبيض بحرى البـلد مع الطبجية والمدافع استعدادا للوابورات التى تجىء من الشمال والفرسـان والقرابة فى الوسط . بعد قليل نحو الساعة ٢ر٣٠ ظهرا قد ظهرت الوابورات والبيادة فهجم علينا البيادة فلما هجمنا عليهم تقهقروا حتى قابلنـا الوابورات وصرنا نحن والعساكر الذين رميناهم فى شاطىء البحر تتحارب والماء الى وسط أجسام بعضنا أو أعناق البعض ومكاننا به زرع ذرة فكان يعيقنا ولما علم القائد الانجليزى بأن لنا مدافع صوب على غرفها مدافعهم فهدت قذائفهم المدافع ومن يستعملونها ولم ينج منهم أحد وكنا نظن أن حسن جباره ينجدنا بسلاح النار ولكن أرسلت اليه أرطة ضربته فانقسم جيشه أقسـام بعضهم ماتوا وبعضهم

هربوا لديمنا وأكثرهم سلم للارطة لأنهم سودانية وتلك الأرطة رجعت الينا فى جنوب الوابورات والأرطة التى كنا نحاربها من بحرى فلما كان نحو الساعة ٥ هجمت الفرسان منا على الأرطة الجنوبية ففى نحو عشر دقائق لم يبق رجل وحصانه سالمين الا قليل منهم ونحن القرابة (البيادة) اضطرتنا الوابورات والأورطة الشمالية للتقهقر .

الكوز مجيدى :

سبق فارس يدعى عبد القادر العجب بالخبر لولد النجومى الذى كان ومن معه واقفون خارج الديم فلما قال له عبد القادر ناسنا كلهم ماتوا رد عليه ود النجومى مغضبا « أنت مالك مامت » أى لأى سبب أنت لا تموت مثلهم . رجعنا للديم ليلا مهزومين . ثم بتنا ليلتنا وأصبحنا مامنا أحد له رغبة فى الجهاد ولكن بعض الناس لهم عائلات مثلنا باكروا النهر وأخذوا الماء قبل أن تحضر الوابورات التى وصلت نحو الساعة ٦ صباحا ومنعت الناس من أخذ الماء أو التمر النييء فلما صار النهار الساعة ١٢ صار كوز الماء بريال مجيدى قول شاعرهم من القراريش مظهرا شماتتهم علينا :

مهير ود هاوس اب حيلة شديدى   حجر المويه خل الكوز مجيدى

من قصيدة أثرت فينا أثرا سيئا لم أحفظ منها غير هذا البيت وقد رأيت بعينى أحمد عبد الحليم طلب من موسى أخى ماء يشربه فملأ موسى له الكوز ملئا . انظر لكرم موسى رحمه الله حتى فى أضيق الساعات . فى تلك الساعة كان الياس ولد أحمد الزين ــ أمين بيت مال ولد النجومى ــ فى النزع ووالده الشائب معه فدخلت عليهم فى خيمتهم ووجدت ولد النجومى معهم يقول لوالده: ياعمى أحمد الياس الحمد لله منح الشهادة . فانا استشهد من بنى عمى وأولادهم فلان وفلان وعدد نحو سبعة أشخاص فرد عليه أحمد ولد الزين : يا شيخ عبد الرحمن أنا لا أحتاج الى تسلية ــ اسكت بارك الله فيك أنا ماجئت من بلدى لاكسب مالا أو جاها وانما جئت بأولادى وخرجت عن عمارتى للموت وفى ساعتنا تلك توفى الياس فجهزناه ودفناه فى قبر وحده فذكرنى ابعاده البيت الذى يضرب به مثلا للتعقيد اللفظى فى علم البلاغة :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

فى تلك الليلة انعقد المجلس الأعلى للحرب بعضهم حسنوا الرجوع حيث أنهم هزموا فى أول موقعة وأعظم قوتهم ذهبت فتورطهم فى بلاد العدو يعتبر انتحارا وكان من أهل هذا الرأى بعض أقارب ولد النجومى وعبد السلام الحاج بله والبعض الآخر ومنهم ولد النجومى قرروا الاستمرار فى السفر • ففى تلك الليلة رجع بعض ممن حسنوا الرجوع فألحقهم ولد النجومى من ردهم • وفى صبيحة يوم ثالث الوقعة بارحنا أرقين بعد أن حرقوا المثقلات كالخيام وبعض سروج البهائم التى ماتت وعنقريبات • وحينما مررنا على جروف فيها بامية وملوخية فكنت من المتأخرين فكان من سبقونا يأكلون البامية وورقها وفروعها ولما أتينا بعدهم قلعنا العروق ومضغناها نستحلى طعمها ولم نأنف من لزوجتها التى لولا شدة الجوع لما ساغها فم ولما قبلتها معدة فوصلنا فرص وما تكامل الجيش بفرس حتى الساعة ٣ بعد الظهر مع أن المسافةلا تزيد على سبعة أميال تقريبا فوضع الديم كالعادة على بعد أربعة أميال من النهر خوفا من سلاح الوابورات وناهيك بأن الزمن فيضان والوابور يكشف بعيدا وكان عمى محمد أحمد شكاك مجروحا فى ركبته والمدنى وهو ابن عمى وزوج شقيقتى الكبرى السهوة مضروبا فى ابهام يده اليمنى فلم يبق معى غير موسى أخى الذى بينى وبينه أربع سنوات ومعنا غيره ــ أختى وبناتها ووالدتنا وأختنا الحسنى وعمرها نحو اثنتىعشرة سنة وأختانا أم طبول والبتول وزوجةوالدى.

فعملنا بيتا من حرام وأثواب وسكنا نحن جميعا فيه وفى المساء نزلت البحر وأحضرت الماء على أحد حمارينا وفى الصباح قال لى موسى أما أن تأتى بالماء وأنا آتى بالتمر أو العكس . أختار موسى الماء ثم رجع فقال لى أنا أعرف طلوع النخل أكثر منك فأنت اذهب للماء وأنا أذهب للتمر توجهنا معا كل على حمار حتى قربنا من النهر فموسى توجه نحو النخل فوقفت مكانى أنظر اليه لأنه لا يعرف طرق الحرب حتى رأيته طلع النخلة ولم يكن أحد هناك من العدو فذهبت للماء فوجدت كثيرا من الناس واقفين وراء المنازل ورأيت وابور البحر وسط النيل فوضعت سيفى وحرابى عند من أثق به وربطت سرج حمارى جيدا وضربته بالعصا فلما وصلت الشاطىء وجدته عاليا فحملت الحمار من صلبه ودحرجته حتى وصلت النهر وهنا أقول الواقع ولا أحمل الناس على تصديقى فيه حملا والله يعلم انى ما أقوله وأكتبه هو الواقع وضعت القربتين فى الماء

وجلست بين الرصاص حتى بلت القربتان ملأت أحدهما وأوصلتهـا قريب السهل خوفا من أن تظهر فيأخذها أحد ثم رجعت للقربة الثانية فملأتها وبدأت أربطهما فانقطع حبلها ولا أدرى ما قطعه ولكنى فى تلك الساعة تصورت أنه قطعته رصاصة لكثرة الرصاص حولى ولكن الله سلم ٠ فرغت القربة وطلعت أكتفى بالأولى ثم تذكرت انى أربطها بدكة سروالى فرجعت للنهر وصرت أملأ القربة فوقف من فى الوابور عن ضربى ولكن حمارى المكتوف ضربته رصاصة فى عرفه فأخرجت القربة الثانية بجوار أختها ورجعت للحمار وضربته بالعصـا فوقف نشطا فسقيته وطلعت حملت عليه القربتين وذهبت مسرعا . سبقت موسى أخى فشرب الناس وبعت من الماء ستة أكواز بستة ريالات مجيدى ٠ اشتريت بها لحما جقودا ثم حضر موسى بالتمر فأخذت السهوة تعد لنا الطعام وهو مركب من التمر الأخضر واللحم الجقود أى لحم الجمال التى فترت من المشى لضعفها تطبخه معا فى قدر النحاس ٠

فى شأن الله والرسول :

لمـا جاء أخى موسى شرب وأخليت له مكانى وجلست فى صدره وزينب بنت السهوة جلست فى حجره ونحن على تلك الحالة اذ وصلتنا شظية جله من المدافع التى نصبهـا لنـا العـدو فى الشرق فضربت أخى موسى فى صلبه بعد ما خطفت رأس البنية التى ماتت وهى قاعدة لم يحصل منها حركة غير صم فمها أما موسى فكسرت صلبه فبهتنا جميعا من رجتهـا فكل منا ظن أنه الذى ضرب ٠ فبعد ثوان قلت من يكشف الحقيقـة غيرى فقمت وهززت بدنى فوجدته سالما ورأيت البنية وأنا عارفهـا ورأيت أخى موسى يئن فالتفت الى الباقين وقلت لهم كلكم سالمون الا موسى وزينب فأخذت والدتى حربة صغيرة كانت بجانبها فهزتها وقالت موسى ولدى وهبته لله تعالى . دفنت البنت وأصبحنا مقيمين لكثرة الجرحى وفى الليلة أحضرت لموسى مديدة غلال قليلة رقيقة فأطعمته اياها كأنى أجرعه ماءا وحيث لا اسعافات ولا أطباء أصبح الجراح متعفنا وحالة الجريح متغيرة فى تلك الساعة ضرب النحاس وقام الجيش وقام معـه المدنى وعمى محمد أحمد وعلى شكاك والمنصور أبو كوع وموسى الشامابى وكلنـا كنا فى تاية واحدة وركبت السهوة على حمار والحمار الثانى حملوا عليه الأمتعة

وبقينا أنا وأمى والحسنى مع موسى فجاءنى عثمان أزرق الذى كان مسند اليه تنفير الناس من الديم مهما كانت حالاتهم لئلا يؤسرون فيقتلون لأن الترك فى أول أمرهم كانوا يقتلون الأسرى فلما قابلنى عثمان أزرق قال لى قم قلت وهذا وأشرت الى موسى المحتضر فقال لى أتركه لى الله قلت لماذا لا تترك حاج أحمد أخاك وأركبته فى « شبرية » هودج كالعروس فضحك وفاتنا ثم أنى أخذت قحفا ووردت البحر وأتيت بالماء فيه سقيت أمى وأختى وصرت أنقط الماء لأخى فى حلقه حتى فاضت روحه فكفنته فى فردته الدمور وفروته التى ربطتها عليه وحفرت الرمل من خلفه حتى انهار جسده فى الحفرة فقلبته نحو القبلة وهبلت عليه الرمل وودعته بما قرأته له ومشينا عنه فلما خرجنا من الديم وكنا آخر من خرج منه لحقنا فارسان من الشايقية على ما أظن فلما قربا منا أجلست والدتى على حجر وكانت ضعيفة البصر فبعدت عنها نحو الفارسين ومددت البندقية نحوهما فرجعا عنا فأخذتها ثانية وأومأت لهما بالبندقية فرجعا نهائيا فأخذت بيدها وجعلت أمشى كمشيها فاذا عثرت على حجر قالت : « فى شأن الله والرسول » رافعة بها صوتها بحماس (أنظر ياقارئى لهذه العقيدة التى تجعلنا لا نشعر بفقد الصديق الشقيق المفيد فقد فى وقت الحاجة اليه ثم مات ميتة غير اعتيادية ثم دفن دفنا رخيصا بلا أحد يضمه ولا صلاة ولا غسل ونحن فى حالة مجاعة وعدم أمن وفقدان نصر وكل هذا لم يؤثر فى عقيدتنا ولم يضعف من معنويتنا هذه والله هى التعليمات القيمة والقيادة الدينية الخالصة) . ولما مشينا نحو الساعة ارتفع النهار واشتد الحر وتعبت والدتى . لذلك تركتهما فى ظل جبل عال على قارعة الطريق ومشيت بنفسى فلحقت الجيش الذى وجدته نازلا قبلى حلة بلانا شمال أبى سنبل نحو ميل أو أقل ـ قصدت صديقى وابن عمتى وابن خالى عبد الله حاج الحسن قديلاوى قلت له أنى تركت أمى والحسنى أختى فى ظل جبل لعجزهما عن متابعة السير وجئتك تعطينى جملك أوصلها به فقال لى أقعد حتى يأتى الجمل من البحر . وبعد قليل حضر الجمل وعليه قربتان ملآنتان ماء فقال لى اركبه فركبت لما وقف الجمل بى سمعت والدته تقول له يا عبد الله تعطى بابكر الجمل وعليه قربتا ماء فوقفت لأسمع رده عليها فقال لها الجمل اذا سلم بابكر وأوصله البلد ابتاع رخيصا بل بيع بأغلى ثمن . سررت لرده هذا ولكزت الجمل برجلى فانطلق بى حتى وصلتهما . ركبت

والدتى والحسنى خلفها وقدت الجمل ولم آسقهمـا ولا غيرهما من القربتين حتى أنزلتهما بمنزلنا وأدخلنا الجمل لصاحبه وقلت لوالدته عمتى الحاجة أمنه: هذا الجمل وهذه القربتان لم يحل وكاؤهما فانكسفت وقالت لى : الجمـل ياولدى جملك والماء ماؤك فلم أذكر لها ماقالت وانصرفت شاكرا عبد الله الذى مكننى الله تعالى من مكافأته حينما احتاج لى وأنا غنى بحمد الله .

أنا والحمار بين الماء والنار :

فى المساء نحو الساعة ٤ أخذت القربتين والحمارين للبحر الذى وصلته بعد ثلاث ساعات لضعف الحمير فوجدت الوأبور بعرض النهر فربطت الحمارين وأخذت قربة واحدة ربطت فمها فى رقبتى وتدحرجت حتى وصلت الماء فرقدت فيه حتى بل ريقى ثم شربت وملأت قربتى على مسير التيار مخـافة أن يسمع من فى الوابور صوت الشلبقه فيضربونى وبعد ما ملئت أو كادت ربطت آخرها فى صلبى وصعدت ما شيا على أربع يدى ورجلى دون أن أقف .

لو ترى يا قارىء ما قاسيته من الصعوبة لعجبت لم أجرأ أن أسـقى الحمـارين ولا ملأت القربة الثانيـة وما وصلت الديم الا قرب الفجـر حيث صليت الصبح ونمت قليلا فلما صحوت بعت فى القرية ستة أكواز بستةريالات مجيدى اشتريت بها تمرا أخضر ولحما جقودا كما بعت أحد الحمارين الذى كاد يموت لمن يذبحونه ويأكلون لحمه بعته بخمس ريالات ورجعت مساء ذلك اليوم بالحمار الثانى الذى لم أجرأ أيضا أن أسقيه فى البحـر ولكنى حينما قعدت فى الطريق لصلاة العشاء أعطيته قليلا من القربة فى قرعة وفى ثانى يوم أيضا بعته بسبع ريالات لمن يذبحونه وصرت آخذ القربة بنفسى كل يوم نحو الساعة ٤ر٣٠ تقريبا وأسير الى البحر لأملأها بطريقة ربطها فى بطنى بحيث يكون فمها الذى تملأ منه مما يلى صدرى والثانى وهو الواسـع الدائم الربط الى صلبى فاصل البحر وأجد كثيرا من الناس واقفين خوفا من الوابور الذى يكون وسط البحر فى المشرع فأضع حربتى وأتدحرج وأنا راقد يعنى أتدردق حتى أصل الماء الذى أجد برده ألذ ما يكون وأنا بملابسى لتساعدنى رطوبتهـا على ترطيب جسمى المحرق من العطش وتعب المشى وحر الطقس فاذا بلت القربة فتحت فمها تلقاء التيار وسقت اليها الماء بلطف كما تقدم لئلا يظهر صوت جلبقة

الماء فينتبه لى من فى الوابور ثم أصعد ذلك المرتفع على أربع والقربة تجول فتضربنى فى حنكى وبين وركى فاذا صعدت تمت وحملتها فى كتفى وأخذت حربتى وسرت قليلا وأستريح حتى أصل الديم سحرا بعد العشاء وفى مرة وصلته ضحى لأن بعض الأنصار من جماعة الغرب لاقونى فى الطريق فأرادوا أن يغتصبوا منى القربة بمائها فتأخرت عن ميعادى فى منازعتهم فجزع أهلى جزعا شديدا وحزنوا على ظنا منهم أنى قتلت فلما رأونى سروا سرورا عظيما ـ كما وأنى بعثت فبعد وصولى أبيع كل يوم ستة أكواز بستة ريالات أشترى بها التمر الأخضر «القلوت» بلغة أهله ولحما جقودا لغذائهم الذى هو الوجبة اليومية . وهكذا دواليك من العشرين يوما التى أقامها الجيش فى بلانا .

حوادث :

أعطتنى حماتى يوما سعنا صغيرا لأملأه لها ماء فلما وصلت البحر كعادتى وصلت الماء بطريقتى المعتادة . أخذت حربتى وملأت السعن وغرزت له الحربة على الشاطىء وهو فى الماء فتحركت الوابور بقرب الشاطىء فاختبأت فى حرش قريب منى لئلا يرونى والقربة فى بطنى لم تملأ فضرب الموج السعن وقلع الحربة فانساب السعن وغرق فى الماء فلما رجعت لمكانى بعد أن بعد الوابور لم أجد السعن والحربة ملقاة فمما أصابنى من الخوف من حماتى الصعبة قلعت جبتى وجعلت أغطس فى البحر بلباسى حتى كدت أغرق وما وجدت السعن فلما وصلت الديم وجدت حماتى بمنزلنا وابنتها بجانبها تنتظر حضورى للسعن فأخبرتها بضياعه وسببه وبحثى عنه فصرفت وجهها المغبش عنى وقالت « هه » بعته بكم ؟ .. فاضطربت ابنتها كاضطرابى لأنا أحسسنا بشر منها وهرولت راجعة لبيتها وأخبرت أولادها وبنتيها الكبيرتين وطلبت منهما اما أن أترك كل عائلتى وانقطع لنفقة بنتها أو أطلقها فراجعها ولدها أحمد فلم تقتنع وصارت تعلى صوتها بسب أولادها وسبنا فاضطر أحمد أن يأتينى متكلما معى وهو خارج البيت لأنه أبى أن يدخل وبالصدفة كنت واضعا رأسى على فخذ زوجتى لتخليل شعرى من الغبار فقال لى يا بابكر قلت : نعم قال : الآن صار الناس الذين كانوا فى قرية صاروا فى مكان بيت كبير والذين كانوا فى

حوش صاروا فى مكان غرفة وغالبهم مكشوفون بلا حواجز ومتقاربون جدا قلت صحيحا قال : ان أمى صممت على أن تطلق البقيع أو تترك كل المتعلقين بك وتنفق عليها وحدها والأولى ممكنة فأنا جئتك لأخبرك ٠ وكثر سبها لنا ولكم فالسامعون يظنون أنا مكشوفوا حال فلأجل أن نسكتها أنا جئتك طالبا منك طلاقها على شرط ألا يتزوجها غيرك أن حيينا وأن متنا أفترقنا جميعا فقلت له : أما يرضيك غير طلاقها على شرط ألا يتزوجها أحد ؟ قال : نعم فرفعت رأسى من حجرها وقلت له طلقتها فبكت وأبكتنى ولكن هى بدموع عينيها وأنا بدموع قلبى وافترقنا الى اليوم وسيأتى فى مكانه ما حصل بخصوصها من تطور وأخذ ورد . طبعا فى تلك الساعة تذكرت كلام صخر خصوصا البيت الشهير :

فأى أمرىء ساوى بأم حليلة　　　فما عاش الا فى شقا وهوان

وأنا أهم بالحزم وأستطيعه .أخذها أخوها وبقيت مع أهلى أعولهم .

الهمة عالية والمعدة خالية

عين ولد النجومى جيشا برئاسة عبد الحفيظ شمت ليغير على قرية سرى الذى سبق أن غرنا عليها وعبد الحفيظ شمت كان معنا ولما كنت أتأكد من أنهم لا يأتون بفائدة منها لم أصحبهم فيها ولكنى سبكت حادثة الحمارة وخبرها أنى طلبت من جارنا على حمد الرفاعى حمارته لأصحب بها السرية وما آتى به من الثمر عليها يكون بيننا مناصفة فأعطانيها معتمدا ذلك ولكنى أبعدتها عن منزلنا فى منزل خالى مصطفى عبد القادر بجوار منزل عبد الله حاج الحسن وكتفتها بين حجرين فظلت راقدة وأنا أجىء اليها يوميا وأحتفظ لئلا يرانى على حمد قبل أن تعود السرية فلما أزور الحمارة خالى مصطفى يقول لى : يا بابكر الحمارة هذه لا هى ملكك تريد منها فائدة ولا هى لغيرك تخاف الله فيها أقول : والله لا هى ملكى أريد منها فائدة ولا هى لغيرى أخاف الله فيها فيقول لى : « الكلام ده أنا ما فاهم فيه شيئا . » أى كلامك هذا غير معقول فانظرها وارجع وبعد أيام رجعت السرية بخفى حنين فظهرت لعلى حمد الذى سألنى عن حمارته فقلت له أنها فترت وتركتها وراء ذلك الجبل فصدقنى واقتنع بكلامى ولكن أهله حرضوه على أن يشتكينى للقاضى وفعلا شكانى للقاضى فأخبرته بما قلته

له فطلب على حمد من القاضى أن يلزمنى بالذهاب لها اذا وجدتها حية أدرجها وأن وجدتها ميتة أجىء له برأسها فطلبت منه ماءا وزادا يوصلنى للجبل ويرجعنى ونويت اذا أعطانى الماء والزاد أبيع الحمارة لمن يذبحونها وأخرج رأسها من البيع وأحضره له فقال للقاضى ما عندى ماء ولا زادا له • قال له القاضى وهو غير ملزوم أن يخاطر بنفسه فى الحصول عليها فاقتنع وبعت الحمارة بستة ريال.

لننظر ما حصل بينى وبين على حمد فى أم درمان سنة ١٣١٤ . ثم بعدذلك لنا جار عنده ناقة وما عنده قربة للماء فقلت له أعطينى ناقتك أسقيها وأحمل عليها الماء بالنصف فأعطانى اياها فصرت أجلب عليها المـاء أياما • ففى بعض الأيام بركت فى الطريق وتمرغت على القربتين فوصلت الديم بماء قليل مشيت لعمى عبد الحليم مساعد طلبت منه قربتين بالنصف فأعطانى اياهمـا والناقة بالنصف فلما علمت والدتى ذلك قالت لى : « الناقة لها النصف والقربتان لهما النصف •• وأنت تدلك الدرب » وما علمت حيلتى التى نويت عليها فعلقت قربتى المخرقتين فى عمد البيت خروقها لا على وصرت عنـدما آتى من البحر سحرا أغشى بيتنا أولا فأفرغ أحد القربتين فى قربتى والبـاقى فى المواعين وأجعل فى كل قربة من قربتى عمى عبد الحليم نصفهما وأظهر له ولصـاحب الناقة انى لا أستطيع حمل القربة ملأى ولذا تأتى ناقصة بعد أيام ماتت الناقة قبل قيام الجيش بيومين لما أردت أن أرجع القربتين لعمى عبد الحليم حلف على المدنى مصطفى زوج أختى طلاقا لا أرجعهما له بل نبيعهما وننفق ثمنها طعام يوم فعلا بعناهما وقلت لعمى عبد الحليم الذى لم يعلم بموت الناقة عندما جعلت الماء فى القربتين غرقا من ضرب الموج للشاطىء . أخذت هذه الحيلة من غرق السعن المشئوم فاقتنع بذلك وقال فدتك القربتان والحمد لله • وفى اليوم الذى بعده أصبحت مهموما كيف أطعم هؤلاء الناس فأرسل لى عبد الله الحاج حسن فمشيت له حالا فقال لى خذ فرسى هذه وبعهـا بالسـوق وكانت فرسه حرة جميلة أعطى فيها فى بربر مائتى ريال فما رضى بيعها لأنها مولودة عنده وعزيزة عليه • أخذتها للسوق فعارضنى أحمد ولد بشاره ألا أبيعها كأمر ولد النجومى الذى يعرف الفرس جيدا ويعرف عدم حاجة عبد الله لثمنهـا وذلك لأن ولد النجومى من زوجاته كلثوم بنت حاج الحسن شقيقة عبد الله فقلت له يا سيدى

عبد الله اذا ما هزلت الفرس لدرجة عدم النفع لا يرضى أن يبيعها وركبتها أمامه ولززتها برجلى معا فما نهضت بل طأطأت رأسها ولوحت ذنبها فصادق على بيعها فبعتها بثمان عشرة ريالا فأعطانى منها ستة ريالات فقلت هذا رزق المساكين

بعد أن مضى على سبعة وعشرون يوما لم أذق فيها طعام العيش ضعف بدنى رغم نشاط همتى وهمى بأهلى خصوصا بعد العصر حتى صرت أزحف لأقطع الجمار الخفيف بعيدا عن النساء وأرجع زاحفا وأتيمم وأصلى تكبيرى كان آنينا ومع ذلك اذا عرض لى المصحف أحلف عليه أنا نفتح مصر فانظر لهذه الروح المعنوية وانسبها أن شئت للعقيدة أو للطيش أو الجنون لأنك لا تستطيع أن تنكر وجودها •

فى بعض الأيام كنت جالسا كعادتى أمام منزلنا الذى يمر الطريق شرقه فجاء ولد النجومى ومعه نفر قليل فأدركتهم صلاة المغرب أمام منزلنا فأمهم ولد النجومى وبعد أن كبر أصابه دوران وأظنه من الجوع فجلس فى الأرض بعد أن سلم فقلت له الله يعزك يا ولد النجومى بعد هذا الذل ثلاث مرات بأعلى صوتى فالتفت الى ووضع يده على فمه وتبسم ثم نهض قائما بعزم وكبر بأعلى صوته وصلى وتم صلاته بأحسن ما يكون • ومن الحوادث ان بعض النساء صرن يجمعن بذرة القرظ ويغلينها حتى يلين يحمصنها ويبعنها فى السوق فكان ملء فنجان بقرش صاغ ورأيت أحد الأمراء الممتازين ومن أعقلهم وأعظمهم وأشهمهم جالسا وسط النساء اشترى فنجان فأكله • ومن الحوادث أن اشتريت يوما لحما من السوق ولما طبخ وجدنا له خيوطا لم نألفها فى لحم الابل وبالسؤال علمت أنه لحم حصان فلم أشتر بعدها لحما الا سهما من جمل ولكنى سررت حيث انى ذقت لحم الخيل فى عمرى • ومن الحوادث فقدت أختى من أبى وكان عمرها نحو خمس سنوات فما فقدتها أمها حتى وقت الغذاء فأخبرتنى عنها فبحثت عنها حتى وصلت بعد أبى سنبل حيث وصلته حران متعبا ورقدت فى ظله على الرمله الباردة كدت أنام ثم رجعت بطريق آخر فوجدت البنية ميتة فدفنتها من غير غسل ولا صلاة ورجعت وأخبرت والدتها التى لم تبد أى تأثير فقلت •• لله در الشدة . هذا من فوائدها كما قال المثل السودانى ان جاتك من أم سمبوك تنسيك أمك وأبوك • أى اذا أصابتك الشدة فى ذاتك تلهيك عن غيرك •

لا تجدوا عندنا الا جبة متروزة وحربة مركوزة :

فى هذا الديم جاء لولد النجومى كتـــاب من قائد الجيش الانجليزى يقول له ما معناه أن الخليفة عبد الله عزلك وولى ابن‌عمه يونس‌مكانك‌وأرسلك بلا ذخيرة ولا مؤونة وغرضه يرتاح منك ومن جيشك لأنكم قوة يخشى بأسها فأنى أنصح لك أن تسلم فستجد منا ما يسرك وعدد له أشياء تغرى غير ولد النجومى فأخبرنى محمد نور كاتب تحريره وهو جد مكاوى أفندى سليمان المصرى لأمه أنه أ ىولد النجومى قال له اكتب له فقل له أنا بايعت المهدى وخليفته على الجهاد وسأستمر مجاهدا ــ فان قتلناكم نجد عندكم ماحكيتـه لنا فى كتابتك وأن قتلتمونا لا تجدون عندنا الا جبـة متروزة وحربة مركوزة وفى هذا الديم جاءنا عبد الله سعد والعباس العبيـــد مددا بجماعتهم • ومن الحوادث أنه قد جمع ولد النجومى يوما الا مراء فى ظل جبـــل شرق الديم وسمعته يقول لهم وهو واقف • من أراد الرجوع منكم فليرجع فانى لا أمنعه اما أنا فانى‌بايعت المهدى عم على الجهاد فى سبيل‌اللهحتى الموت وسأموت‌شهيدا حيث لا أمل لنا فى النصر وانى أنصحكم أجمعين الا ترجعوا فوالله من رجع لا يكون « عائلة ولا مجاهدا » أى يعامل معاملة الذل ولا يمكنه أن يدفع عن نفسه هذا سمعته من لسانه رحمة الله عليه فذكرنى كلام عبد الحليم مســاعد لعمى على بصرص « اذا مشيت معنا ترجع منكرا » • رجع من هذا الديم عمى على شكاك • ترك امرأته وأخاه جريحا وموسى ولد الشامابى ترك زوجتـــه ووالدته رجعا معا مع المنصور ولد أبى كوع الذى حمل خادمه‌على‌جمله‌وركب حماره وغرضهما يتوصلان معه • علمت لما وصلوا شونة الحديد وهزل الجمل فذبحوه قبالة خور موسى باشا بالغرب مساء أكلوا دمه أولا بعد أن نضجتـه لهم الخادمة أولا وباتوا يشوون ويأكلون من لحم الجمل حتى أصبحـوا ، حملوا ما تبقى منه حتى جلده وعظامه فصدقوا المثل القائل : « أربعة شالوا الجمل والجمل ما شالهم » .

بعد خطبة ولد النجومى أخذ الناس يرجعون وممن رجع منا البتول‌أختى وزينب بنت شيقوق زوجة والدى فنجيتا من الأسر • تحـرك الجيش من بلانا بعد عشرين يوما بحالة نهائية فى الضعف • من ذلك أنى أعرف رجلين‌وزوجاتهما

تركوا ولديهما الهزيلين لعدم استطاعة الولدين على المشى وعدم استطاعة الرجل وامرأته على حمل ولديهما لأن عمر كل من الولدين بين السابعة والعاشرة لا أعلم بالضبط عمريهما فأخذ الولدان يصيحان يا أمى يا أبى تركتمونا وهل تلدون أكبر منا والوالدان كأن لم يسمعا حديث ولديهما يا ترى على من يقع اثم موت هذين الطفلين البريئين ٠

وصار السير بطيئا وقد ترك الترك قتل الأسرى فلما تأكد الناس من هذا الخبر صار كثير يتعرض للأسر أما رغبة منهم أو ينزل للماء أو ينزل للنخيل للتمر فيؤسر وأنا والمدنى مصطفى لنأتى بالتمر من النخيل الذى صار الجيش يقطعه ويكدسه على الشاطىء ويخبىء العساكر أنفسهم على بعد منه فاذا حمل الأنصار التمر وكروا راجعين ظهر لهم هؤلاء فأسروهم ٠ حملنا التمر ورجعنا ومعنا أربعة أخرون فلما أشرقت الشمس أحاط بنا نحو عشرون عسكريا سودانيين وبيدهم بنادقهم فلما رأيناهم على بعد جلسنا على الأرض علامة التسليم لأنا لانستطيع الجرى منهم فضلا عن الهجوم عليهم فأسرونا ومن العجيب لم يأمرونا برمى السلاح والابتعاد منه هوانا بنا فأرسلوا معنا أربعة منهم ونحن ستة بحرا بنا حتى وصلنا محل الأسرى أدخلونا على ضابط يدعى خير الله أفندى مصرى بكباشى أمر لنا برغيف يابس ٠ فلما مد لى نصيبى قلت لهم لا أريد طعاما لأن بالى كله شغل بوالدتى التى تركتها فى الخلاء وشقيقاتى والطفلين ــ فقال الضابط : اتركه هذا لا يأكل طعام الكفار قلت له أنتم لستم بكفار واذا كنتم كفارا فطعامكم حلال لنا ٠ قال الله تعالى : « وطعام الذين أتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » قال لى : أنت تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم : قال : اقرأ لنا ربعا فبدأت من أول البقرة فلما وصلت « ان الله لا يستحى » ٠ قال الضابط : صدق الله العظيم ، ثم نادى يا أمباشى عفيفى هذا الرجل ينزل البحر ويأخذ البلح وينتقل فى المعسكر كما شاء ولا يحجز الا اذا مشى للدراويش فنفعنى القرآن العظيم ــ تذكرت بهذا الموقف قول الرجل الذى صحبته لمدنى « القرآن لا يرميك واذا رماك يرميك على برش » ثم خرجنا من عنده من المعسكر فوجدنا كثيرا ممن عرفنا وكنا ظننا انهم ماتوا ففى تلك الساعة قال لى المدنى الذى ترك زوجته وبناته بالجبل ولا يعلم عنهن شيئا فطلب منى

بالحاح أن أحضر له تمرا من الكوم الذى بالقرب منـه فذهبت وأحضرت له التمر ولما رآنى لا آكل صار يلح على فى الأكـل « يازول انت كافر » الزول يموت والده ووالدته ولا يبطل الأكل وأخيرا حلف على طلاقا وأكلت قليلا بلا نفس . وفى عصر ذلك اليوم جاء حسن حبشى صهر عبد الحليم وبسط للقائد حالة الجيش وكان يوم الخميس فاستعدوا فى يوم الجمعـة وفى يوم السبت سحرا تقدموا ولما صار نحو الساعة ٤ مساء جئ بجنـازة ود النجومى فى أسرنا وعرضت للتأكيد من شخصيته وكان ما ظهر من ضربه جلفة فى ساقه لأنه كان لابسا جبته والغبار بلحيته الجميلة كأنه رجع من العرضة لم تظهر عليـه كآبة الموت رحمه الله رحمة واسعة وقد قال شاعرهم بعد موت ولد النجومى شعرا كثيرا أذكر منه بيتا واحدا :

ولد النجومى التى كانت مصيبتنا   الله موته فى طوشكى ياخينـا

ولا تسأل عما أصابه هـذا الشعر فى نفوسنا لو كنـا نستطيع دفاعا أو اجابة ما تأخرنا .

وفى صباح اليوم الثانى جاء عسكرى مصرى فأمسـك بيد ستنا امرأة الأمين ادريس الرباطابى وكانت جميلة بقيافتها لحضورها فى السرية الأخيرة فأتبعها زوجها وسرنا معه أنا وأولاد الياس وأولاد رحمـه ولد الحميلى حتى وصلنا باب السور المحيط بصيوان الضابط الكبير فصار العسكرى قابضـا على يدها الشمال وزوجها يمسكها من يدها اليمين فالعسكرى يريد ادخالهـا السور ونحن وزوجها نجبدها للخارج فلما رأى الضابط منازعتنا للعسكرى خرج لابسا قميصا ورداء ورأيناه كلنا منعظا . فلما وصلنـا قال بلهجـة قوية أطلقها فطلقناها كلنا الا زوجها فلم يطلقها فرجعنا وأمسكناها معه فقال الضابط لزوجها : مثلك لا يتزوج مثلها . فقالت له : والله هو زوجى وابن عمى . وفى أثناء هذه المحادثة رأينا وود هاوس باشا قادما على جمله ولكن الضابط لم يره لاتجاهه عكس الجهة القادم منها حتى وصلنا وود هاوس باشا فلما رآه الضابط ترك البنت وجرى ليلبس رسميا فلما حضر وجد وود هاوس باشـا قد عرف القصة منا كاملة فلما قدم التعظيم الرسمى قال وود هاوس باشا أنا البكباشـا وأنت اللواء ثم أمر بالرجل وتوجه معنا وجعل للنساء موضعا خاصا منعزلا عن مكان الرجال وأمر ألا يصلهن رجل قط .

وفى صباح الغد امتلأ المعسكر بالأسرى فأمروا بنقلنا الى الشرق وقد كان العسكرى الخفير علينا فى المعدية ينظر الى كلما رفعت رأسى له — ثم انه انتقل بجانبى فقال لى ما جنسك فقلت رباطابى قال من أبوك قلت واد بدرى . قال نى : انت بابكر ؟ قلت نعم . قال : هـل عرفتنى ؟ قلت : لا . قال : أنا العسكرى الذى أخرجنى والدك من قيقر صالح وأقمت معكم وكنت يوما حلفت بسيدى الحسن وأنت قلت تضربنى حق الله قلت له : انت أحمد ولد على قال: نعم . قلت الحمد لله لأنى فى غاية الحاجة اليك قال هل معك أحد من أهلك ؟ قلت : ذاك المدنى مصطفى . ذهب له وسلم عليه ثم رجع لى فلما خرجنا بالشرق فى المعسكر جاءنا أحمد على وقال : أنا أمرت أن أذهب لسجن حلفا بالبوستة اليوم فهل لكم حاجة بحلفا ؟ قلت له لنا حاجة بين هذا المعسكر وحلفا وهى أن يكون طريقك بالغرب فتسأل عن أمى والسهوة وأم طبول ومن معهن اذا وجدتهن فاعمل اللازم فى تعديتهن للشرق بكل وسيلة فاخبرهن أنا والمدنى هنا وسر فى طريقك فاذا رجعت من حلفا بالشرق فتمكن من وصولهن لنا فسافر بالغرب ولما اجتمع بهن وأوصلهن الشرق وأعطاهن علوق جمله فسرن هن تحت الظلام حتى وصلن حلة أشكيت حيث حللن على العمدة دهب الذى سمح لهن بأن يأخذن الزعف من النخيل فصرن يعملن مقاطف ويحملنها على رؤوسهن الى سوق التوفيقية يبعنها فيشترين بها الطعام والأدام وهكذا .

الى سجن الشلال :

أما نحن ففى صبيحة يوم سفر أحمد على أرسلونا لسجن الشلال فى « مركب الحوادث بين المعسكر والشلال » لما وصلنا بلدة قبل كورسكو بها نخيل به رطب وكانت جمعية من النساء تحت نخلة جاءنى العسكرى الخفير علينا من المصريين وأمرنى أن أطلع تلك النخلة وآتيه منها برطب وأعطانى منديله فلما وصلت الرطب طلب منى أولئك البنات الجالسات تحت النخلة أن أرمى لهن رطبا فصرت أرمى لهن تارة وأجعل فى منديل العسكرى أخرى فرآنى الضابط الرئيس على الرسالة من الأسرى فصاح على أن أنزل فأخذت فى النزول وكان بيده سوطا عنجا فوقف تحت النخلة وأوسعنى ضربا وأنا نازل من النخلة ولما وصلت الأرض قال لى اشبط النخلة وكان صدرى عاريا فشبطت النخلة

وصار يضربني حتى أدمى ظهرى ولما تركنى قلت له أنا مظلوم فصفعنى على خدى فكررت له أنا مظلوم فقال لى : من ظلمك فقلت : ضربتنى قبل أن تسألنى قال لى : رأيتك بالنخلة قلت أمرنى هذا العسكرى فأنكر العسكرى أنه قد أمرنى فقلت للضابط هل عندى منديل هذا منديله فاقتنع وأمر بحبسه قشلاقا وهذا الضابط على أفندى ابن حسن باشا الجويسر الذى كان مديرا لكردفان فى التركية السابقة وفى أثناء الرحلة ولا زلنا بهذه المركب أتحد عمى محمد أحمد شكاك مع آمنه زوجة أخيه على شكاك الذى هرب منها وتزوجها فعلا ولما وصلنا كروسكو أعطانى الشيخ العاقب ريالا كبيرا وقال لى اشتر لنا منه زادا من السوق وكان عمى محمد أحمد رآه فأخذ منى الريال وحلف طلاقا لا يرجعه لى فرجعت الى الشيخ العاقب وقلت له الريال ضاع منى فسكت ولكنه ظهر على وجهه أنه اتهمنى بسرقته ثم قال لى : أنت ولد ود بدرى ماذا أقول لك انظر ماذا آل الأمر بخصوصه فى ما بعد فى كروسكو جاءنا موسى الشامابى الذى ترك زوجته وولدها ووالدته معا ببلانا جاء من السودان لأجلها ووجدها تزوجت برجل من كروسكو قبل يومين فقط وولدها من موسى توفى فقابلته حماته عائشة بنت قشلابى فجاء لأمى يوسطها لها ليوافقانه على رغبتهما فيه دون الزوج الجديد وقال لها أى لأمى أن سعيدا ولدها صاحبه يدخله فى المحس بيته ليأكل معه ويوسف ولد بدرى ما يدخل معه فقالت له أمى « هوى يادا الزول أنت صاحبك ده تشكر فيه ولا بتنبش فيه » • أى يا هذا الرجل هل بقولك هذا أنت تمتدح صديقك هنا أم تعيره ورفضت التوسط له • وصلنا الشلال نحو الساعة ٤ مساء فورد علينا الأهالى وكل حامل بيده ما يؤكل وأكثره رغيف قمح طازه وصاروا يرمون ما عندهم فى النهر لأن المركب بعيدة من البر ولا سقايل عليها فجعل المساجين من الأسرى يعومون فى البحر ويلتقطون ما يرمى اليهم وكنت جالسا مع الشيخ العاقب على سطح مؤخر المركب « البطونه » ورأينا محمد الفضل ومعه آخر بينهما رغيف اذا أخذه الآخر يغطسه محمد الفضل فيطلق الرغيف من يده فاذا طفى الرغيف ورفع محمد الفضل يده من عنقه أسرع فقبض المغطس الرغيف قبل محمد الفضل وهكذا • فقال لى شيخنا العاقب قم جئنا برغيف نأكله نحن جائعون فقلت له : يا مولانا اذا جئتك برغيف بهذه الحالة «وأشرت الى محمد وصاحبه»

انت تأكله مطمئنا فقال لى بشهامة لا والله لا آكله شائب • أخطأ وشاب أصاب فما برحنا مكاننا واذا بمنديل به رغيف ورطب رماه صاحبه فوقع بيننا فأكلناه وبعد أن صلينا المغرب فى مكاننا •

ماهر بك فى سجن الشلال :

أخرجونا حيث دخلنا السجن بالشلال وهو سور مربع لم يكن به مايظل غير مكتب الحرس فجعلوا النساء فى سور آخر به غرف ومظلات والرجال فى السور الكاشف •

حوادث السجن

دخلنا السجن ووجدنا غداءنا الذرة اليابسة لكل شخص كوز قدر رطل فى الضحى بعد مأمورية الصبح فى الخدمات المتنوعة وكوز عند غروب الشمس نأكله عليقة كعليقة البهائم أما المجروحون والمرضى يصرف لهم بكسمات فطبيخ فلما طال بنا مضغ الذرة عينونى لرش بيوت الجيران فأعطانى صاحب المنزل قرشا اشتريت به سكرا من دكان بقرب السجن والسبب الذى جعلنى اشترى السكر هو أن العسكر المعينين الحرس علينا يسألوننا عما اذا كان معى عرق محبه ويصفوه لنا بأنه حلو الطعم وكان عندى جراب صغير قديم فجئت بالسكر وجعلته فى كوز وأخذت عروقا من جميزة واقعة عند باب السجن وجعلتها فى الكوز بالليل كله ثم أخرجتها حتى يبست فجعلت من فم الجراب قطعة صغيرة من الجلد أخرزها فى العرق وأحك جانبا من الجلد على شىء خشن مثل حجر ومرة على ظهر قدح خشب حتى يبدو طرف العرق ليذاق طعمه وجعلت عمى محمد أحمد شكاك سمسارا يدلهم على وصرت أبيع العرق بقرشين الى أربعة قروش ونشترى الرغيف من خارج تارة ومن طباخ السجن تارة • واتفق أن اشترى منى عسكرى يدعى ابراهيم بحيرى عرقا بأربعة قروش وظلمنى فيها فاشتكيته للجاويش الذى وبخه وأجبره بالدفع فحقد على ولما جاء يوم عاشوراء طلبنى وأوقفنى فى ميدان المجرمين أمام الحجارة الكبيرة التى يرفعونها ويضعونها كعقوبة وقال لى « بير » لا رفع الحجر فما قدرت على رفعه وصار يضربنى بكفه حتى سال الدم من أذنى الاثنين على عنقى فجاءه الشيخ العاقب

وعاتبه عتابا شديدا وهدده فلما جلست بمكانى ملأ مقطفا كبيرا من البليلة التى عملت للنساء ذلك اليوم من القدر مباشرة وأمرنى بحملها فحملتها وسار ورائى حتى دخلنا سور النساء فجعل يأخذ لكل امرأة كوزا من البليـلة وهى على رأسى أحس بغليانها فى مخى لشدة حرها حتى فرغت كلها وهو يريد أن يعذبنى بها ولكن الله أرادها لى علاجا فانى لم أشعر فى أذنى ألما بعدها ولكنى حدث اذا عمت فى البحر مدة طويلة يخرج الدم يابسا من أذنى مدة ثم انقطع ــ فى هذا السجن مرض عمنا الفضل الصادق ومات به ليلا فأصبح للظهــــر حتى سمعت به توجهت لأولاده وعمى محمد أحمد شكاك وأحمد عثمان حملنـــا الجنازة لدفنها خارج السور فلما حفرنا الحفرة وأردنا ان نعمل اللحد قال لنا العسكرى الخفير علينا ادفنوه وكادوا ينصرفون فحبستهم حتى صليت عليـه وهو فى قبره . قلت نأكل الذرة عليقه ولكن لما زار ماهر بك السجن وودهاوس باشا كنا نعرف يوم زيارة أحدهما بأن العساكر ينزلوننا البحر نغتسل ويحضروا لنا طعاما غير الذرة فما نشرع فى الأكل حتى نسمع الكركون يقول : « كركون سلاح » فيدخل ماهر بك أو اللواء وود هاوس باشا فيجدنا نأكل البقسمات غالبا بالطبيخ . فشكونا لماهر بك بخصوص الصلاة على أمواتنا فقرر الصلاة والكفن والغسيل .

كنت دائما فى المتقدمين الأوائل للخدمة فأجيب المـاء أو نمشى للفحم أو غيره من الخدم العادة ، ففى بعض الأيام تأخرت عمـدا ظنا منى أن من يتأخر يرتاح فكان دورى أن أحمل العذرة بسور النساء فلما علمت ذلك ولا يسعنى الا الطاعة ندمت ولكن حدث وأنا ماشى أنظر يمينا وشمالا لآلة آخذ بها العذرة من الأرض فلقيت قطعـة حملتها مع القصرية وجلست بعيـدا والعســاكر الثلاثة الحرس علينا وقفوا بعيدا بعكس جهة الريح وجماعتنا وضعوا القصريات يبتعدون ويتذمرون . ناديت أحمد عثمان من بينهم وأعطيته الصفيحة وقلت له املأ قصريتك بهذه قبل أن يأتى العساكر فعمل بمشورتى وعلى حين غفلة حمل العساكر صارخين وصار كل واحد يأخذ العذرة بيده ويضعها فى قصريته ونحن حملنا قصريتنا أمامهم للمكان المعد لوضعها ونزلنا البحر كلنا اغتسلنا ورجعنا السجن ومن ذلك اليوم صرت أبادر لأخذ الجردل حتى نقلت لسجن أسوان .

كان بجزيرة أصوان الملك طمبل من ملوك أرجـو وعبد النعيم الذى تسميه الأنصار عبد القيوم بالقرب من كيمتو بالمحس هاجرا مع مصطفى باشا ياور فى صلب الجيش الانجليزى فأرسل الملك طمبـل ولده ليخـرج أسراء الدناقلة بضمانته وكذلك عبد النعيم أرسل ولده لأسرى المحس وكان الكاتب المقرر بالشلال احمد الحكيم من الاسرى وكان صـــديقى فقدمت نفسى مع الدناقلة وكتبت اسمى ونقلنا اجمعين لشونة اصوان وفى العصر جاء ماهر بك ليصدق كتابة الاسماء والاجناس والصفات الخاصة لكل واحـد فى الاسرى لتدون فى الدفتر الخاص بالأسرى المضمونين ومن يضمنوهم فلمـا دخل قال لصالح بن عبد المنعم أين جماعتك ؟ فتقدموا له وكانوا قليلى العدد فسمح بهم وقال لأبن الملك طمبل أين جماعتك فاصطفينا صفوفا فلما رأى ماهر بك كثرة عددنا التفت الى ابن الملك طمبل وقال له ابوك ماهيته ثلاثون جنيها يســكر بعلمى فى الشهر بـ ١٧ جنية كيف يؤكل بالباقى واومأ اليه بمنش كان فى يده فانطلق جاريا ورددنا الى الشونة ليضمنا أصحاب المروءة فاضطجعت على ظهرى وصرت اقرأ القرآن فمر بى ماهر ووقف قليلا وسمع قراءتى فتحـول لوجهى فقمت مسرعا فقال لى تحفظ القرآن كله ؟ قلت: نعم والحمد لله . فقال لى أتحب أرسلك مصر لمنزلى وتقرأ فى الجامع الازهر وتعيش مع أولادى قلت كان هذا خيرا سعادتك ولكنى تركت والدتى وشقيقاتى فى الجبل وأريد أن أخرج من هنا لأتحسس خبرهن اذا وجدتهن قدمتن أتخير فى أمرى واذا كنا فى مكان ما بالقطر المصرى اسعى فى اجتماعى بهن واذا رجعن السودان اطمئن عليهن لأن والدى وأخى الأكبر موجودان فسر من حديثى معه وقال جميل والله يجمعك بهن ودخل الناس الراغبون فى أخذ الأسرى بالضمان فجاء رجل يدعى على أبو محمود من جعافرة دراو ورغب فى أخذى وجاء بالضمان فلمـا عرض اسمى على ماهر بك قال لعلى أبى محمود هذا يحفظ كتاب الله وأنت وعمك موسى تخدمونه فى المزارع فقال على لماهر بك نتركه يعلم اولادنا فقال ماهر بك أنا سآتى بدراو اذاوجدته متعبااقصم ظهرك «بهذه العبارة» فقال على أبو محمود حاضر ياسعادة المدير . أخذنى وليته لم يأخذنى بتنا تلك الليلة بأصوان عنـد أحد معارفه وحينما جاءوا بالعشاء رغيف قمح بسمك قال لهم على أبو محمود أنتم تأكلون بالســمك « المثلوث رغيف القمح . » نحن فى دراو نأكل رغيف

بطبيخ فسررت لأن الرغيف عندنا ما كان من قمح والطبيخ عندهم كل ما أدم الطعام ولو ماءا . كان صاحبنا فى رحلتنا من أصوان الى دراو الميرلاى فرج بك أبو زيد راكبا جمله وكان اذ ذاك بوظيفة ملازم أول فلما آلمنى المشى لبعد عهدى به شرعت أقص غزوة بدر وأكلف نفسى السعى مع زاملتيهما وصارت تشربنى حجارة العقبة حتى أكاد أقع على وجهى ورغم ذلك لم أقطع حديثى فلما صار صوتى يتقطع تبعا لنهوضى المتكلف رق بى فرج بك حيث أوقف جمله وتناولنى من ذراعى بيده وأردفنى خلفه وهو على جمله لم ينخه .

مبروك عاد يا بابكر الفيه خير يبدى :

وصلنا دراو ليلا فلما أصبحنا صار الناس يأتون أفواجا وكل متفرج منهم يقول لعلى أبو محمود : جبت ليك وحيدة ؟ فيجيبهم : نعم

يقولون : وين هو عاد ؟ فينادينى : بابكر تعال سلم أبوك ، ولو كان طفلا

الزائر : اسمك مين ؟

أنا : اسمى بابكر

الزائر : بابكر ـ مبروك عاد يا بابكر الفيه خير يبدى • ومعنى هذه المحادثة باللغة الفصحى هى :

الزائر : يا شيخ على هل أتيت بأحد الأسرى ؟

يقول : نعم

يقولون : أين هو ؟ فينادينى • يا بابكر تعال أقبل لتحية أبوك وحينما أقابله يسألنى ما أسمك ؟ أقول : اسمى بابكر .

يقولون : بابكر أن شاء الله تكون مبارك والذى فيه خير يظهر

مكثت معهم ثلاثة أيام لا عمل لى وطعامى قليل وغير منتظم المواعيد قلت لامرأته : يا مدينه ، أين الأولاد الذين أعلمهم ؟

قالت : الأولاد يقرو عند أحمد أبعط الله شى .

قلت : وأنا أعمل أى شيء ؟

قالت : أنا عارفنك . الرجال مافى الخلا شى .

قلت : لكن أنا جيء بى لأعلم الأولاد القراءة •

قالت : بيه الولد عند أحمد ابعط الله انت روح الغيط .

ومعنى هذه المحادثة باللغـــة الفصحى اننى قلت لامرأته : أين الأولاد الذين أعلمهم ؟

فقالت : ـ الأولاد يعلمهم أحمـــد أبو عطـا الله ولا يمكن أن يخرجوا منه ، أنت اذهب للغيط اعمل به كالرجال .

ومن ذلك الحين انقطع منى الطعام وأمرت أن آتى بالماء من الترعة وهى على مسافة نصف ميل على الأقل . أجيء فى كل يوم بأربع عشر قادوسـا على كتفى واذا طلبت الأكل قبل الذهاب للماء تقول لى : ـ يا بابكر ما حميناش أى ما أوقدنا النار فى الفرن للان واذا جئت بعد كمالة الماء تقول لى يا بابكر ما تتقدم شى ياود الناس العيش خلص

يأتى زوجها وينادى مدينى .

تقول مدينه : نعم

يسألها قائلا : بابكر أتعش

مدينه : ما عارفنه كيه

أبو محمود : ماعارفنه شى

مدينه : ضلك ما فضل شى غير عيش عاشه

أبو محمود : هاتى له رغيف عاشه

فتقوم ومفرقها لها صوت وغبار وترمينى بتاوه .

أبو محمود : بتاوه صغيرى تفطر بها عاشه العظيمه

أبو محمود : ضلك يأكل بأيه .

مدينه : مافيش طبيخ بار أنا عارفنه

أبو محمود : جيبيله راس بصل

فقامت مدينه ورمتنى ببصلة واحدة ، فقلت الحمد لله .

ومعنى هذه المحادثة أنه كان تقول لى عندما أطلب الأكل قبل الذهاب الى الماء : بابكر للان لم نوقد النار فى الفرن للخبز . أمش انقل الأربعه عشر قادوسا وأحضرها وتقول لى أنت تأخرت والأكل توزع للآكلين ولم يبق لك

منه شيء فاطوى . وفى بعض الأيام حصلت بينها وبين زوجهـا المحاورة التى أكتبها بلغتهم حينما جاء من الغيط فوجدنى عند الباب راقدا على الطوبات التى أرقد عادة عليها فقال لى تعبت ؟ قلت لا ٠ وما كان يسألنى ولا يسأل عنى فلما وصل فى المحاورة لقوله : ٠٠٠ له راس بصل ٠ قلت فى نفسى : يريد أن يرسلنى برأس البصل للنبرو لأن كلمة رأس البصل عندنا معناها حمل الانسان ٠ فلمـا كانت النتيجة بصلة واحدة سررت لئلا أمش ليلا وأنا حامل البصل للنبرو هذا هو اليوم الوحيد الذى سأل عنى فيه فلما اشتد على الجوع ذهبت معهم للنبرو فقال لى أحدهم امش افتح الماء فى الحوض ورجعت اليهم فملا الماء الحوض وانكسر حين وصلنا الماء عند النبرو وبطريق الجدول الكبير فلما رأى المـاء قال لى : يا وقعت الشوم . وجروا كلهم فسـدوا الماء فرضخت تحت ضغط الجوع لأخدم أى خدمة توصلنى للاكل وقلت لنفسى اذا كانوا هم أنفسـهم متعبين فكيف أطالبهم بأن يطعمونى دون أن أعمل معهم مثل ما يعملون ٠ ففى بعض الأيام أمرونى بأن أرحل البوص « قصب الذرة » من النبرو الى قطيـع بآخر السور فأخذت الجمل للنبرو فحملوه لى قصبا فاذا وصلته باب السـور أنقله على كتفى للشونة والمسافة لا تقل عن مائة متر فلما رحلت خمسة جمـال وأدخلتها الشونة وكنت قبلها ملأت الأربعة عشر قادوسا اضطرب جسمى من الجوع والتعب دخلت على ست مدينه طالبا الغذاء لأنى صرت مستحقا له بمـا قدمته من الخدمة فكان الجواب ما تتقدمش ياود الناس . حينئذ بلغت الروح الحلقوم . رجعت بالجمل ورحلت جملين سددت بهما باب المنزلين المتقـابلين لأمنع كل داخل بأحدهما من الدخول وخصوصا الرجل الكبـير موسى أبو محمد على والد ست مدينه الذى يأتى بعد الغروب دائما على حماره سددت البابين وجلست جانبا فلما جاء الشيخ موسى وجد البابين مقفولين ٠ قال وهو على حماره ٠

محاورة موسى المرموز له بـ م ٠ وبابكر المرموز له بـ ب :

م ٠ من جاب دهنا

ب ٠ أنا بابكر

م ٠ بابكر الاه ما دخلته يا ولدى عاد

ب • ما بقدر
م • بس تقدر تدرس البتاوه
ب • أنا لاقى بتاو أدرسها
م • لاه عائشن كـ بلا خدمة
ب • أنا راضى أخدم
م • تسوق العود .
ب • ما بقدر
م • تحول الميه .
ب • ما بعرف
م • تحرث الأرض
ب • ما بقدر
م • بس تحلل لقمتك بيه عاد
ب • يا عمى موسى اتركونى أمشى السـوق وأشتغل صنعـه وأعيش وأبيت عندكم
م • ياك نحن مستيسرنك انت شجار .
ب • لا
م • جلاد
ب • لا
م • خياط
ب • لا
م • تشتغل أيه عاد
ب • عينى فاتحه كل البشوفه أعمله •
م • حد عينه مقدوده ماكل الناس عينها قايدنهاش
ب • أنت بس خلونى أنا بعيش نفسى
م • ياك نحن مستيسرنك .

بعد هذا حضر الخدامون من الغيط فادخلوا القصب وفسحوا لعم موسى الطريق دخل بيته ولم أقف له على أثر بعدها « محاولة على وزوجته وأشتداد الجوع على . »

من يئس نكس :

جاء بعده على أبو محمود الذى كرر نفس الفصل السابق مع زوجته ،لم تسمح لى برغيف عيش هذه المرة ورقدت على طوباتى ثم تذكرت كلام يوسف أخي بخصوص صديقه وَجَّهْ الذى يمضغ فى رجل جاره الميت فقالت لى نفسى أهرب مثل العبد فى بلد أجهلها فيلحقونى ويرجعونى ويضربونى ثم قالت لى نفسى قم ليلا فاشحذ الطعام فى البيوت قلت فى نفسى لا يمكن ذلك ــ ربما أتوطن بينهم وأتزوج وأولد منهم يسبون أولادى فى المستقبل بقولهم «يا أولاد الشحاذ» ــ قلت لنفسى الأحسن أن تصبرى وتضيفى هذه الأيام على أيام بلانا حيث لم تذوقى طعام العيش سبعة وعشرين يوما وأنت مكلفة بمعيشة من تعرفينهم ، فرقدت تلك الليلة تنازعنى ثلاثة عوامل واحد منها يكفى لهذا الجلد وهى ولوعى بوالدتى وشقيقاتى الذى والله يلازمنى فى كل حاله ويطغى على كل مشقة أو يكافئها والثانى تباريح الجوع الذى أحس أن أمعائى ومعدتى يصعدن ويهبطن ــ الثالث موقفى الأخير بين الأمل والخيبة حينما أصبح هل يتركوننى أسعى لرزقى أم يمنعوننى واذا رفضت البقاء معهم هل يرجعوننى للسجن أم يخلو سبيلى وكيف يخلو سبيلى وهم واضعوا ضماتتى فى الحكومة فهذه الوساوس لا تجعل للنوم سبيلا لعينى . وقبل الفجر بقليل ذهبت الى الترعة أتوضأ وصليت وجعلت أقرأ فى الراتب فاذا مر بى أحمد أخبرنى أن السيد عشريا جاء البارحة من الغابة ونزل عند أبن أخته سلامة أفندى فقمت من وقتى وعبرت الترعة وذهبت للغابة قبل أن أجلب لهم الماء كالعادة لأجس نبضهم هل يسعون خلفى أم يتمسكون بى أو يهملونى فيردون بغيرى ، فلما وصلت السيد عشريا وبعد امهاله قليلا قلت له أنا جائع فأمر لى بأكل فجيء لى بطبلية عليها ستة أرغفة وفى وسطها انجرى به مش فأشرت له بأن يخلى لى المكان فوزع الأولاد بعد أن جيء لى بالماء فلا اكتمك أيها القارىء أنى أكلت حتى كل فمى من المضغ وأن بطنى لم تشبع فجعلت استريح قليلا من المضغ ثم أعود اليه حتى أكملت الستة أرغف فقال لى السيد عشريا لا بارك الله فيمن أجاعوك هذا الجوع فرجعت منه وعمت الترعة وذهبت للمنزل المشئوم ــ ولكن الله أتى لى بالفرج منهم . اضجعت يوما ضحى كالمعتاد فشرعت أقرأ القرآن وأتذكر كنت أقرأ فى سورة « اذا جاءك المنافقون » اذا مر بى ولد يدعى

نور الهدى ما رأيته قبل ذلك فوقف قليلا ثم قال لى : باك أنت حافظ القرآن؟ قلت : نعم . قال لى ما معناه لماذا لا تزور الكتاب ؟ « الكتاب فى اصطلاحنا جمع كاتب . » قلت له وما الكتاب . قال : المكان الذى يقرأ فيه الأولاد . قلت أرينيه مشى معى حيث وجدت الأولاد يكتبون ألواحهم فتناولت لوح أحدهم لأكتبه له علامة للفقيه الذى لم أجده وقتئذ ليعلم من كتابتى زيارتى وانتظر ماذا يصنع أيأتينى فأعيد له الزيارة أم لم يعتنى به فاقتصر منه ؟ فوجدت اللوح : « ان الله تعالى يدفع عن الذين آمنوا » فى سـورة الحج فقرأ « ربع حزب » فكتبته وشكلته ولكن برواية على لا عمـر وهم يقرءون برواية حفص فكانت علامة ثانية ورجعت لمكانى فاذا الفقيه أحمد عطا الله على أثرى فأخذنى وعاد بى الى كتابه وجاء لى برغيف وبيض مما يجلبه له الأولاد عادة فأكلت منه رغم أكلى الكثير بمنزل سلامه أفندى فلما فرغنا من الأكل حكى لى قصته ومعه شخصان من أهله انهم كانوا بقفرة الأبيض وانهم هربوا ليصلوا الخرطوم فقبض عليهم أحد عمد النيل الأبيض وقيدهم بالحديد فزرعوا له غلال الصفراء ولمـا رأى اخلاصهم فى الخدمة فك منهم القيود وما زالوا حتى نضج الزرع حيث تزودوا منه وهربوا للخرطوم وختم كلامه بأنه ذاق مثلما ما أنا فيه الآن وألح على ألا أستحى منه فانه يفطـرنى كل يوم وسيجمعنى بالشيخ حسن ود على أبو حاج عمدة دراو وهو أى حسن يحب المساكين أمثالك خصوصا اذا انتسبوا للدين لأنه دين فتنسمت الفرج من الله الذى لا يتركنى لأولئك اللئام وأنا مهـاجر فى طاعته ففى أول رؤيتى لحسن أبى حاج يوم الجمعة لأول مرة صليت الجمعـة بالجامع فى خلف الصفوف لأن جبتى لا تزال عليها أثر مخ رأس البنيـة ودم موسى أخى فخفت أن يستقذرنى الناس فجاء الشيخ حسن ولد على أبى حاج متأخرا فجلس بجانبى وبعد أن سلم الامام أسرعت بالقيام لأنى لا أعرف حسن. ففى يوم زرت السيد عشريا عائما للترعة وحينما خرجت منه رأيت جملا بوصا متجها نحو نجع العرب فقلت يلزم أن تكون على الترعة قنطرة يمر عليها هذا الجمل فأمر منها وارتاح من سباحة الترعة فتبعت الجمل ولحظى لما وصـل القنطرة توقف من المرور عليها ورمى القصب فاشتغلوا فى وضعه عليـه حتى وصلتهم .

عند رجل المروءة حسن على اب حاج :

ياكل عماى بابكر بدليقيناته ديل .

فلما رآنى الشيخ حسن سلم على ببشاشة وأنا بدورى بادلته طبعا البشاشة لأنى محتاج لها لصالحى وعرفت أنه الرجل الذى صلى الجمعة الماضية بجانبى وبعد تبادل التحية قال لى : انت من جماعة ولد النجومى ؟ قلت نعم قال بلغنى أن أحدهم عند على أبو محمود وأنا أريد أن أقابله فقلت أنا هو فقال لى ما اسمك ؟ قلت اسمى بابكر بدرى قال نعم انت هو ومن أين أتيت الآن ؟ قلت : لى صديق قديم اسمه السيد عشريا نازل عند سلامة أفندى قال اركب خلفى على الحمارة . فركبت وأخذ يسألنى عن كيفية قتل جيش ولد النجومى فحكيت له الأسباب التى يسمح لى الوقت والمكان بسردها له وظننت حسن ولد على أبى حاج الذى بيته عند جامعه وكتابه فلما مال بى الى أحد الشوارع فسلكه مغربا حتى وصلنا منزلا أناخ جمله عنده أدخلوا القصب فى شونته فداخلنى الشك فى أنه حسن المعنى ثم جاءت والدته فقال لها يا مدينةهذا بابكر من جماعة ود النجومى اذا جاءكم صباحا أم ظهرا أو ليلا أو فى أى وقت قدموا له طعاما واذا ماعندكم اشتروه من السوق وان لم تجدوه فى السوق اشحتوه من الجيران والآن هاتوا ما عندكم فذهبت وجاءت برطب ورغاف قمح فأكلنا ثم قام برجليه وأخذنى معه قائلا هذا منزل والدتى وزوجتى الكبرى معها أما بيتنا الكبير فنريكه الآن . مشينا حتى وصلنا فاذا هو البيت الذى عرفته بيت العمدة فأدخلنى الحوش ــ سور المنزل ــ وأرانى غرفة عند بابه وقال تنام هنا فاذا جاء العبابدة أو غيرهم من الضيوف العاديين فاتركها لهم وأدخل نام فى ديوان جلوس والدى فسلمنى مفتاحه وذهبت الى الفقيه أحمد أبى عطا الله الذى أوصاه بى بعد أن شكرته قلت له أنى أخاف أن بقيت مع حسن عقاب موسى أبى محمد على وابن أخيه على أبى محمود فقال لى لا تخف هذا سيدهم لا يستطيعون معارضته • اجتماعى بالعمدة على طعام : فلما جاء الليل جلس والده على العمدة على دكته وجاء الأعيان من أهله جلوسا أمامه وأخذوا فى الحديث وأنا وحسن على مسطبة الجامع حيث صلينا المغرب حتى وضع الخادم لأبيه الطعام كعادته ثم نادانى : بابكر تعال . فقمت له فوضع لى كرسيا وقال

لى أجلس وتعش فجلست وأكلت مع والده الذى لا يخاطبنى كأنه لم يشعر بوجودى . فلما رفع يده من الطعام نهضت قائما وبودى لو طال الزمن فلم يلتفت الى واستمر على هذه الحالة يومين آكل معه الثلاث وجبات وفى عشاء اليوم الثالث حينما أكلنا قليلا وكان سيدى موسى أبو محمد على ضمن الجالسين أمامه . وفى هذه الليلة التفت الى العمدة قائلا من هذا : قلت بابكر . قال : بابكر مين ؟ وين دا قلت : من جماعة ود النجومى قال من جاء بك هنا فاضطربت وتمنيت أنى بقيت فى جوعى ذاك فقلت فى صوت خافت جاء بى حسن وقال مفتخرا حسن ولدى قلت نعم ثم التفت الى حسن وقال من جاء بهذا يا حسن ؟ قال : جئت به أنا . لأى شىء ؟ قال : ليأكل معاك . قال وهو رافع رأسه ورفع يده أنا يا حسن عبد الرحيم دبلون ما يأكل عمّاى «أى معه» وطه أبو محمود ما يأكل عماى وأبو سيف أبو حاج ما يأكل عماى وموسى أبو محمد على ما يأكل عماى ـ ياكل عماى بابكر بدليقيناته ديل « هذه » قال حسن « نعم » صفق بديه على بعضها وقال « حى حى » أنا عندى بئر حلوه ـ عذبة ـ وعندى ولد صالح ثم التفت الى وقال يا بابكر حسن مو صالح شى اذا كان حسن ما صالح (الزيك أنت) أى الذى مثلك يقبله أحد بدليقيناته ديل وبعد ما رفع يده من الأكل فنهضت كعادتى . نادى قائلا : يا نسيم هات لبابكر سمن يشربه المتل بابكر ده لا يشبع بس يستحى جيب له سمن فجاءنى بفنجان شاى ملآن بالسمن فشربته فصار راتبا لى كل ليلة حتى قنعت معدتى من كثرة الأكل وصارت اعتيادية أوقفته برفضى له . صار يقول لى كل يا بابكر لا بارك الله فى بيت لا يأكلك ولا فى خير ما يسعك أنت يا بابكر لا يأكلونك لأنك ود ناس تكافىء ولا يؤكلونك لله ولا يؤكلونك لأنك تمدح فى المجالس كل يا بابكر قال يا بابكر الكباب عندكم فى (موجود) قلت لا وعدد أطعمة العشاء فجاء فى بالى أنه يريد موسى أبا محمد على الذى عجز أن يطعمنى البتاوه بعيدا عنه فهو ذا يطعمنى من هذه الأطعمة على مائدته وصدق ظنى وصرت آكل معه كل الوجبات واذا أردت أن أتحلل منه يزيدنى تأكيدا بالاستمرار فى الأكل معه ولم يجرأ موسى ولا ابن أخيه على التكلم معى ولا مع غيرى بخصوصى .

ففى يوم الثلاثاء الذى هو يوم السوق الجامع قال لى حسن نمشى السوق

معا ، وفى الطريق قال لى معنى كلام والدى عنك بدليقينـــاته ديل ـ يعنى بدلقوناته هذه يقصد انى أكسوك فلما وصلنا السوق اشترى لى لباسا وقميصا عربيا أى قميصا مفتوحا كبيرا يلبس فوق العراقى الذى يلى الجســد وهم يسمون القميص الكبير العرى وثوبا ومركوبا وعمامة . وبعد أيام مشيت لمنزل على أبى محمود وكانت معه حماته بمنزل واحد ولما زرتها وهى تسمى رنى فلما رأتنى اندهشت وقالت لى من كساك هذه الملابس ياابابكر قلت كسانيها حسن ولد على أبى حاج قالت حسن صالح اذا كنت للان مع موسى يكســـوك ؟ ما يكسيك شى (شيئا) ثم قالت مدينـــة أم موسى وركابى أبو موسى وعلى أبو موسى وسيده أم موسى وخـديجه أم موسى تعنى أولادها ، قلت أعرفهم جيدا قالت موسى يرجع لبيته الكبير وأنا أعطيك نصف بينتــو قلت الأحسن يا عمتى رنى ان تتصارح يا عمتى رنى أنا لا أعرف الكتابة من هذا النوع اذا كنت أعرفها كنت أكتب موسى لنفسى وانت ما عندك نصف بينتو تعطينى اياه اذا كان عندك تكسى بيه بناتك رحاطه وانصرفت عنها فذاعت هـذه الحكاية فى نجع العرب وشهرتنى عند من أعرفهم وصاروا يأتونى أو يلقونى فى الطريق فيسألونى عنها مع انى لم أخبر بها أحدا ولا كانت لها عندى قيمة . صرت أركب مع الشيخ حسن وأجلس معه فنقرأ فى الكتب دخل العمـــده على أبو حاج فوجدنى جمعت بعر حصانه فى طبق لأضعه على شونة الزبالة فقبض على الطبق بيديه وقال لى مغضبا لاه لاه (لأى سبب) تحرق يا با بكر بيتى بالنار انت تحفظ القرآن وتعرف العلم وتنقل بعر حصانى واستلم منى الطبق وشتت البعر بيديه كما كان ثم غسل يديه ، جاءنى مرة ابنه محمد الكبـير سحرا وقال لى أمش مع جماعتنا لتقلعوا مركب الجزيرة التى غرقت فقمت ووقفت مع الجماعة استعدادا للمشى فجاء حسن ووجدنى واقف معهم قال لى : لماذا واقف هنا ؟ قلت لأمشى مع الجماعة لقلع المركب . قال : ومن أمرك بهذا ؟ قلت محمد أخوك فدخل على والده وأخبره فجاء العمدة يجر توبه ووجد محمدا واقفا فقـال له مغضبا : أنت قلت نى بابكر أقلع المركب مع أولاد حجازى فقال : وماله ، فقال له العمدة : مله فى جنبك بابكر يدنقركـه (وهو يشخص تماما) ويقـلع المركب مع أولاد حجازى ، بابكر اذا أهله يقلعونه المركب حفظ القرآن وهوكه

وحفظ العلم وهوكه (هكذا بهـذا الحجم) اشـارة الى أنى حفظت القرآن صغيرا • ثم قال يا محمد ماك مبسوط من بابكر وقراءته عم حسن (أى مع حسن) وركوبه عم حسن ومن صـلاته عم حسن ثم التفت الى وقال أمش الجامع فذهب محمد بباقى جماعته ولم يطلب منى بعدها أى خدمة • رأيت رجلا رث الثياب المقطعة جاء من السودان وأظنه من المحس فوجد العمـدة جالسا على مصطبته فقال له : أنا عريان والوقت برد والناس كلهم يقولون لى من حلفا اذا وصلت عمدة دراو يكسوك ، فجئتك لكسوتى الله يطول عمرك ، فرأيت العمدة ارتجف أريحية وقال له : من حلفا الناس تقول لك عمدة دراو يكسيك ؟ قال الرجل : نعم والله فقلع ظعبوطه الذى لا يقل ثمنه عن خمسـة جنيهات وأعطاه اياه فدعا له ومشى به فسمع ولده محمد بهذا فأعطى الرجـل ظعبوتا من نسج وصوف دراو وقيمته جنيه وأخذ منـه ظعبوت والده فرجع الرجل للعمدة وأخبره بما حصل فى الحال . فطلب العمدة ولده محمد وقال له : يا محمد كان أبى يعطى وأنا أسرق وأعطى مثله انت يا محمد أنا أعطى وأنت تقلع (ترد) يا محمـد ظعبيتى ما مالكنه عمـاك (ظعبوتى الذى على جسمى لا آملكه معك) يا محمد خلينى أموت واستلم كل شىء هات الظعبوت فجاء به ضمه للظعبوت الرخيص الذى سلمه اياه الرجل ومدهما الاثنين وقال لمحمد امش اشتر زعبوط لرقبتك وظعبوط لبيك (لأبيك) بالتصغير فأخذ الرجـل الظعبوطين وذهب لطريقه .

حصلت بين ابراهيم السلواوى ومحمود بك حسين باشا خليفه قضية فى طين ربحها محمود بك بعد زمن كبير ومصاريف باهظة من الاثنين فاجتمع كبار نجع العرب فى ندوتهم وقروا أن ينتصروا لابن عمهم ابراهيم السلواوى بأن يدعوا أرض الغابه التى يسكنها أولاد حسين باشا بأنهـا ملكهم من آبائهم ويطلبون من الحكومة ردها لهم وطلبوا من العمدة موافقتهم على ذلك فقال لهم اكتبوا الطلب لا سمع حجتكم فيه فعينوا الشيخ محمـد على الأزهرى ليكتبه فلما قرأه الكاتب للعمدة قام العمدة وصعد على سـلالم فى الندوه معدوده للخطابة فقال أحى يا دراو فيك الاجمل واحد والباقى نياق (دالوكت) ـ أى ذا الحين ـ كتبتم للحكومة تعطيكم الغابة لأنها ملك آبائكم وأجدادكم

طلبكم هذا منقوض من وجوه الأول انكم بطلبكم هـــذا نقضتم تصرفات آبائكم وأجدادكم فتفضحون عند القبائل هذا اذا نجح طلبكم ـ ثانيـا انهم مكثوا أكبر مدة يعتبرها القانون للتمليك ـ ثالثا ـ لو سلمنا جدلا ان الحكومة حكمت لكم فهل تقول للعبابدة الساكين نحو مائة سنه خـــدوا أشـــياءكم (أنقاضكم) وقوموا والا مع المجاملة لكم تقول أعطوهم خســـائرهم فمن يشترى منزل محمود بك يشتريه موسى أبو محمد على ياكل فيه البطيخ قرداحا

أنا عندى لكم رأى أحسن من رأيكم وهو ان تدفعوا ثمن الأرض وعلى ان أراضى محمود بك يأخذ القيمة ويعطى ابراهيم الأرض فانفضوا عندما سمعوا دفع القيمة . هذا رأى رجل أمى لا يحسن الكتابة ولا القراءة • كان العمدة المتولى تطهير الترعة • ففى سنة سبعة عربى كان المأمور على شـوقى بدراو فاتفق مع أحمد بك خليفه أن يتولى تطهير الترعة فلما بلغ العمـدة ذلك ركب حصانه وسار وسار للترعة فأخرج الناس من العمل فى التطهير وقال لهم انزلوا الغيط فلما سمع أحمد بك أخبر على شوقى فأخبر ماهر بك المحافظ بأسوان فجاء ماهر بك وطلب العمدة بالضابطية وسأله لماذا منع الناس من تطهير الترعة بواسطة أحمد بك مندوب الحكومة فقال له انى أرى العمدة هـــو المسئول للحكومة عن الجماعات والامن والأمراض الوبائية والذى يعرف رعيته المحتاج منهم والمريض هو الذى يباشر عملية تطهير الترعة وكل عمل تحتاجه الحكومة وعلى كل حال أنا لى رأى فى عملية التطهير وهو ان تجعل على كل فدان قرشين يدفعها كل صاحب فدان يروى بالترعة ويجعل للناس أجرة يومية قدرها سبعة قروش صاغ يأتى الرجل طائعا مختارا فى وقت فراغه من عمل فى زرعه ومعـه أدوات الحفر والغرف ويرجع ليلا لأولاده حاملا لهم مؤونة يومهم والمنتفعون بالماء يدفعون النقود مقابل نفعهم اما طريقة السخرة بالنوبة فلا تخلو من نوع من الظلم حتى بواسطتى اما أحمد بك فلا يعرف فى الناس الذين يطهرون الترعة فكيف ينظم نوباتهم وان ادعى معرفتهم فليذكر عشرة من الذين حفروا بالأمس وهم كثيرون فوافق ماهر بك على هذه الفكرة وكتب بها للداخلية وصودق عليها وجرى بها العمل حتى توفى العمدة سنة ١٣٠٩ هـ .

غزا الأمير الحسن سعد العبادى أرض العبابدة فهربوا للنيل وكثير منهم

جاءوا لبلدة دراو وكان أكثرهم يأتى لخيمة العمدة على ليقسم لهم البتاو والبطيخ للعشاء فكثر الموت فيهم والحكومة ألزمت أحمد بك بدفن من يموت منهم على أن تصرف لهم الكفن فلما تعب طلب من على أفندى أن يمشى معه للعمدة للتضرر فى وجود العبابدة بدراو ويطلب ترحيلهم لمكان أوسع فزار أحمد بك والمأمور العمدة بمنزله وبعد القهوة خرج معهم وكان المأمور والعمدة متماسكين اليدين فقال المأمور للعمدة ماسألتنا عن سبب مجيئنا لك فقال جئتما زائرين ؟ قال نعم ولكن عندنا غرض بسيط عندك قال له :غرضكما مقضى قال أن تكتب للمدير وتطلب منه ترحيل العبابده لمكان أوسع من « دراو » لأن المصابين منهم وكثرة الموتى تسبب العدوة للوطنيين . فنفض العمدة يده من المأمور وضرب بها على صدره وقال له أنا جعفرى يا شوقى أفندى ورجع منهما فسأل شوقى أحمد بك ما معنى أنا جعفرى ؟ فسرها له بأنى لا أطرد ضيفى مثلك أنت فاعتبر على شوقى هذه اهانة له وقدمها لماهر بك الذى حضر وطلب معرفين يفسرون هذه الجملة فلما ادعى على شوقى أمام الحاضرين قال العمدة أمانة فى ذمتكم يا أيها الحضور أنا مانى جعفرى ؟ شى قالوا جعفرى تمام فقال على شوقى تقصد أنا لا أطرد ضيوفى مثلك . قال له سمعتها منى قال : لا ولكن فسرها لى أحمد بك وقال تقصدنى أنا يا رجل يا أهبل فقال له العمدة نحن شياب تتنابز متل النسوان فلنفخر كالعرب قوم أذكر محاسنك فقال بعض الجالسين للعمدة قم انت يا شيخ العرب فقام فكفكف يدى قميصه وأخذ عصاه فبرمها وخطا خطوات وقال : انت متلى أنا يا أحمد بيك طابنتى تحمى . وقدرى يهدر والذى يجىء فى بيتى أقل ما يجد طبيخ بى رغيف العبابده الذين تطلب منى طردهم أهلى ولا أهلك أنا أعطيتهم الأكل انت عاجز من دفن الميت الذى تصرف لك الحكومة كفنه انت مثلى أنا يا أحمد بك جدك الحاج محمد لما كتل الرقبة فى العبابدة وهرب للنيل جى لى جدى عيسى أعطاه أرض الشطب عمل فيها بيوته ولما نزلت بهايمه لكوم أمبو الجعافرة قطعوا أذانها وأذنابها فشكا لجدى عيسى وأعطاه عيسى فدانا يرعى فيه بهائمه لا ضلكانى فدان الحاج محمد قبليه لكم طين غربيه لكم طين بحريه لكم طين شرقيه لكم طين جاء جدك خليفة لعمى بدوى أعطاه أرض الغابة بنى الصفين فيها ثم سكت . وقد كان

الناس معجبون بفخره ثم قال يا أحمد بك قم وأفخر فقال لا أفخر مع أهبل مثلك فضحك الناس وانفض المجلس وضحك ماهر بك من فخره وكان دائما يبدأ فخره بقوله : أنا بحاج أنا عمدة « دراو » وأنا سيد البلد أقلبه جاى واقلبه جاى ويقلب يديه .

سبق أن قدمت شيئا عن حسن على بحـــاج . استمرينا فى الاخاء حتى وصلنا لدرجة رفع الكلفة وصدق الألفة ولكنى لا يمكن أن يخلو ضميرى من وخزة فقدان شقيقاتى وأمى . ففى ذات يوم عنده ضيوف فلمـا جاء الغـذاء وكشف غطاءه فاحت منه رائحة بخار الديك الرومى فغلبتنى دموعى حينمـا ذكرت أنى آكل مثل هذه الطيبات من الطعام وأمى مجهولة الحال فعطى الخادم الأكل وأزيح من مكانه فخجلت ووبخت نفسى على سـوء معاملتى لمن أحسن الىَّ ثم توضأت وصليت ركعتين وتكلفت البسط ودخلت عليهم فقدموا الطعام وبعد انصراف الضيوف رفع حسن يديه وقرأ الفاتحة وقال انشـاء الله بركة الشيخ اسماعيل النقشبندى فى هذا اليــوم تجد خبرا عن أمك . فأمنت على دعائه وتوجهنا للسوق ففى طرف السوق لقيت رجلا يدعى عبد الحليم خيرى من الأسرى ولكنه بفمه تنباك فسلمت عليه سلام جفاء ثم قال لى لقيت خبر أمك وأخواتك قلت لا قال هن ببلده اشكيت عند العمده دهب فأقبلت عليه بغير ذلك الوجه ورأيته فى غير تلك الصورة ووددت لو قبلت فمه بتنباكه فلما سمع حسن بكلامه كتب جوابا للعمده دهب وأرسل داخل الجواب بنكنوت جنيه مصرى وطلب منه ارسالهن بمركبه وحينما تقوم بهن المركب يكتب جوابا بالبوستة ولكن دهب حول الجنيه راجعا وقال صحيحا كان هؤلاء النسـوة عندنا ولكنهن بارحننا منـذ شهر ولم نعرف لهن خبرا فرجعنا لارتباكنا لكن لدرجة أخف لضماننا حياتهن وكونهن فى القطر المصرى ومطلوقات التصرف .

وفى شهر ربيع الأول مشينا السوق نشترى بهائم المولد لقينا ابراهيم عوض الكريم القرشى جاء من حلفا فأخبرنى ان والدتى واخواتى بالتوفيقيـة بحلفا فكتب حسن لصالح منقاش وأنا كتبت لمالك العربى وأرسلت له نسخةمن قصيدة مدحت بها الزبير باشا وعبد الله بك حمزة ومحمد صالح ثروة وصالح منقاش فعرضها على صالح منقاش وهؤلاء الأربعة هم الذين خدموا الأسرى

من أغنياء السودانيين بمصر فأسرع صالح بارسالهن بمركب ورد هو ومالك الجواب بقيام المركب فأصبحت فى الانتظار على مثل جمر الغضا • وذات يوم سافر العمدة لأسوان ولما رجع أخذت الحمار وقابلته فى المشرع فقال لى أين جماعتنا قلت كلهم فى الخارج للزرع فأركبنى خلفه ثم التفت على وقال لى جيئتنى بالحمار قلت نعم قال أنا جئت لك بخبر ناس أمك فاضطربت من الفرح واستمر قائلا جاءتنى أختك الكبيرة ومعها ابنة عمك وأخبرتانى أن أمك وباقى العائلة فى بيت بعيد لا يمكن لحاقهن والوابور يصفر للقيام فطلبت أولاد حجازى وأكدت عليهم بأخذهن بمركبهم بحيث يصلن دراو قبل شروق الشمس والا أقصم ظهركم فأن شاء الله يصلن فى الميعاد فلما وصلت البيت أخبرت حسنا فسر جدا وقام سحرا كعادته فلما صلينا الصبح أعطانى حمارته وقال لى امش البحر اذا وجدتهن فالحمد لله والا أصلهن بأسوان وشهلهن بمعرفتك فلما وصلت السوق رأيت السهوه أختى الكبرى التى لم أعرفها لولا انى رأيت أمى تقودها الحسنى وبقية أخواتى لأنها تغيرت كثيرا من التعب اذ صارت رقيقة سوداء انطمست شلوخها فدهشت وصمت ولم أدر ذلك الصمت أمن السرور أم بهتنا أم لما رأيته من اثر التعب عليهن حتى وصلنا البيت فوجدنا حسنا أخرج والدته من بيتها وأدخلهن فيه وأحضر أردب غلال وخروفين بارك الله فيه حيا ورحمه رحمة واسعة ميتا .

وردت مرة للجروف فلما رجعنا رأيت منصور الجميلابى ومعه جماعة من أهله وهم من قبيلة الرباطاب فنزلت وسلمت عليه فلما وصلت حسنا سألنى : هؤلاء من أهلك قلت لا فتأخر عنى كأنه يقضى حاجة الانسان مائلا عن الطريق حتى وصله منصور ومن معه فسألهم عنى فقالوا له قريبنا فقال : ما جنسكم ؟ قالوا رباطاب ، فجائنى وسألنى عن جنسى ولم يسألنى قبل منه فقلت له رباطابى . فعاتبنى على نكرانى لمعرفة منصور ومن معه وصار يسير على سيرهم حتى وصلوا بيت والده فأدخلهم وأكرمهم مدة اقامتهم •

واجتمعت مرة بفاطمة بنت منصور المشهورة بالنية • أمها رباطابيه وأبوها أصوانى ومعها بتول زوجة المرحوم التوم أخو النية فصرت أزورهن حيث لا يوجد فى نجع العرب من الأسرى غيرى وهما . ولا أزورهما الا بعد المغرب

لكثرة ملازمتى لحسن ولما أخرج عنهمـــا يقدمانى حتى الى خارج الحوش ويرجعن فجئتهما مرة كعادتى ولما قمت قامت معى النية وحدها فلما جئنـــا فى الدهليز المظلم ارتجفت وقبلتنى فضربتها بكل كفى ضربة مؤلمة فمسكت رأسها وجلست فى الأرض وسرت فى طريقى وانقطعت منهما زمنا طويلا ثم عاودتهما فلم أجد للحادثة أثر عندهما ولا عندى والحمد لله .

رأيت والدتى تحتاج الى ثوب فذهبت للشيخ حسين أبى أحمد التاجر بدراو فطلبت منه أربعة عشر ذراعا ولايه بالقيمة أقسطها له لأنى أصبحت مرة خياطا ومرة جلادا فذرع لى الأربعة عشر ذراعا طبقها ورماها لى وقال أعطيكها لوجه الله رددتها عليه وقلت لا أقبلها صدقة ومشيت منه فأرسل خلفى وبحكم الضرورة رجعت له فقال خذها وقسط ثمنها كمــــا تحب فقلت فى كل سوق أسبوعى أدفع قرشين قال : جميل فدفعت له الثمن كالاتفاق فله الشكر .

أرسل لى عبد الله بك حمـزة خطـابا من الرمادى لأنتقـل له بعائلتى بالرمادى وكنت لى علاقات بدراو حيث انى أصبحت كصناعى أطلب وأطالب فما رددت عليه ثم انه خاطبنى ثانية بنفسه وأمر من يعرفنى أو من ارحامى ممن معه فى كنفه أن يكتبوا لى فاقتنعت بالتوجه له خصوصا انى وجدت فى نفسى ميل عظيم تجدد عندى بعد اجتمـــاعى بأمى وشقيقاتى بالنزوع الروحى الى مراجعة زوجتى التى أحبها والتى أخذت من بين فكى وخصوصا بعد ماعلمت ان أمها توفيت حيث ما بقى لى من السعى اليها الا أن أطمئن على من معى فى معيشتهن وصيانتهن وما دام الفقيه محمد المدنى وبابكر كرم الله وغيرهما من الرباطاب وكثيرا غيرهم من الأسرى الذين أعرفهم وآمنهم هناك فلا مانع ان أتساهل فيما أطلبه من غيرى من نقود وأضحى بما عندى لأدفع ما على وأنتقل الى الرمادى هذا هو الرأى الدافع الى الانتقال يقابله الرأى المانع وهـو انى قد عرفت بدراو ووجدت كنف العمدة القادر المخلص لى وصداقة حسن ولده الذى لا يبخل على بماله ولا بباله ودراو بها سوق كبير فى الأسبوع وصغير فى كل باقى الأيام وبها تجار مثرين من مهاجرى دنقلا أمثال منزلاوى يمكننى بسهولة بعد سنة أو سنتين أن أنتقل من الصناعة الى التجارة خصـوصا وان دراو بها العبابده المتصلون بالسودان وبقاؤنا يجعل لنا فرصة معرفة أخبـار

أهلنا وهى ثغر سهل الوصول للسودان اذا أمكننا ذلك . انا فى الترجيح بين الرأيين اذا عبد الله بك يرسل لنا ولده حمزه بنفسه لينقلنا بمركبه التى ذاهبة الى أسوان لترحيل محصول وبيعه وبرجوعه يأخذنا بالمركب فوافقته وكان معى بدراو (بالغابة) رحمة الله وأبشر ولدا الياس عمر الرباطابى وحضر لهما الفقيه محمد المدنى صهرهما وابن عمهما وشقيق زوجته وشجعنى على النزول للرمادى ولكنى أخذت بالحزم مشيت أنا والسهوه أختى قبل مجىء حمزة لأنظر أنا حالة الرجال وسبل المعيشة غير الاتكالية على عبد الله بك فى المستقبل قريبا أو بعيدا لأن دوام الحال من المحال . فرأيت اما أن تأنف نفسى من كلمة أسمعها أو حالة أراها فأرفض دمجى فيه واما أن يمل هو استمرار الصرف على الناس الذين لا علاقة لهم به الا الوطنية الواسعة . أخذت السهوة فبتنا يومنا ذاك بحلة سلوة عند رجل رباطابى يدعى أحمد عبد الله مولود هناك وله أولاد وخيمة ضيوف عرفنا أحد أولاده فلما أخبره جاءنا وبعد التحية سألنا عن بلدنا وجنسنا وعرفنا فى الحال انه رباطابى سنجرابى وسنجر كما يقول النسابون هو أكبر أولاد رباط وله قصة طويلة يرونها ويزعمون ان له أولاد فى ادفو . ✻

أخذنى الرجل وأدخلنى فى بيته مع أولاده وأختى مع بناته فلما جاء العشاء أمسك بصحن اللحم فى حجره وترك الطبلية فلما فرغنا من أكل الطعام أخذ يقسم اللحم بيده ويمد لكل واحد نصيبه ومد لى بأكبر نصيب ولما كنت ما رأيت هذه العادة الا عند شيخنا الفقيه أحمد الكراس وكنت أراها هى الوحيدة التى تعلم الدناءة من معاملاته لنا وأنا طفل ، رفضت أخذ نصيبى من اللحم منه فألح ما ألح على وشرح وحسن ما حسن ولكن نفسى لم تقبل أكله بل أخذته منه لحرمته على ووضعته فى مكانه فضحك وتركنى .

قمنا صباحا من سلوة وعبرنا النهر ومشينا فوصلنا الرمادى نحو الساعة ٣ بعد الظهر فدخلت السهوه على نساء الأسرى ودخلت أنا على عبد الله بك حمزة بوكالته حيث وجدت معه جماعة ممن يميزهم من الأسرى ومن أهل الرمادى ومنهم الأمين ولد العمدة أبو مشالى فلما فرغنا من التحية والتعارف أخذ عبد الله بك يسألنى عن أثمان بعض البضائع بدراو فأرد عليه بما أعلم وبالسكوت عما أجهل فاقتحمنى الأمين أبو مشالى بسؤال عن النساء فقلت

لا أعلمه فقال اطلب أختك يمكن تعرفه ولم يرد عليه عمي عبـد الله بك الذى كنت أنتظر أن يرد عليه فلما كرر لى السؤال قلت له : نحن اخواتنا لا يعرفن مثلما نعرف فضلا عما نجهـل ، بل أخواتكم هن اللاتى يعرفن ما تعرفون وما تجهلون . فقال لى اطلبها نسألها فقلت اطلبوها فأن جاءتكم فهى كمـا تقول فارسل لها عمي عبد الله بك خادمة له فلم تأت ثم أرجعها لها فلم تأت فأرجعها ثالثة فرجعت الخادمة ثالثة قائلة له ان المرأة أخذت مقطفها على رأسها وخرجت من البيت وقالت لى قولى لأخي يلحقني بالطريق فانى راجعة لدراو فضحك عمى عبد الله بك وقال للامين هذه نساء السودان الحرات وأرسل لها بابكر كرم الله الذى كان من الجالسين وهو ابن عمنا فأرجعها بعد أخذ ورد فبتنا ليلتنا وفى الصباح رجعنا (ولا أكتمك يا قارىء انى ما كنت أتى الرمادى لولا أملى القوى وغرضى الملح فى مراجعة زوجتى) وصلنا دراو بعد فتور شديد .

وجدت صعوبة فى اقناع السهوه بالمشى للرمادى وبعد أيام جاءنا حمزة وأخذنا بالمركب حيث تركنا غالب أهل دراو آسفون لفراقنا خصوصا حسن الصالح ووالدته مدينة ، وصلنا الرمادى فى أوائل شعبان ، وعبد الله بك لم يطالب الأسرى بخدمة قط ، يصرف لكل شخص كبير كان أو طفلا (ولو وضع بيومه) ثلاثة أرباع مصرية أو ٣٧٫٥ رطلا فى الشهر وهذا يكفى ويصرف لعائلته الكبيرة وخيوله الكثيرة ، فمحصوله من ساقيته وأطيـانه لا يكفى بل يشترى مؤونته السنوية من كل نوع فى موسم حصاده أو كساده ويحفظها فى مخازن وكالته المعدة لحفظ تجارته ومؤونته .

حادثة : كنت أقرأ له فى مقدمة ابن خلدون التى كان يحبها كثيرا كمـا انه كان يحسن معاملتى حتى يهذر معى أحيانا وأرد عليه بجرأة فلا يغضب حالا ولا يترك هذارى مالا . فى مرة كنت أقرأ له وضممت الكتاب لأقوم فأشرب من الزير فقال لى اشرب من قللى فى الصينية ولا تقطع القراءة فرفعت قلة لأشرب منها فقال اشرب من الثانية الوسطى فشربت منها شرابا أشبه بالسوبيات فاذا هو العسلية فلما رجعت أحسست بدبيب خدر فى رأسى وزوغان فى عينى حتى صرت أقرأ سطرا وأترك سطرا فلما ضحـك عمى عرفت ما مكره بى فتركت الكتاب وخرجت فلما وصلت الشارع الموصل بين الوكالة وبيتنا صرت كلمـا

رأيت أحدا وان كنت أميز شخصه لكننى أراه صغيرا جدا فى عينى وان نفسى تحدثنى أنى اذا أمسكته يمكننى أن أكسره فلما وصلت والدتى قلت أنا سكران فخرجت وقالت الله يكفينا شر السلب بعد العطاء قلت اتركونى أنام ولا توقظونى للغداء فنمت الى العصر فصحوت عاقلا صباحا فلما رآنى ضحك منى وقال لى (ماعنوك ضيق) أى ماشربته غير مسكر . وفى يوم أمر مكى البريابى الذى انتخبه من الأسرى لتأديب خيله أو ترويضها فبدأ بركوب مهر فطرده مكى فلما سمع العم غضب وقال له لا تطرد الخيل فتتعبها كما انتخب الفقيه ولد المجذوب ليدرس أولاده القرآن

ففى يوم ضرب ولده آدم فطلبه وقال له لا تضرب الأولاد وتنفرهم فقلت له يا عمى عبد الله بك انت عجيب خليك تؤدب بلا طرد وولدك يعلم بلا ضرب فضحك جدا وقال للفقيه اضربهم وقال لمكى اطرد الخيل ثم التفت الى وقال لى انت حكيم . فى مرة أراد أن يعمل بساقيته سياجا بناء مؤقت من اللبن وكتل التراب القديمة ولم يجد العمال لبنائه فقررنا نحن الأسرى وأولاده القيام ببنائه بواسطتنا فكان معى الفقيه محمد المدنى وولده ابكر ــ محمد يأتى باللبن والكتل وابكر يعمل الطين وأنا ابنى فجاء ينظر عملنا وهدم مابنيته ووقف كالمغتضب والمتحير فلما جاء المدنى باللبن ووجد البناء مهدوما قال بحده من هدم هذا رد عليه عمى عبد الله بك بقوله : أنا هدمته فقال محمد لماذا ؟ فقال له من بناه قال بناه بابكر قال العم ليه يبنيه معوجا ؟ رد عليه هل كان عند أهله بناء ؟ قال العم : كان ملكا . قال محمد الانسان اما أن يكون ملكا واما أن يكون بناء . الا توجد درجة وسط يعيش فيها ؟ فضحك العم حتى جلس على الأرض وقال لى : ابن يا سيدى فاعدنا البناء ورجع العم عبد الله عن باقى مروره حتى أتممنا السياج لم يعد اليه .

بعد أن اطمأننت على أهلى عزمت على السفر مصرا بناء على آخر جواب مؤرخ يوم ٤ شعبان بخط أحمد عثمان يقول لى فيه احضر لترجع زوجتك وبرجوعك نصحبك أنا والحسن أخى لأتزوج أنا أم طبول ويتزوج الحسن الحسنى اختيك ونعيش معا كما كنا ويخبرنى ان المدنى مصطفى زوج أختى الكبرى وعمى محمد أحمد شكاك معهم بمصر وان والدتهم توفيت فكل هذه

العوامل الدافعة عجلت بى للقيام ومن المشجع ان مركب عبد الله بك قائمة لمصر ورافقنى فيها عمى حجازى وأبو شمه صديق عمى على شكاك حينما كان عاملا بالمسلمية فنزلنا على بركة الله ونيتى نسيت ما وراءها وتوجهت لمن هو أمامها واشتدت بى الصبابة والحلم الحلو والأمل المسلى فصرت أتمثل مجنون ليلى وما نسب اليه حتى قلت قصيدة على روى يائيته أذكر منها :

تذكرت أياما لنا ولياليا ... مضت بهناء وسرور تواليا
وحين عيون الحاسدين غوامض ... تلهت بما قد كان فيه تلاهيا
الى الله أشكو ما ألاقى من النوى ... بفقد حبيب كان للود راعيا

ومنها : ــ

وجودى يا بقيع بزورة ... لتشفى مسقوما له فقدكم اعيا
وان الذى أرجوه يا سيدة النسا ... بأن توصلى حبلى وان كان واهيا
ولا تعتبى ستى بما قد جنيته ... فقد قل مادام الوداد تصافيا

ومنها : ــ

فيارب سو الحب شطرين بيننا ... لتصلى بنار الحب كى تدرى ما بيا
ويارب يبقى العمر ماقد كتبته ... وعند (بقيع عثمان) تبقى وفاتيا

ولكن انقلب الحب الحلو مرا وخاب الأمل فانقلب بعد التسلية حزنا حينما وصلنا أسيوط ولقين بها من الأسرى من أخبرنى أن البقيع تزوجها الزبير باشا نفسه فى يوم ٢٧ رجب أى قبل تاريخ خطابهما لى بسبعة أيام فأشار على رفيقاى بالرجوع للرمادى ولكننى رأيت هذا اظهار للجزع وفواتا لاداء واجب العزم .

فصممت على وصولى القاهرة وعالجت نفسى فى الطريق حتى سليتها تماما ووصلت القاهرة بحالة هادئة وفكرة واعية والفضل فى ذلك لتربية المهدى « عم » الذى كان يفسر قوله تعالى « لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتيكم » بقول يدخل فى القلوب فتضمه بصمامتها قبل أن يدخل فى الاذان فلما دخلنا مصر أشار عمر حجازى بأن ننزل عند حميد باشا وكيل دائرة حيدر باشا فرفضت أن أنزل فى غير بيت الزبير باشا لأن نزولى عند غيره من مظاهر

الحزن والجزع اللذين لا أحب حينذاك أن يرى أحدهما على فيزداد الشامت شمتا وقرأت بيت الهزلى :

وتجلدى للشامتين أريهم انى لريب الدهر لا أتضعضع

دخلنا منزل الزبير باشا وقابلناه نحو الساعة ٥ مساء فرحب بنا وأولانى بعض العناية الخاصة ثم خرجنا حيث صلينا المغـرب فى جامع السـيدة زينب ورجعنا وصرت أصلى الأوقات فى الجامع كلها . وفى اليوم الرابع صليت الصبح فلقينى الزبير باشا عند باب الجامع خرجنا معا وهـو لابس بنطلون وكبوت ومكاويه على رأسه بعمامتها وبيده سوط يضرب به رجله ويده اليسرى ممسكة بيدى اليمنى حتى دخلنـا بيته حيث وجـدنا بعض من الأسرى نائمين فى غرفة خارجية فصار الباشا يضربهم بالسوط فهبوا كالحيران ولما رأوا الباشا خرجوا من الغرف فجلس فى برندة سرايه وطلبهم فاجتمعوا حوله وأنا معهم فقـال لهم موبخا الزبير باشا عمل لكم المصاريف حتى الفحم وأجر لكم بيـوتا بالجيزة بعائلاتكم . الزبير باشا الى متى هو حى لكم ياناس كفيتكم هم المعيشـة ما تشبعوا لى بنات عمى (نيك) يا ناس ما تسعون فى حرف تعيشون منها فرد عليه بابكر كرم الله عبد الله فقال يا سعادة الباشا الحرف فى مصر كلها تحتـاج الى مفتاحا وضمانا ورأس مال كل هذا ما عندنا ؟ فكان رد الباشا عليـه : أنا عارف لكم حرفة لا تطلب واحدة من هذه فقالوا ماهى يا سعادة الباشا ؟ قال : الواحد منكم يمشى حارة اليهود يوم السبت ينيكوه ويعطونه قرشين فخرجت م ن بينهم وهم يضحكون مما قال وتفرقوا فخرجوا الساعة ٨ صباحا فى هـذا اليوم طلبنى وهو فى غرفة الجلوس بسرايه فوجدته جالسـا على كرسى له عجلات اذا اتكأ عليه يجرى فى البلاط فأشار على بالجلوس على كرسى مقابل له فجلست وبدأت بيننا هذه المحاورة : ــ

ز ــ لأى سبب جئت لمصر ؟

ب ــ انت يا سعادة الباشا الناس يتزودون ويخاطرون فى المخاوف ليروك وأنت فى السودان فلما كتب علينا أن نسكن القطر المصرى لمدة لا نعلمها جئت لأراك وتعرفنى بشخصى واسمى حتى اذا ما داهمنى ما أحتاج لمساعدتك فيـه

كتبت لسعادتك كتاب من تعرفه .

ز : ثم ما السبب ؟

ب : أولاد عثمان أولاد خالي واخواني ووالدتهم توفيت جئت أعزيهم .

ز : ثم ماذا ؟

ب : المدني ابن عمي وصهري وزوجته وأولاده معي ومحمد أحمـــد شكاك عمي جئت أبحث عنهما .

ز : ثم ماذا ؟

ب : جئت أزور السيد الحسين وآله .

ز : ثم ماذا ؟

ب : لا شيء .

ز : انتصب بعد اتكاءة خفيفة ثم قال لي ان المرأة التي تزوجتها أنا قالوا امرأتك .

ب : بل مطلقتي .

ز : لا امرأتك .

ب : سبحان الله يا سعادة الباشا أنا الزوج الأول أعترف بالطلاق وأنت الزوج الثاني تدعي ضده فهذا معكوس .

ز : اسمع يا بابكر انت قلت جئت لكل من ذكرت والحقيقة انت جئت لامرأتك أو لرجوع مطلقتك .

ب : من أين أخذت هذا يا سعادة الباشا ؟

ز : أنا رأيت كتابتك التي جاءت منك بالرغبة ورأيت الجـوابات التي راحت لك بالاجابة .

ب : لما رأيت كل هذا لماذا تزوجتها ؟

ز : متهيجا يا ولد ضحوي يا رضوان يا ود المجذوب تعالوا اسمعوا هذا الكلام من هذا الولد الذي تقولون صغيرا لا يعبأ به أنا والله منذ كنت الزبير ما سمعت مثل هذا الكلام ما هذه البلادة « شفت كتاباتك » « عرستها ليـه لما شفتها ؟ » (ما بلاده) أشهد على نفسي ثم خرج الجماعة الثلاثة والتفت الي .

ز : اسمع يا بابكر المرأة دى أنا صرفت عليها نحو ثلثمائة جنيهـا من مصاغ الى لباس الى فراش شيء يليق بمقامى أنا والآن عزمت أطلقها وتبقى معى حتى تستعد وأرجعها لك بما عملته لها وأنا الزبير أنا أعمل لك هذا كله .

ب : متحمسا انت والله هذا ليس لك بفخر .

ز : انت تعمل هذا .

ب : نعم أنا ما عندى مال كهذا ولكن اذا تكتب لى خطـابا تطلب منى طلاق زوجتى وارسالها لك اعمل فانظر أنت أصعب الزوجة أو المال .

ز : سكت مليا ثم قال لى ان كنت تجبر خاطرى وتعتبرنى كوالدك تقبل منى طلاقها ورجوعها لك لأتدارك غلطتى .

ب : يا سعادة الباشا هذه البنت كانت ترى بيتنـا أكثر من بيت أبوها والآن صارت فى بيت الباشا الذى هو أكبر بيت سودانى الآن فلا ترضى بى .

ز : على الطلاق راضية بك لأنى حينما أخبرتها بوجودك جرت مدامعها وبدأ عليها أثر الحزن .

ب : يا سعادة الباشا نحن الآن فى أسر ولا غرض لنا فى النسـاء فاذا رغبنا الزواج بعد حين فالسودانيات موجودات عند الاغريق وعند العبيـد وكثير منهن (مكتعبتات) أى صابرات عـلى حرارتهن فلنتزوج من بعضهن لتتخلص من تخلص وتبقى الحره على حرارتها أما النسـاء اللاتى دخلن بيتك فهؤلاء حفظن وان كن يأكلن الطعام ويضمن الكسوة فضلا عمن صـارت زوجتك فانى أقول لسعادتك هذه المرأة التى تراودنى عليها لا أتحمل من شأنها هذه المنه منك ومن اخوانها ما لها فى قلبى ما يضطرنى لتحمل هذا وأنا أقول لسعادتك اذا كانت كحواء وكنت كآدم يتوقف على اجتماعنا كزوجين حفظ النسل البشرى فأنا محرمها مهما حلت لى .

ز : وضع يديه على رأسه كالعامه وقال أعوذ بالله من هذه الجرأة ثم نادى أحمد عثمان أخوها الكبير له يا أحمد اسمع .

ز : بابكر قال انه جاء يرانى ويعرفنى وهو كذاب وقال ما قال حتى كرر كلامى الذى قدمته له سببا ويقول وهو كذاب جاء لامرأته يرجعها فأنا الآن عزمت أن أطلقها فتستعد ونرجعها له بما معها من أمتعة .

أ : يا سعادة الباشا حينما طلبت أنت زواجها نحن ما تجــاهلنا بابكر عرضنا عليك الكتابات التى دارت بيننا وسعادتك سمعت كلام غيرنا وقلت رغم هذا زوجونيها فنفذنا ارادتك فالآن وقد حضر بابكر للغــرض الذى ذكرته وعزمك الذى عزمته فنحن لا نوافق عليه بابكر اذا كان بحاله السـابق الذى نعرفه عنه اذا طلقتها له فمحال يتزوجهـا واذا تغير عن حاله فنحن لا نبـالى به يغضب أو يرضى فاذا كنت ســعادتك قنعت منها فطلقهــا تعيش فى بيتك كاخواتها .

ز : على الطلاق كلام بابكر أحسن من كلامك وهو أرجل منك وأعقل منك .

ب : يا سعادة الباشا آباؤنا وآباؤهم جيران فى بلدنا نحن تزوجنـا منهم ثمان نسوان وهم لم يتزوجوا منا امرأة واحدة فلهم الفضل علينا فى سـابقتهم فاتركنا يا سعادة الباشا لئلا نجفوا بعضنا أما أنا وسعادتك فعلى قرارنا .

ز : امشى عاد لأرى رأيى فخرجت وبعد أيام بلغنى انه عزم على طلاقها وصدفة اجتمع عنده الشيخ مضوى ووالدنا الشيخ العاقب عصرا فقلت لهمـا أخبرا سعادة الباشا أنا بيدى نقود أصرف منها على نفسى حينمـا نزلت ببيته فاذا طلق البقيع أنا أرحل من بيته أو أسافر اليوم من مصر قبل العيد فلما أخبراه طلبنى وقال لى بلغتنى وصيتك ورجعت عما عزمت عليه لكن رأيت فى كتـاب كتبه لك أحمد عثمان أن تأتى بأختيك يتزوج أحمد واحدة والحسن الثانيـة فانى أطلب أن تنفذ هذا! وأنت تتزوج أختهما آمنة وتعيشون فى كنفى فأزعجنى قوله : كنفى فقربت منه وهمست فى أذنه انى لا أستطيع حارة اليهــود يوم السبت فضحك وقال لى : همسا اسألهم هل ترى أحدا منهم يذكـرها قلت همسا أظنك يا سعادة الباشا أكثرت من أمثالها عليهم حتى ألفوها فضـحك ورجع للجماعة قائلا ماقولكم فى انه يتزوج أختها فقلت : يا سعادة البـاشا ان صح شرعا فلا يصح عرفا فحكى انه رأى قبيلة فى دارفور تكونت من رجلين من الأشراف نزحا لدارفور بزوجتيهما فأحدهما توفى عن ولد واحد والثـانى توفى عن سبع بنات فالبنت الكبيرة تزوجت ابن عمها حتى حملت منه فطلقتـه وزوجته الثانية حتى حملت منه وزوجته الثالثة حتى دار عليهم ثلاث مـرات

فقلت كيف كونوا قبيلة ان لم يدخلوا غريبا بينهم وهم كلهم اخــوان من أب واحد . فالتفت لى سعادة الباشا وقال : والله يا ولد الحرام ما انتبهت لهـذا الانتقاد فأسألهم عنه . ثم قلت له هؤلاء اضطرهم عدم جنسهم ولكنا بحمد الله عندنا نساء عند الاغريق والعبيد وكررت العبـاره التى قلتهـا له فلمـا رأى عزيمتى سكت وبعد هنيهة سألنى الشيخ مضوى عبد الرحمن : هـل تعتقـد ان المهدى هو المهدى ؟ قلت وأنت لا تعتقـده وانت الذى قبضت على لحيتك وقلت لأهلك ولغيرهم بكركوج والعليفون اذا لم يكن هو المهدى فاقبضـوا على لحيتى هذه هكذا وقولوا والله غشنا مضوى . قال لى : نعم قلت هـــذا حينما رأيته بقدير قائما دين الله تماما فلما توفى ورأيت التغير أنكرت . قلت يا مولاى هل أخبرت الناس الذين آمنوا بايمانك أن يرجعوا برجوعك ؟ قال لا . وضحك الزبير باشا حتى ضرب على أوراكه وقال ولد الحرام ده من وين فقـال له الشيخ العاقب : هـذا بعض من ذكاء والده وانصرفنا فلمـا كانت الجمعة اليتيمة من رمضان وخرج الخديوى توفيق باشا بأبهة عظيمة للصلاة فى الجامع العمرى وأنا كذلك ذهبت للصلاة به وبعد ما صلينا خرجت فـرأيت تلك الأبهة والعظمة من السلاح والرجال • كان اعتقـادى فى أن جيشنا الذى يأتى بعدنا فى أن يفتح مصر ويخلصنا من الأسر أقرب عنــدى من أن نرجع للسودان هذه ظاهرة من أثر العقيدة الصماء لما جئت مصر حاملا جـوابا من عمى على شكاك أرسله لى بيد أحد لا أذكر اسمه أخبرنى فيه بأنه سـيحضر القطر المصرى مع المنصور أبو كوع ليرحل زوجته التى تركها ببلانا وبوصولى مصر وجدت شقيقه محمد أحمد شكاك متزوجا بها فلما عرضت عليه الجواب انفصلا عن بعضهما فتزوجت هى أحمد عثمـان الذى أيس من أختى وتزوج محمد أحمد آمنة عثمان التى عرضها الزبير باشا .

ثم صممت على السفر للرمادى بعد العيد مباشرة فلما ودعت سـعادة الزبير باشا الذى كان الناس يتنبئون لى بهدية عظيمة منه أمر لى بجنيهين ونصف ثوب دبلان فأخذتهما وظننت أن صراحتى معه بما لم يسمعه من غيرى أثرت فى نفسه . سافرت بمركب وكنت أعلم قبل سفرى من أولاد عثمان أن بنت خالتهما فاطمة بنت الفضل وولدها دفع الله شبيكة الصغير ومريم زوجة أبيها الفضـل

الذى مات بالشلال موجودون عند أولاد أبى ستيت فى ضواحى مدينة البلينا وسافر معى المدنى بزوجته بنت الكلانى فلما وصلنـــا للبلينـــا طلبت من ريس المركب أن ينتظـــرنا حتى نرجع من أولاد أبى ستيت فتكرم فوصلتهم وطلبت منهم السفر معى فامتنعوا فلما أخبرت مريم بابنتها حفصه انها بأصـــوان كما رأيتها مع سرية خالها أحمد عمر التى تزوجت بباتين الشاعر قالت لى سألحقكم فرجعت وسافرنا وفى طريقنا أخبرنى بعض الأسرى انه رأى الروضه بنت محمد ابن عمنا وأمها فاطمة بنت حاج الحسن قديلاوى بأسوان صممت عـــلى انى أتوجه اليهما فلما وصلت الرمادى جئت أودع عمى عبـــد الله بك فقال لى : ما تريد من أصوان حكيت له غرضى فقال لى : البنت لا تأتى معك قلت له : ستأتى . فكرر النفى وكررت الايجاب وأخذت معى آمنة بنت الحرم النميابية والدة الجزولى والشاذلى لتكون همزة اتصال بينى وبين الروضة وفعلا جاءتنى بها فوعدتنى انهـــا تمشى معى وعدا جعلنى أطمئن ثم جاءتنى غـــدا وقالت لى امشى معى لبيتى تتغدى معى فمشيت معها وهى فى المطبخ دخل عليها زوجهـــا العبد وكانت آمنه وراء المطبخ فسمعته يقول لها أنا خبرت الباشا وسيضعهما فى السجن الرجل والمرأة فآمنه من مكانها ذاك خرجت من بيتها وسارت للبحر حيث وجدت مركبا مسافرا دخلت فلما وصلت الرمادى أخبرتهم انى فى السجن بينما أنا فى انتظـــار الغـــداء اذ جاءنى بوليس وقال لى ود هاوس باشا طالبك والمرأة التى معك والبنت الروضه فبحثنا عن آمنـــه فلم نجدها وتوجهنـــا أنا والروضه حيث وجدنا زوجها بخيت موافى أمام الباشا فوقفنا معه فقـــال لى الباشا بلسان عربى انت جئت للبنت ده ؟ قلت : نعم هى أبوها ابن عمى وأمها بنت خالى . سألها صحيح هو عمك ؟ قالت نعم وصاحب خالى كمان ـ فقال لها تمشى معه أو تبقى مع زوجك ؟ قالت : ابقى مع زوجى . فضحك وقال : هى مش عاوزاك . قلت : أنا مش عاوزها وأخذها زوجها بيدها وفارقانى.فقصدت البحر لأبحث لى عن مركب أسافر بها مكسوفا ووصلت الرمادى . دخلت على عمى عبد الله ووجدته يقرأ فى جريدة أمسك بيدى ومجلسه حافل فقال : من هذا تهكما قلت بابكر قال البنت جاءت معك قلت لم تأتى قال انت مجنـــون البنت وجدت زب العبـــد الأخرش تخليـــه وتتبعك (جاءتنى نوبة الصراحة)

قلت له البنت زب العبد مخلوقة له ومخلوق لها وهى صغيرة أخذت قهرا لها أعذار . فأخذ يقرأ حتى انصرف عنه الناس فطلبنى فجئته فقال لى بابكر تعيرنى أمام ناس البلد يحفظون على ما قلته لى قلت انت الغنى الموظف الكبير فى سنك وفى مقامك وثروتك تزيدك شرفا على شرف ونحن الأسرى الضعفاء والفقراء تزيدنا احتقارا على احتقار هذا لا تجده عندى وانصرفت عنه،وجلست على جدول ساقيه خارج الوكالة فجاءنى الأسرى الذين حضروا وسمعوا الحادثة قالوا لى يا بابكر أغضبت علينا عبد الله بك الرجل المحسن فينا وهو وراء الباب يسمع ما أقول مما جعلنى أظن انه بعثهم لى فقلت لهم بصوت مسموع مغضب عبد الله بك ما يكفيه ان الله أحاجنا له من قبائل شتى ومكنه من أن يأسر قبائلنا باحسانه لنا ان لم يعرف أبى فلا شك انه يعرف عمى مالك الذى كان يرافقه فى اسفاره وانا من هذا اليوم اذا قعدت فى كنفه أكون (ولد حرام) وهو يعمل لى ما يشاء انصرفوا عنى فانى لست ممن يحمل له جميله أكثر مما حمل هو لى برضائى ابقى قعيده . وبعد هنيهة طلبنى فوجدت عشاءه أمامه فقال لى اجلس كل فقلت لا آكل فهم أن يقف فيجلسنى فقلت اسمع يا عمى عبد الله بك أنا اذا صرت غنيا مثلك وجئت عندك ضيفا ما أكلت طعامك اذا أكلته أكون (ود حرام) لا تتعب وخرجت .

لم أنم تلك الليلة هادئا وبمجرد شروق الشمس نزلت للشاطىء أنتظر مركبا تحملنا لأسوان فجاءنى وطلب منى أن أرجع فلم يمكن فأعطانى جنيها للأجرة والزاد فرفضته وهو معى مرت مركب رفعت لها يدى مالت علينا فأنزلت أهلى والمدنى ودفعت للريس الأجرة مقدما فأيس من رجوعى وأخيرا قال لى كنت أريد أن أعمل معك مصاهرة فى أختك الصغيرة فقلت آه ما كنت أعطيكها فقال ولم قلت لأنى سمعتك وأنت متزوج بنت الختام وأمها بنت الفقيه أحمد ولد هاشمى قلت من فتح الباب بتاع الخيل قيل لك فتحه محمد الختام قلت ولد الختام مين الله يلعن أمه يا شيخ . فضحك وقال استودعناك الله (ما فيك بصاره) .

وصلنا أسوان وما بيدى غير ٧٢ قرشا أجرنا غرفة واحدة بعشرين قرشا ودخلنا فيها عند الغروب وفى الصباح ذهبت للسوق والبحر أبحث عن عمل

فوجدت أكثر اخواننا الأسرى عمالا باليومية فى العمارات اليوم بقرشين فجال فى بالى هذا الفكر ومعى جاز بنت مصطفى وزينب عبد الله ولد مالك واخواتى الثلاثة وأمى اليوم قرشين لا يكفينا أكلا مهما اقتصدنا وان كلفت النساء بخدمة لأكلهن لا أدرى ما يحصل لهن أثناء الخدمة ونحن فى نيتنا الرجوع لبلدنا فاذا تعودن منقصة هنا تخالف عوائدنا وديننا لا آمن أن يعملنها هناك ولو من غير قصد فتفضحنا فى بلدنا . تحت ضغط هذا الفكر ملت على رجل سمكرى بسوق الحاج حسن بأصوان قلت له انى أريد أن أشتغل معك وما أصنعه أنا يكون مناصفة بيننا آخذ فيه النصف والنصف لك نظير المواد والدكان وافقنى على ذلك فعدت أنظر اليه كيف يلحم فمسكت الكاوى ولحمت به كوز ثم رأيته يقطع الصفيحة كبيرة ويقص منها قليلا قليلا بالمقص فيتأخر فى العمل نهاره زيادة عن تبذير الصفيح أحضرت ورقة مقواة من صندوق جزمة وقسمتها الى سنتيمترا أجعل له خطا أحمر ونصف السنتيمتر خطا أخضر ولما أراد أن يلحم كوزا رطلا تناولته منه وأخذت طوله وعرضه وحفظته جيدا وصرت أمسك لوح الصفيح وأعلم من حافته الطول والعرض وأوصل بالخط برأس المقص ثم أقطع فيقول لى الأسطى خسرته أقول له ان خسرته اخصمه منى ثم ألفه على السنداله وألحمه وأعمل قعره ويده فيملأ كوزه ماء ويصبه فيه يجده تماما فصرت أصنع أربعة أكواز الى خمسة وهو لا يكمل اثنين وقال لى يوما علمنى طريقتك فى الشغل فقلت له أنا أهلى علمونى العلم والحساب هل ممكن أعلمك الآن وبعد أيام وجدت ايرادى منه لا يكفى لضيق العمل وقلة التصريف تركت السمكرية وذهبت للخياطين ومكثت معهم أيضا أياما فما وجدت منهم فائدة تركتهم ثم بلغنى أن بسوق الحارث بأصوان سودانى جلاد فمشيت له وقلت له أنا أعرف الجلاده وأريد أن أشتغل معك آخذ نصف ما أصنعه وافقنى وكان يقد فى سير رقيق فخرج وقال لى خلص السير هذا الى أن آتى فمسكت الموس وصرت أقد ببطء حتى اعتادت يدى فلما أتى وجدنى ماهرا فى قد السير فاقتنع بأنى جلاد والجلادة صنعة نافعة كثيرة الزبائن واسعة العمل المتنوع بأعداد كثيرة لأن العبابدة يطلبون زينة أدوات جمالهم بتنافس سروج ورسانة وقلائد وسيوف وسكاكين وأسواط أو بيض نعام وغير ذلك وبعدما عرفت اسمه على ود سعد وانه ميرفابى وعرفنى انى رباطابى ومعى عائلات

أشار على بل سمح لى فى أن آخذ السيطان لمنزلى أشتغلها بالليل وآخذ أجرتها لى فجعلت آخذ المائة سوط وأجرتها مائة قرش وأشترى الجلد غير جلود الدكاكين وأقدها سيورا وعلمت البنات كيف يلففن والمدنى كيف يعقد وصرنا كلنا نشتغل المائة ونخلصها بين يومين وثلاثة ليالى فتوسعنا وبدأنا نحسن طعامنا ففى يوم أخذت أجلد فى سكين بلدية فقطعت الجلد قدر المحيط للمكان العريض منها ثم عملت السيطان وكسوتها بالجلد وأردت أن أبرز السيطان يصغر الجلد واذا أتممت الجلد ببطنها تنمحى السيطان وهو ينظر الى فلما تعبت أخذها منى وقال لى انت لست جلادا ولكنك نبيه فقطع الجلد كبيرا ثم أبرز السيطان بالمحرات حتى يبست ووضعها فى قلب السكين وألن باقى الجلد بالماء ومسحه بالمديدة للزقة وصار يضغط عليه بالمحرات ليجتمع على بعضه حتى صار كأنه غير مطبق وتركه حتى كاد ييبس ثم امشى عليه المحرات ليظهر محل القطع وسطا ورمى بها الى فقال اقطع الجلد وخيطها وما وقف على شيء غيرها .

ترك لى على ود سعد الدكان وصار يحوم فى البلد وفى السوق لمصالحه الأخرى فصرت أنا الذى أتفق مع الزبائن فى الأجرة والمسئول عن كل المصنوعات وأكتب عدد المصنوعات وأجرتها فقط ، هو يأتى فى آخر الشهر ويجعل لى ما كنت آخذه حينما كان هو الذى يقوم بداخلية الدكان من مشتروات وغيرها وهو يشتغل معى فقلت له يوما أنت لك على الشكران والجميل لأنك نورتنى وانما أرى لك أعمال أخرى شغلتك عن مباشرة الدكان فتفضل بالنسبة لعملى وحملى واعطنى الثلاثين وانى مستعد أن أقوم لك بكل العمل والحساب بدقة فرفض فقلت له انى أخاف أن نفترق فنصير خصمين بعدما كنا كالأخوين فأصر على ابائه فمشيت لرجل صانع من اشراف بربر الخفاب يسمى على ود المزند وحكيت له مطامع على ود سعد وكان أملى أن يتداخل بيننا ولكنه قال لى على ود سعد يريد أن يستعبدك آملا انك لا تجد رأس مال وأمنية وضمانا . حالا قفل دكانه وأخذنى معه للضبطية حيث وضع ستة ريالات كبيرة تأمينا ووضع ضمانا على ورجع معى حيث أجر لى دكانا ودفع أجرة شهر مقدما ثم أعطانى جنيها رأس مال فصار كل ما صرفه على ٢٨٠ قرشا

فشكرته وأصبحت صاحب دكان مستقل فاشتريت لى عدة (عدة صنعة) وعملت الباقى بنفسى واشتريت جلدتين وجلست فى دكانى وتعرفت بتجار الأناتيك كأولاد عويضة ومدنى يحيى ومصطفى وغيرهم وللحظ حضر الشيخ عبد الله كريم الدين من السودان ومعه الأسواط وبيض النعام كميات كبيرة فوافقته على أن أطيع السوط وأجعل له يدا بقرشين فاشتريت القطران وجئت بالمدنى وكمال الدين مصطفى معى بالدكان . مدنى يمسح الأسواط بالقطران ويمشقها وكمال الدين علمته كيف يقد السير واستلمت من الشيخ عبد الله كريم الدين ألفى سوط عربونها جنيهان اشتريت منها جلودا واشتريت من الشيخ عبد الله ما عنده من بيض النعام وجلود الأصلة والورل والتمساح بأثمان رخيصة جدا لأنى كنت أجهل ثمنها حتى يرجع من مصر فجاءنى زبائنها الذين يعرفون ثمنها فبعت لهم البعض من كل نوع واحتفظت بالبعض وذلك لأنى ظننت أن الشيخ عبد الله حينما يصل من مصر يحتاج الى نقود فيخاطبنى بتحويل وفعلا حصل هذا ومن ذلك الحين اتسعت صنعتنا وحسنت حالنا فأجرنا ثلاثة منازل بحارة الحدادين منزل لوالدتى ومن معها من البنات زينب بت ود عبد الله والحسنة لأن أم طبول وجاز زوجتا لوطنيين من الفلاحين ومنزل للمدنى وزوجته وبناته ودفعت لعلى ود المزند المئتين وثمانين قرشا بعد أن أوضحت له حالتى وشكرته وجئت بالدكان باثنين آخرين من الأسرى فصرنا مجموعة اضطرتنا للنقل الى دكان أوسع بجوار رجل يدعى صالح مزينا وطباخا فجعلت لى جدولا للأعمال هكذا اسم صاحب الشغل نوع الشغل وصرت كلما وصلت الدكان صباحا أنظر فى خانة الميعاد فنشتغل كلنا فى اتمام ذلك العمل حتى اذا جاء صاحبه قلت له فى العصر جئنا وباقى الحساب بيدك فيجىء ويستلم شغله كاملا عددا وصنعة والزبون الذى يقدم شغلا جديدا أنظر قبل أن أتفق معه على الأجرة أنظر كم يوما بين هذا اليوم وآخر ميعاد لما بيدى ثم أنظر كم يوما يستغرقها عمله وأضم العددين وأقول بعد كذا يوما تأخذ شغلك تاما كاملا عددا وصنعة فكلهم قبلما يعرفون وعدى يقول يا أسطى هذا زمن طويل . أريه الجدول وأقرأه له ان كان أميا فبعضهم يقتنع ويقبل وبعضهم يستكثر الأيام ويرجع بشغله يعطيه غيرى من الجلادين فبعضهم يمضى زمنا أكثر من زمننا الذى قررناه له ولا يستلم من شغله شيئا فيرجع به لنا فقد يكون الميعاد الجديد

آكثر أياما من وعده الأول فيقبل مضطرا وبهذه الطريقة أصبح دكاننا لا يمكن أن يفرغ من العمل حتى بارحنا أسوان .

أرسل لى عم عبد الله بك حمزة لأصل له بالرمادى لأصنع له سروجا لخيله بعضها من جديد وبعضها لقطع جلده فوصلته ووجدت جلده بقرا فنصحت له بأخذ السروج لأسوان لأجلدها بجلد الجمل الذى لا يطيع وأخذتها فعـــلا فجلدتها وأرسلتها له فبعد مده جاء بأسوان فذهبت له وسلمت عليه فأراد أن يعطينى قيمة عمل السروج فرفضت وقلت له أساهم معك فى تكاليف اخوانى الأسرى لأنى مبسوط وشرحت له ايرادى ومنصرفى فدعا لى بالخير وتنبأ لى بمستقبل باهر فشكرته وانصرفت .

وفى ربيع سنة ١٣٠٧ هجريه جاء الخديوى توفيق باشا لأسوان مارا لحلفا عملت له زينة عظيمة فيها المراكب والسواقى بالأنوار وأمرنا بتزيين الدكاكين وكان لنا جار طباخ ومزين حشاش يقال له صالح عمل الزينة عـلى باب دكانه ولما كان دكاننا يلاصقه أخذ دكاننا قليلا من زينته فلما جئت صباحا قلت له عم أسطى صالح زينتنا جميـلة فغضب وقال كم دفعت فيهـا زينتك يا ابن الكلب وهجم على ما بدكاننا فمزقها فأخرجت كل ما أتممت عمله بدكانى من مصنوعات وما يكاد يتم وعملت مسامير صـفوفا فى باب دكانى وعلقت فيـه السيطان اللاتى حسنت صنع أيديهن حتى كنت آخذ على يد السوط خمسين قرشـــا للمتقن جدا . منها صفا أسفل والسـكاكين مخللة بأبيات التراكيش صــفا والطنابير مخلله ببيض النعام صفا وركزت الحراب والسيوف والدرق بعيـدا قليلا عن باب الدكان فكان ملفتا للنظر فجاءت ابنتان معهما ضابطان عظيمـان وأظنهما بنتى الخديوى أو من العائلة المالكة فلما رأوا زينتنا نزلا ومالتا علينا فأحضرت لهما كرسيين وكرسيين للضابطين وصرت أحضر لهمـا كل ما أشارتا له وكنت أملت منهم فائدة عظيمة ولعدم الحظ قام كمال الدين مصطفى الصبى بالدكان وأخذ طنبورا وغنى على نغمته فسرتا وزاد أملى لكنه أخيرا قفز بينهما وصوت صوتا أزعجهما فقفزت كل واحدة منزعجة وركبوا وضاعت فرصـتنا فأوجعته ضربا .

جاءت مريم من بنى سويف واجتمعت بابنتها حفصة واجتمعنا . فخطب ابنتها بعض الأسرى وخطبتها من ضمنهم فقالت أنى أعطيها بابكر لأنه اما أن

يمسكها سمح أو يطلقها سمح وفعلا تزوجت بها وصرفت على زواجها مائتين وسبعين قرشا فكان له شهرة كشهرة زواج الحردلو بن أحمد أبى سن لستنا بت أبو عاقلة حيث جمع والده نظار السودان من حلفا الى فازوقلى لأن زواج الأسرى يقدم بعضهم للمرأة عمته أو أحد ثيابه صداقا وهى ترده له ولم يسبق أن أولم أحد وعقد فى جمعية عاديةقبلى ثم صار منهم التجار والصناع وتحسنت حالة الكثير منهم فلما تحسنت حالتنا صرنا نجيء كل مساء بلبشة « ربطة من قصب السكر » تقسمها نعطى أمى أحسنها ومنزلى وسطها وأختى قريبا منهـا وكانت زوجتى فى غرفة ثانى سكن ففى يوم ما كنت مدعوا فوقفت فى الشارع وقلت لكمال الدين مصطفى خد هذه القصبات لأمى ثم رجع قلت له خذ هذه لحفصـه زوجتى وهـذه للسهوة وبناتها فرأت حفصـه هـذا التقسيم فلم يرضها فتركت نصيبها فى مكانه خلاف عادتها فقلت : لمـاذا لا تأكلينى القصب قالت : انت تعطى أمك الأحسن وتعطينى الزفت فكسرت وأكلت وهى غضبى فالتفت عليها وقلت لها اذا تذكرين والدتى بسوء أو تطالبيننى بمسـاواتها أو التفضل عليها بعد اليوم فأنت طالق ثلاثا فمن ذلك اليوم الى أن توفيت والدتى ما عرضت بها وانى قلت لها ذلك قياسا على قول صخر :

فأى أمرىء ساوى بأم حليلة — فما عاش الا فى شقا وهوان

ــ فى أثناء عملنا قفلت سكة السودان وانعدمت جلود العرد والمدس التى تلزم لسروج وأرسنة وعقاد وورق جمال العبابدة فبحثت عند رجل عطار عنده كثير من الصبغات لعلى أجد منـه لونا يشبه لون المدس أو العرد فى لونهمـا البرتقالى فبحثت كثيرا حتى جاءنى بعلبة صغيرة فيها زيلقون فأخذت منـه قليلا وصبغت به جلدا أبيض حتى يبس ثم أعطيته مسحة أخرى فلما يبس صار لونه برتقاليا مسحته بالليمون فوجدته ثابت اللون ثم مسحته بدهن وغسـلته بالصابون ومسحته بالليمون وتركته فى الشمس يومين ولما وجدته لم يتغير لونه اشتريت كل العلبة من حاج عبد الله وصرت أصبغ بها الجلود وأشتغل به كالمدس والعرد ولم يعلم الجلادون الآخرون من أين آتى بهذه الجلود حتى بقيت على السفر فأطلعت عوض الله العبادى على السر وأعطيته ما بقى معى من الصبغة .

رغما عن تحسن حالتنا وقربنا من الثروة والشـهرة لو أقمنا ما زالت العقيدة تنازعنا وتدعونا للسفر للسودان أكثر من شوقنا لوطننا وأهلنا .

الرجوع الى السودان :

سمعت بأن كرار بشير العبادى صرح له بالسفر للسودان وهـو بدراو فمشيت لأودعه فلما أراد أن يركب انهملت دموعى وقلت له يا كرار اخبر خليفة المهدى عم ان أصحاب المهدى راضون بكل ما حصل عليهم اذا ضمنوا رضاك عنهم وعنايتك بهم حصل هذا أمام جمع غفير ما باليت بضررهم ولا بهزئهم ثم فكرت فى كيف نحصل على التسريح بالرجوع لأهلنا فعرضت فكرتى هذه فى جمعية من الأسرى لا أذكر سببه فجلهم حبذوا رأيى واتفقنا على أن نكتب طلبا لود هاوس باشا نطلب منه تسريح السفر لأهلنا فكتبنا له طلبا لم ندر ماذا حصل فيه فلما تأخر كتبنا سبع طلبات وضعنا اثنين فى صندوق مكتبه الخاص واثنين فى مكتب البوستة العام واثنين ناولناهما باليد كل واحد فى مكان آخر وهـو راكب حصانه وآخر بالشارع ففى غد طلبنـا بالمحافظة فقابلناه بأجمعنا فقـال بلسانه الفصيح : انتم لماذا تطلبون السفر للسودان ؟ فأجابه خالد الشعدينابى وكان رجلا طويلا جسيما فقال له ياسعادة الباشا نحن جائعون هنـا أسرى فقا ل له انت سمين ماتخدم وتأكل . أجابه خالد : نعم أنا سمين وأخـدم ولكن اليوم قرشين والأولاد كثيرة فقال باتين للباشا نحن بلغنا ان أهلنا بالسودان مات الكثير منهم بالجوع والمرض فنريد أن نصلهم لنخلف من مات ونسـاعد الحى فقال الباشا : الجوع للان موجود فى السودان فالأحسن تبقون هنا

فقـال له خالد اذاً اما أن تصرح لنا أو تربط لنا مرتبـات أو تضربونا رصاص فغضب الباشا وقال لخالد انت بليد اذا كنا نضربك رصاص كان حينما أسرناك ضعيفا انت خروف نسـمنك لنذبحك ثم التفت الى باتين وقال له أنا أكتب على طلبكم وبعد خمسة عشر يوما أطلبكم وأخبركم وقبل يوم الميعـاد سافر باتين مع بعض العبابدة للسودان بمفرده لأنه كان يغنى معهم وخصوصا الخضرى المشهور الذى قال :

مادام الرجال متبعـه والواحد بيسـازن سبعه
ان جمعوها من البقعـه أحيمر مابتدوسك رقعه

أجابه باتين بقوله :

مادام الرجال متبعه ليشن يسووا جحر الضبعه

ربى ان كتب لك وقعة أخاف مابتنستر يا ابتفعه

(ولا أدرى معنى تفعه)

ولما جاء الميعاد طلبنا الباشا وأخبرنا بأنه قد صدق له بتشهيلنا للسودان وانه سيصرف لكل نفر منا كيلة قمح وعشرين قرشا ويعطينا المراكب الى حلفا ولكن يجب أن تعرضوا أنفسكم ونسائكم وأولادكم لكى أتحقق من عددكم فقال بشير بك الجبران : أهالى السودان لا يرضون أن ينظر رجل نسائهم .. وقال الباشا أنا عارف ذلك أنا أجىء بامرأتى معى وهم ينظرون لامرأتى وأنا أنظر وحدى نسائهم فضحكنا ورضينا بذلك مادام وحده فانه كالمحرم لنسائنا فجئنا بشارع المحافظة حيث عين لنا مكان لا يمر به أحد وجاء الباشا وامرأته وحسب الناس وكتب أسماء الرجال ومن فى عيشة كل واحد وقام الرعيل الأول بالمراكب وتأخرنا عنه لنجمع أطرافنا وتأتى أم طبول لأن جاز طلقت وحضرت لنا من زمن

وقبل قيامنا كتبت لعمنا الزبير باشا أخبره فيه بأنا طلبنا تسريحا بالسفر للسودان وسرح لنا فعلا وحيث ان سعادتك قد سمعت بفناء قبائلك بالسودان من مجاعات سنة ستة وسبعة وما أعقبهما من وباء بالجدرى وان من بقى من كل قبيلة ممكن عددهم أقل ممن هم بالقطر المصرى وخصوصا مع سعادتكم كثير منهم فلو سرحت لهم وشهلتهم ليتوجهوا للسودان لضاعفت المنه عليهم منك فقرأ عليهم كتابى وأمرهم بالسفر جميعاً .

(أم طبول) لما عزمنا على السفر علمت انا لم نعط المراكب كالدفعتين السابقتين اشتريت حمارين أحدهما لأمى والثانى لأختى الحبلى ــ قلت للمدنى نركب الحمارين ونذهب لأم طبول بالرغامة وهى حلة شمال دراو بمرحلة لنأتى بها فتسافر معنا فأخذ المدنى يشبطنى عن السفر لها بشتى أنواع التشبيط حتى قال لى تذكر مسألة الروضة فحلفت له بالطلاق بأنى لا أسافر حتى أصلها فان

أبت السفر وجدت عذرا عند أبى وان رضيت أوصلتها أبيها فركب معى فلما وصلنا حلة الرغامه عصرا سلمنا على زوجها محمود وعلى أبو غانم ولم نذكر لهما غرضنا وعند المغرب لدغتنى عقرب شغلتهم وشغلتنا عن المحادثة وأم طبول ساهرة معى الى الصبح أخبرتها بغرضنا أخذها معنا فقالت أخذتم التساريح ؟ قلت نعم ، قالت متى سفركم ؟ قلت يوم الاثنين ــ واليـــوم الخميس قالت أقوم معكم رغم رغبتى لأنك ترى منزلى ملان بأنواع البهائم والطيور الداجنة وفتحت لى مخزنها الحافل بكل ما يحتاج اليه الانسان وقالت كنت أتمنى أن تأتينى قبل الآن زائرا فنكرمك ونهديك ولكن رغم هـــذا أنا لا أتأخر عنك فازعجك طول حياتك وأجعلك موضع تهمة فى التقصير عن واجبك نحوى فلما تأكدت منها أخبرت المدنى ومشينا الى عمنا غانم الذى يتجاوز السبعين من عمره وأخبرناه فأطال معنا الرجاء والضمان لراحتها والجدل أخيرا حتى قال أم طبول عينى فقلت له تتركك أعور ولكنها عينى الاثنين فتركتنى أعمى وبعد كل هذا لم يقتنع فخرجت من عنده وشددنا حمارينا كأننا تركناها لهم والمدنى تقـدم بالخروج من الحلة وحده ومشيت لها فلقيتنى عند باب الدار بقميصها كنسائهم فقلت لها اركبى قالت آتى بحجباتى ودخلت غرفتها حالا لبست ثوبها وحجباتها وأتتنى كالبرق قالت لى ارفع لى رجلى فركبت وأسرعت بها فما علموا بسفرنا حتى صرنا راى العين لحقنا زوجها فقلت له تودع والدتها واخواتها فأتنا أنت بأسوان ترجع بها فالتفتت اليه وقالت لا تتعب أنا مسافرة السودان وبيتك كما هو لم آخذ منه شيئا فارجع الى أهلك وضربت الحمار وســـارت مع المدنى وأمسكنى يتأكد من هل يأتى لأسوان فقلت له قد سمعت قولها فتركنى ورجع وهو باك ثم لحقنا بأسوان وفى آخر لحظة طلبنا منه طلاقها فأوقعه فى الليلة التى نصبح مسافرين فيها .

سافرنا بالبحر مودعين أسوان بالمراكب التى يسرها الله بعد أن قنعنا منها وحمارانا معنا فى المركب الى حلفا ــ أسوان التى سعدنا فيها والتى لولا يوسف الذى بقى والذى اذا ذكرته فزعت من النوم والذى اذا رأيت وجهى فى المرآه يعلم الله هاجت على ذكراه • وصلنا حلفا حيث أقمنا يومين اشترينا فيهـــا ما يلزمنا للسفر ولا أنسى ما لقيناه من اللطف من الشيخين طه مكى وشريكه

الطيب فلما بقينا على السفر جاءنى عمر الحاج من أهالى أم دوم وعرفنى ان له أخت كبيرة تزوجها بتجاويش زنجى ووعدت بأنها تسافر معنا فلنمض لها نأتى بها وبأختها الصغرى ومضينا معا ودخلت عليهم فى بيتهم وزوجها يحادثنا أطيب حديث وأحسن ترحيب فاذا البوليس يدعونا جميعا للمكتب الذى وجدنا فيه صاغا مصريا يدعى خير الله أفندى فأول ما وقفنا أمامه قال لنا الله يتعبكم أتعبتونا رايحين جايين وقد ملأتم البلد شراميط فقلت له أنتم غلبتمونا رؤساء ونحن أتعبناكم أسرى فانظر أينا المتعب - اما الشراميط فقبل أن نجىء نحن كل بلد بها كفايتها منكم يثبت ذلك الوثائق الرسمية ومصلحة الصحة فقال لى انت بذىء فقلت لكن البادى أظلم فضحك وقال نعم حقيقة ثم سأل المرأة هل تمشى معنا أو تقعد مع زوجها فالتفتت على أخيها وقالت له لولا ان النساء بتنبذنى بأنى تزوجت العبد كنت أمشى معك ولكن لا أتحمل ذلك استودعك الله فلطمها على فمها فضحكت وأخذت أختها وتركتنا واقفين حائرين فخرجنا جريا حتى وصلنا وابور السكة الحديد الذى أخذنا لصرص .

أسرت بالقطر المصرى يوم ٥ ذو الحجة سنة ١٣٠٦ ورجعت لصرص فى أواخر رجب سنة ١٣٠٨ هـ أى بعد عامين وأشهر فقصدت محل بيتى وحفرت فى مكان الكتاب فأخرجته من تحت الردم مابه غير مس بأطراف ورقه من قرض الأرضه فأخذته واقتنيته .

من العرضى الى أم درمان :

من صرص سرنا بأرجلنا حتى العرضى كنت أقود حمار والدتى الذى أكاد أقضى المرحلة جريا معه ممسكا برقبته وفى الغالب أحمل عبد الباسط الطفل وهو صغير على كتفى حتى وان والدتى كثيرا ما تقول لى أنا أتعبتك الله يقتلنى ويريحك منى أضحك وأقول لها ألم أتعبك فى الحمل والولادة والتربية أضعاف ما أتعبتنى أرجوك أن تدعو لىَ بخير يريحنى ويريحك بواسطتى والسهوه راكبه حمارها ووراءها فاطمة ابنتها الصغيرة اما زوجتى حفصه فانها سائرة برجليها ولم تبدى لى أو لغيرى ولا مرة تذمرا بل أحيانا تحمل منى عبد الباسط على ظهرها فكنت أذكر لها هذه الحسنة كلما استأت منها فلما وصلنا صوارده

وجدنا عثمان أزرق عاملا عاما فعرضنا عليه ليعطينا زادا ومصروفات فأعطانا بعض الزاد وقال عن المصروفات (معلمين الله) فقلت قد جئنا لناس (معلمين الله) فضحك وقال لى استغفر ربك ، قمنا من صوارده للعرضى فوصلناه فوجدنا العامل به محمد خالد زقل وسرعان ما غيروه بيونس الدكيم للمرة الثانية عاملا لدنقلا . ظللنا خرائب فى البيوت التى تركها أهلنا ممن سافروا مع ولد النجومى وسكنا بها . بعت حمارى بثلاثين ريالا واشتريت بثمنه بضاعة مشكلة مما يتخذ اداما وطعاما وأخذت من محمد بشاره رئيس السجون أربعة جمال حملتها تمرا من صوارده من ثمن بضاعتى التى أبيعها وما يعطونيه أصدقائى من الأمراء بصوارده فلما وصلتها وجدت أولاد عثمان بها فقالت لى أختهم الكبيرة زينب وكانت ماهرة فى الحصول على غرضها نحن عزمنا ان نزوجك البقيع كما أوصانا الباشا بذلك ويتزوج الحسن ولد الفضل الحسنى أختك فقلت لها زواجى بالبقيع لى فيه رغبة عظيمة اما زواج الحسنى بالحسن فهذا لا أضمنه لأنها بكر قاصر وأبوها موجود ومن الجائز أن يرسل أحد ولديه يوسف أو سعيد يأخذ الحسنى وأمها اذا كنتم تزوجونى البقيع دون هذا الشرط فانى أتزوجها وأسكن معكم بدنقلا ولو نقلت أمى التى أحبها لأم درمان لأن لها هنالك زوج وولدان فغابت عنى ثم جاءتنى بأنها حتى البقيع نفسها وافقوا على طلبى فأعطيتهم مالزمهم من البضاعة وبعت باقيها فملأت بقيمتها وما أعطيته جملين تمرا وجملان حملت عليهما عفشهما وركبت البقيع على احداهما وصرت أقود الجمل الراكبه عليه كما كان الحجاج يقود جمل هند بنت النعمان لعبد الملك بن مروان ويتمتع بالأنس معها وان كانت لا تكلمنى الا نادرا فأسر بصحبتها وبحيائها منى كما تستحى المخطوبة عندنا عادة من خطيبها حتى وصلنا العرضى وظللنا لهم خرائب لسكناهم كنت فى تظليلها أنشط عامل ولما سكنوا طلبت الزواج من زينب فقالت الى أن يأتى الحسن أخى من دلقو وفى أثناء ذلك جاء يوسف ورحل أمى وبناتها والمدنى وبناته وأم طبول التى تقدمت معهم الى الدبة من هناك هى وجاز وزينب بت ود عبد الله ومعهن جماعة من الرباطاب سافروا للرباطاب ووالدتى ومن معها سافروا الى أم درمان بطريق الدبة جاء الحسن وسافر مرة أخرى الى أرقو وزينب تتعلل بغيابه حتى اذا حرصت عليها قالوا ان اخوانها قالوا انك

متزوج حفصه التى يعتبرونها كأختهم ولا يمكن أن يزوجوك البقيع عليهــا فاخترايها شئت فتحت تأثير الرغبة الملحة لزواج البقيع قلت لحفصـه انى أريد طلاقك فبكت وقالت لى انى سمعت انهم يريدون أن يطلقونى منك ويماطلونك حتى أستعد أنا يزوجونى للحسن ولد الفضل ويمنعونك البقيـع وقل لهم أنا طلقت حفصه وأنا أرحل مع أمى الى بيت خالتى عائشة ان زوجوك البقيع أنا مع ثلاث زوجات أقبلك رابعة لأنى ألفتك وأحببتك فنهضت قائما وقلت هـذه خادمتى وزوجتى وتلك ستكون سيدتى وزوجتى فصممت انى أقتنع بحفصه فقبلت بنصيحتها وأمسكت عن محادثتى مع زينب بخصوص زواجى البقيع فبعد أيام جاءتنى زينب فى بيت والدتى الذى كنت أقيل فيه دائما لضيق بيتنا ووجود مريم حماتى به فقالت لى زينب انت سكت عن كلام خطبتك للبقيـع وأخوانها كلما خطبها أحد يقولون ان ابن عمها يرغب فى مراجعتهـا فاذا كنت قنعت منها صارحهم يزوجوها غيرك لأنها يتيمة ولا تستطيع المعيشة مع زوجة أخيها قلت لها انى سمعت كذا وكذا وصارحتها بكل ماقالته لى حفصـه من المكيدة فحلفت لى بقولها الله ياخد أحمد والحسن وما يمتعها الله تعالى بعافيتها هذا الكلام لم يخطر ببال أحد منا وان ناقله يريد أن يفرق بيننــا وبينك فلا تصدقه أبدا تحت هذا القسم وتنفيذا للرغبة فى زواجى بالبقيـع • جئت لمريم حماتى وقلت لها انى طلقت حفصه وهذا مؤخر صداقها ونفقة عدتها قالت لى بارك الله فيك مسكتها سمح وفارقتها سمح • أصبحت حفصة مطلقة وعصمة البقيع معلقة على رضاء الحسن الذى يرضى مرة ويأبى مرة وأحمـد وزينب ينصبان لى الحيل فيقربونى كلمابعدت حتى استعدت حفصة وطلبت للحسن الفضل كما قالت ورضيت أمها لأنها كانت زوجة أبيه وبحجرها عبـد الباسط أخـوه •

أتانى بابكر كرم الله رفيقى بشونة صرص ليلا وأخبرنى بكل ما حصـل ووعد بمساعدته لى فى هذا الموضوع ليبطل زواج الحسن بحفصـة فقلت له لا أحب أن أرجعها فقط ساعدنى بالوقوف على حقيقة وألاد عثمان هل يزوجونى البقيع أو يقنعونى منها فقال لى مساء غد اطلبنى وعثمان وحمزة ولدى رحمه ومحمد أحمد شكاك وأطلب منهم ميعاد تحديد زواجك فتظهر لك الحقيقـــة

فقبلت برأيه فكانت النتيجة سلبا فخاطبهم بابكر كرم الله بأنهم ليسوا أولاد ناس فيما صنعوه معى فأسكته وأريتهم انى لست راغب فيها كما كنت لأنى علمت بما عملتم والله لا يحب الخائنين وقمت منهم وقلت لبابكر كرم الله اختبر لى البقيع نفسها هل فيها لى أو عنى فجاءنى وقال هى تميل اليك كل الميل ولكنها لا تخالف أخوانها وأخواتها فتوجهت نفسى نحو أم درمان وفكرت فى أن أتزوج كلتوم بنت حاج الحسن أيمة ولد النجومى وأعددت نفسى للهرب الى أن جاءنى خطابان أحدهما من المنصور أبى كوع والثانى من الشيخ بانقا موسى يقولون لى فيه مريم وابنتها لا تتركهما وراءك ولو طلقت بنتها ويزيد الشيخ بانقا انى كتبت خطابا ليونس الدكيم بتشهيل مريم وابنتها فلتقابله مريم فطلبت مريم وبابكر كرم الله وعثمان رحمه وقرأت لهما كتابى بانقا والمنصور وقلت لها اذا كنت تقبلين السفر لأم درمان فانى مستعد أوصلكما وابنتك ولا أرجعها واذا كنت لا تسافرين فارفضى أمام هذين الرجلين ليكون لى عذر عند ناس أم درمان جميعا فقالت انت مأمون علينا توصلنا وأنا أعطيتك ابنتى بكرا فلا أمنعك منها وهى مطلقة منك وأنا مسافرة معك فقلت لها قابلى الأمير يونس الدكيم وقولى له أنا المرأة التى كتب لك بانقا بترحيلها وابنتها لأم درمان فقابلته وجاءت منه بالتسريح واذن الصرف بزادها فأخذت التسريح والاذن وقلت لها امش • قالت لى عندى معك كلام وحدك وأخبرتنى بالخطبة وانها استلمت كل الجهاز فماذا تصنع الآن قلت لها اذا كنت راضية الاقامة هنا فأقيمى قالت لا ولكنى أريد منك رأيا يبقى لى عذرا فقلت قولى لهم انى لا مانع عندى من أن أزوج الحسن بحفصه ولكن لى ولد بأم درمان وكل قبيلتى بها فأعطونى الحسن يوصلنا أم درمان وهناك نزوجه فان رضوا فارحلى بالحسن وزوجيه هناك وان أبوا فكل أراد ولده فسافرى واتركيهم قالت هذا تمام فسبقتها عليهم ووجدتهم كلهم جالسين ورأيت جهاز الزواج تحت العنقريب فخاطبت أحمد وهو الذى يفهم معنى قولى : يا أحمد اسمع منى هذه القصة كانت أرينب بنت اسحق وهى أجمل نساء زمنها تحت عبد الله ابن سلام فعشقها يزيد بن معاوية فقال له والده ساعدنى بالكتمان وأرسل الى سيدنا عبد الله بن سلام من المدينة المنورة فلما وصله بالشام قال له ابنتى مثلت للزواج وقد بنيت لها هذا البيت

واخترتك لها زوجا قال عبد الله حبا وكرامه يا أمير المؤمنين فقال له ارسل لها من يخطرها فانها بالغة أمرها بيدها فأرسل لها خاطب فقالت ان عبد الله تحته أرينب بنت اسحق ولا تحظى معها امرأة بلغت ما بلغت فاذا طلقها ثلاثة تزوجته فلما جاءه الرسول طلق أرينب ثلاثا ومكث بالشام منتظرا يوم الزواج فلما طال بها الأمر وخرجت أرينب من العدة أعلنت ابنة معاوية ان مشاروها ثم يوافقوها على الزواج به وعلم ان معاوية أرسل أبا الدرداء ليخطب أرينب ليزيد فقال عبد الله بن سلام ان شاء الله الأمر الذى دبره لا يتم لهم وسكت فقال لى ماذا حصل بعد ذلك ؟ قلت يكفى ما سمعتم وقمت من عندهم فقال لهم بعدى هذا الزواج انحل وبطل قالوا له كلام مستحيل فقال لهم مافهمتم ماقاله بابكر ولولا انه ضمن انحلاله ماصرح بما قال وهم فى هذا اذ جئت بالزاد والتسريح وقلت لمريم هذا زادكم وهذا تسريحكم والسفر يوم الخميس وهو اليوم المقرر للعقد فقالت مريم : نسافر بالبر أو بالبحر ؟ قلت بالبحر والريس استلم الأجرة للدبة ، فقامت من وقتها واشتغلت فى زادها وفى يوم الخميس أنزلتها المركب للدبة وكتبت لهما جوابالعمى محمد أحمد شكاك الذى هو مندوبا للدبة من أحد عبيد يونس عامل الجهة القبلية لدنقلا فوصلا لها بعد خمسة عشر يوما هربت وراءها ففى يوم واحد فى دنقلا وصلت الخندق برجلى والمسافة أربعون ميلا لكن وصلتها عادم القوة فاستقمت فيها يوما كاملا كامنا فى بيت النور الخبير الذى كأنه خربه . وصلت الدبة ووجدتهما مقيمات فى شاطىء النيل دون بيت وعمى محمد أحمد موجود ولم يأت أحد من أهلها على قرب الدبة من فقراكتنى . فقال لى عمى محمد أحمد شكاك الا ترجع حفصة قلت أريد أن أتزوج كلتوم بنت الحسن ـ قال الأحسن انك ترجع حفصة تحلل ترحيلك لها حتى تصل وانت بزوجتك فاذا وجدت كلتوما موجوده وسعيد أخاك ورضى يزوجك بها هناك طلق حفصة فقبلت مشورته أجرنا جملا لمريم وابنتها ومشيت برجلى حتى وصلت مكانا يسمى أبا سيال أصابتنى حمى ورعاف فأجرت جملا بأربع ريالات يحملنى على رحل التمر فلما وصلت نصف المسافة (جيدين) بها بيت الجمال ناير وغيره أقاموا به أسبوعا تماثلت للشفاء ووجدت انى لا نقود لى أدفع منها الأجرة ولا أعرف من أعتمد عليه فى دفعها لى بضمان فلما شد

رحل جمله قال لى تعال اركب قلت له لا أركب فضربنى بكفه على خدى حتى رأيت البرق خارج من عينى فسابته مريم حتى أوجعته سـبا وهددته بأهلى بأم درمان فصرت أقفو اثر الجلابه وألقها بعد أن تنزل بمسافة لضعفى فلمـا وصلنا المرحلة التى قيلنا فيها وفى المغرب ندخل أم درمان ، جاءنى ناير الجمال ومعه جماعة وقال لى سامحنى فسامحته فقال اعطنى أمان الله ورسوله ماتؤذينى قلت لك أمان الله ورسوله لا أذيك وقال لأنه سمع ان خليفة المهدى نبه ان من يصفع أحدا تقطع يده ، فجاءنا فى تلك القافلة نساء عندهن دهن وشحم وودك يجلبنه وكان راس حفصه ممشطا جديدا وما عندنا من النقود ولا العروض غير ملابسنا التى علينا وكاسا صغيرا من القرع نشرب به الماء فاشترينا دردوما ودكا كان من احداهن بذلك الكأس فمسحت به حفصه مقـدم رأسها الذى يظهـر للناظرين ودخلنا أم درمان ليلا فسألنا من عمى مالك فعلمنا انه بكردفان وكان ذلك يوم ١٥ صفر الخير سنة ١٣٠٩ هـ

نزلنا عند الشيخ بانقا موسى وكيل الراية الزرقاء لأن زوجته الكبرى ابنة عم زوجتى فأعطونا بيتا فيه أختها زينب والحرم بنت علوب فمكثنا عندها وفى الغد أتانى ناير يطلب الريالين فتوجهت معه للسوق لعلى أجد من أعرفه فيسألنى عن حالى حتى أصل الى مناسبة أطلب بها منه سلفة الريالين وهـو لا يفارقنى لحظة فمررت على كثير من أهلنا الرباطاب وأولاد خلوتنا برفاعه كأبى الفتح وسالم عبد الأمين والمهدى أحمد وعبد الله الزبير وكل منهم يسلم على ثم ينتبه لعمله فأبرح دكانه حتى خرجت من السوق فقلت لناير امشى معاى للبيت أقلع لك جبتى هذه تعال بعها فى السوق خذ الريالين وجئنى بالباقى من ثمنها وبينما نحن جالسين نتراود اذا بالمدنى مصطفى جاء مارا فرأيته وبعد السـلام مشيت معه الدكان فأخذت منه الريالين أعطيتهما نائرا الذى أخذهما ومشى فأخبرت المدنى بكل ما حصل من ناير لى بمنزله فأخبرنى أنه ما طلب منك العفو الا انه سمع بتنبيه الخليفة وأقسم على أن أشتكيه فمشيت للمحكمة التى يرأسهـا الطيب ولد العربى رحمه الله فشكوت له ناير ومعه مساعدوه حاج على وحسن خبير فأخذنى من بينهم ودخل بى فى غرفة وأخبرنى بتنبيه الخليفة وقال لى ان

أباك لا يضر الناس فاذا قدمت لنا هذا الرجل نحبسه فى حر الشمس ومطر الليل واذا قطعت يده أتم أولاده وهو حى ويمكن الجبل أخذه من أصحابه بالنصف فيغنم وتؤخذ نظيره أغنامه ان كانت له أغنام اتركه سامحه لله كأبيك فوعدته بذلك ولكنى خفت من المدنى فأخذت من حراس المحكمة أحدا وتوجهت لناير بمنزل أحمد الخضر ابن أخت خوجال أم برير ووجدته نائما فأيقظته وقلت له انى شكوتك فى المحكمة وهذا رسولها فنزل فى الأرض ووضع يديه فى التراب وقال لى يا بابكر تعطينى أمان الله البنزل الكفار من الجبل وتشكينى يسجنونى فى الحر والمطر وكرر كل كلام الطيب لغاية غنمه التى تؤخذ نظير الجمل قلت له لكنى يا ناير أنا فى بيتك تضربنى والآن مررت بى كل السوق فى الريالين حتى استلفتهما لك أعطنى الريالين واعطى الحرس قرشين قام وجاء بالتسعة ريالات وقال لى : هذه أجرة الجمل كلها خذها واتركنى لله ولأولادى الصغار ما رأيك يا قارىء فوالله لم آخذ غير الريالين اللذين أعطيتهما المدنى مصطفى الذى باع حمارى الراكبة عليه امرأته والذى صرفت عليه من مصر الى أسوان وعلى زوجته فأخذ الريالين ووضعهما مع نقوده ولم يقل لى من أين جئت ومن جاء معك فقمت منه وتوجهت للمنزل الذى به زوجتى ولم أقل منزلى — أخذت أقل من أسبوع بأم درمان وتوجهت لأمى التى كانت بالكاملين عند سعيد أخى وهو ولدها الكبير الذى تقسم بحياته والذى كنت آمل أن يزوجنى كلتوم بنت الحسن وجدت والدتى فى مخزن مظلل لها بقصب وفروع طلح مسوسات والشمس من خلال القصب كالدنانير عليها فلما كان المغرب طلبنى وعنده عنكوليب فأخذت منه قصبات وقلت لخادمته الصغيرة أوصليه لأمى فما أدرى أغضب من هذا التصرف أم لسبب آخر لم يطلبنى بعدها فقط يأتى بأكله عند عمى الفقيه محمد شكاك كغيره من أهل المنازل أكل معهم وفى صبيحة يومى كان يوم سوق الكاملين اشتريت منها جلدا صغيرا بقرشين ولوح عشر بنصف قرش وموس بقرش وفرشت أجلد حتى العصر حصلت أربعة قروشا اشتريت منها عنقريبا ورغيفا وراس نيفة خروف اديتها لوالدتى والعنقريب القديم المكسور وضعناه للحسنى تنوم عليه وكانت تنام على برش وجعلت أجلد للبنات فى البيت ويوم السوق بالسوق حتى اشتريت لوالدتى نصف أردب غلال وغنماية فظللت لها

نصف البيت بالحطب الجميل من السور وسقفته بالنال بحيث المطـر لا تنزل علينا ولا الشمس تخرقه وودعتها حيث دعت لى دعوات صالحات تذوقت حلاوة اجابتها فى فمى • وصلت أم درمان التى نويت أجلد فيها بالسوق وبالمنزل ولكن زوجتى منعتنى لأن حرم بنت النور أعطتهم نصف أردب عيش والمنصور ولد أبو كوع الذى حضر من بمبى بالهند أعطاها ملابس فباعتها فصرنا نتصرف منها

المناديب بالجزيرة :

عند ما جاء وقت خروج المناديب للجزيرة خرجت مع مختار محمد قريش الرباطابى ككاتب له ولما وصلنا الكاملين أنزلت أمى والحسنى فى مركب لمدنى وعلمت ان السهوة بنتها برفاعة والمدنى غائب عنهن فأرسلت لها تأتينا بمدنى وفعلا جاءت فلما وصلت مدنى وجدت الجعلى ولد محمدالبشير ساكنا بمربوعة خالى أحمد عطا المنان واضعا ملحه فى القطيتين فقلت للجعلى حول كل الملح فى احدى القطيتين واخلى لنا واحدة منهما فرفض فلما لم يرض باللين وبواسـطة قلت للجهادية الذين معنا خذوا الملح الذى فى القطية الكبيرة وارموه فى البحر فلما أخذ كل واحد منهم عدلة قال اصبروا لى لغد أجى بعتاله يخرجونه قلت كم أجرة العتالة قال أربعة عـدل بقرش قلت اعطنى الأجرة للجهـادية فقبلوها وأخرجوه فى الحال فكنسناها وأدخلنا فيها أمى وابنتها • أحمد عطا المنان ولد مصطفى ولد دياب والدتى مدينة بنت محمد دياب والجعلى لا يجتمع معه الا فى رباط ولكنه والده ابن أخ والدى فلا تنكر على أيها القارىء بعد أن عرفت هذا النسب فان والدتى أولى منه تركنا أمى ومن معها وتوجهنا الى الكريبـه مركز المندوبية وحلالها كثيرة مع مختار المندوب بخلاف الجهادية ومعنا أولاد تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين سنة أو يزيد بعضهم قليلا لا يقلون عن الجهادية قسوة ان لم يزيدوا عليهم لكنهم زناة أكثر من الجهـادية يحكى كل منهم بما عمل معها فكنت أنكر عليهم هذا العمل الذى لم يخطر ببالى ان أحدا يجرأ عليه ومختار نفسه لا يخلوا لكنه مقل جدا ويختار الأمكنة • لا أخفى ما حصل منى ولكن الله سلم لما كثر منهم ما يحكونه الفه سمعى ثم ترقى الى محبة سماعه وكنت أمين النقود فى جرابها المتخذ كخزينة فوردتها مرة للعـامل بمدنى وأنا راجع أخذت نفسى تنازعنى هل انت الجنيد قلت ان الزنا فاحشـة

لا تقربينه ولو مرة وتستغفر الله فلما وصلت حلة الوراق وكنا معسكرين بها ملكتنى نفسى فذهبت الى امرأة وأظنها من أهالى كردفان وجدتها تطحن على مرحاكتها وجلست أمامها مدة وهى كأن لم تشعر بى ثم أمسكت يدها فتركت الطحين وبعد مدة قالت لى : ماذا تريد منى ؟ قلت بصوت الخـائف : أريدك ترقدى معى . لماذا أرقد معك ؟ أنا والله منذ خلقنى ربى لا أعرف مثل هـذا خرجت من عندها وقلت أعوذ بالله أول ما ابتدىء أهتـك محصنـة وتذكرت قول الشاعر :

ان الزنا دين اذا ما استقرضته فوفاؤه من أهل بيتك فاعلم

وقمت من عندها فأخذت تطحن فلما وصلت سريرى ورقدت وأنا أرتجف جاء مختار وسألنى عن رحلتى فلم أتكلم معه وارتجف فسـألنى وألح على فأخبرته بالحقيقة فضحك منى وقال المرأة ضحكت عليك فاطمأننت حيث علمت انها كذلك وحمدت الله على سلامتى منها ولم أعد الى مثلها والحمد لله

نقلنا من مندوبية الكريبة القريبـة من مدنى حيث كنت أبيت مع أمى الحبيبة كل ليلة جمعة وأصلها بهدية وأرجع منها مغتبطا مسرورا بما أسمعه من دعوتها رحمها الله

نقلنا الى مندوبية الرضمه حلة الرجل الكريم يوسف ولد الزين العركى الذى يمثل الوطنى السودانى البسيط فى طبعه السخى فى ماله العظيم فى مروءته كثير الطعام حتى يذكرك كلام الشيخ أحمد الريح العركى « أكان ما عجبنى من بجينى » مكثنا بها حتى قرب عيد الأضحية الذى هو منتهى زمن خدمة الضرائب حيث يرجع كل العمال من الجزيرة ليحضروا العيـد بأم درمان بالأمر ثم يستأنفون عملهم فى أو بعد صفر الخير من كل سنة .

ففى هذه السنة التى هى سنة ١٣٠٩ هـ حصلت بأم درمان ما يسمونها بحركة الدناقلة فرأيت من قبض عليهم الصالح حمـدو من الكاملين ورفاعة ومدنى وجزيرة الفيل فى يوم وساعة واحدة بحركة منتظمة حتى لا يفر أحدهم من مكانه فينجو من القبض عليه وقد مر علينا صالح حسن وعبد القادر أخوه وكريب نور الدين خناقية رفاعة أقارب المهدى عم فى دفعة تربو على المائة نفر كلهم مشعبون فزرت هؤلاء لأنى عرفتهم منذ نشـأتى برفاعة وأبكانى حالهم

بهذا الذل بعد ذلك الرغد فى أيام دولتهم بحياة المهـدى وبعدها حيث كانوا فى المنازل الكبيرة فى الحشم والخيل المنقودة كانوا واسطة أغراض أصحابهم ومحل آمالهم فقلت هذا مصير الدنيا وذكرت أيام بؤسى عند مدينة أم موسى فحمدت الله وودعتهم بعدما أعطيتهم ما كنت أقدمه لأمى فى ذلك الأسبوع من الكريبه

قلت نقلنا للرضمه ونحن بها أرسل أحد التعائشة المدعو الرشيد كرومه جهاديين من حلة عسير التى تبعد نحو عشرة أميال من الرضمة بكتاب لمختار محمد المندوب يطلب منه ارسال ما حصله من النقود والدمور فأبى مختار وارجع الجهاديين بلا شىء فما كان من الرشيد كرومه الا أن يرسل ثلاثين جهاديا لمختار الذى كان أخذ شربه فى ذلك اليوم ، ليأخذوه له راجلا الى حلة عسير فلما جاءوا وكان مختار خارج المنزل قالوا : أين مختار ؟ قلت لهم أنا : مختار تمنيت ان مختارا لا يراهم فاذهب معهم أو أعطيهم ماشاءوا ولكن مختارا حضر فى الحال فقال لرئيسهم : ماذا تريد ؟ قال أخذ مختارا الى سيدى الرشيد فأمر بشد حصانه فقال له لا أمرنا ان نأخذه راجلا فقال مختار يمشى معكم وهو حى راجلا قال : « واى » بمعنى نعم : قال يجب أن تفهم ان موت مختار وأخذ رأسه من أذنه أقرب من مشيه راجلا أمامهم فسمح له بالركوب على حصانه فلما خرج من الحلة أنزلوه من حصانه وجروه وهو راقد نحو مائة متر فلما رأوا عناده اتفقوا معه على أن يركب فاذا قرب من حلة عسير ينزل راجلا فصمت وظنوا انه وافقهم فلما قرب من الحلة طرد حصانه فدخلها رامحا حصانه ونزل عند من يعرفه وتوجه الى الرشيد فسجنه فى قطية . لما أخذ منا مختار منفردا ومنعنا عن السير معه أرسلت بوستة بجمل للعامل بمدنى أخبرته بما حصل فركب العامل بنفسه لعسير بعد أن أخبر الشيخ أحمد السنى عامل عمال الجزيرة بخطابى وأرسل لنا رد كتابنا بأن نقابله بعسير فنحن سبقناه ووجدنا مختارا مسجونا فطلبنى الرشيد وطلب منى تسليمه ما عندنا من النقود والدمور فقلت له العامل عثمان عوض الله سيصل الآن من مدنى فاطلب منه ماشئت فقال لى حقيقة انه أتى فأخرجت له كتابه لى فجمع جماعته وقام من البلد وترك مختارا فى سجنه أستحسنت أن يبقى به حتى يصل العامل ولكن قابلته وأخبرته بكل ما حصل فاستحسن هو أيضا أن يبقى بسجنه فلما وصل العامل وأخبرته بقيامهم وكان العامل مسالما فحمد الله الذى صرفهم وشكرنى وأخرج

مختارا من سجنه فرجعنا والعامل معنا الى الرضمه وأرانا مختـارا مكان جره بالأرض فمثل هذا كان كثيرا من البقارة مثل « أب دقنـا أمر » لأنه اذا طلب شيئا من عامل أو مندوب أو شيخ حلة وطلب منه تقديم أمره لينظره قال « هى دقن ده ولا أمر » وأخذ ما أراد قوة ان استطاع . أراد مختار أن نفترق لأن الوقت قرب والأعمال متأخرة فعين لى حلة ولد الجالب والصراف وهمـا أكبر حلال المندوبية بعد السبيرات فجعلت مركزى حلة ولد الجالب واذهب للصراف عند الحاجة وبين الحلتين نحو ميل واحد ــ بعد رمضان بدأنا فى تقدير وتحصيل زكاة الفطر وكانت الفطرة فى تلك السنة قررت قرشين على الشخص الواحـد فطلبت رجال حلة ولد الجالب ووضعت لهم المصحف الشريف كالمعتاد الواحد منهم يحلف ويوضح لى أنفاره الذين ينفق عليهم دون نقص فلما أتممت الكشف وجدت من به أقل مما أراه بعينى فى الشـوارع والبئر فأخـذت رأى نزيلى محمد ابراهيم فقال لى : نقبل منهم ما حلفوا عليه فأعملت فكرى فيما أصنعه من الحيلة لأخذ الفطرة على حقيقتها فاهتديت لما يأتى :

جلست منفردا حتى مر بى صبى نحو الثامنة من عمره فطلبته قلت له من أبوك ؟ قال عبد الله الحاج على . ما اسمك ؟ فلان . واخوانك ؟ فلان وفلان الخ حتى عدد ٢٣شخصا وكان أبوه قيد لنا ثمانية فقط فصرفت الطفل وبعـد مدة طلبت والده فقلت يا شيخ عبد الله انت رجل غنى بحمد الله زكاة الفطـر يتوقف على ادائها كاملة قبول الصوم وهى فى السنة مرة وفطـرة بيتك التى تلزمك لا تتجاوز ستة وأربعين قرشا يعنى ريالين وستة قروش ثمن خـروف تذبحه لضيف ادفعها وأبرىء ذمتك قال لى : الثمانية أنفـار بستة عشر قرشـا الثلاثون قرشا من أين جاءت . قلت أنفارك ثلاثة وعشرون نفرا قال أبدا . انت حلفتنى الكتاب قلت : نعم ، ولكن اسمع وقرأت له الكشف على لسـان ولده اطرق وقال لى من أملاك هذا ؟ فقلت : املانيه فلان ــ لأحد جيرانه ــ قال : هو كاتب كم ؟ قلت خمسة أنفار . قال لى امسك أمليك أنفاره وأمسكت القلم وقلت له بأسمائهم نعم فلان وفلان حتى عدد ١٥ نفرا طلبت جاره هذا وكررت له المذاكرة السابقة وقرأت له أسماء أنفاره قال من كتب لك هذا قلت جارك فلان قال أيضا هو كاتب كم نفر ؟ وهكذا حتى كتبتهم على الحقيقـة وحصلت

منهم مبلغا لا يأمله مختار ثم فى بعض الأيام تبرزت لحاجة الانسان وحفرت براس حربتى لاخذ ما استجمر به نخرج لى عرق ذره جديد وكنت مصدقا انهم لا محصول لهم هذه السنة ؟ لأنهم كما قالوا لى سكبوا بلداتهم حتى أخفوا اثر الزرع ونقلوا القصب فى زرائب بعيدة عن الحلة غربها فلما وجدت العرق الأبيض تأكدت من محصول تلك المزرعة فسألت عن صاحبها فطلبته وقلت له زكاة الغلال فقال البلد صافقه قلت فلان أخبرنى انك حصلت ٢٣ أردبا من الذرة ولم أصدقه حتى أوصلنى بلادك وأخرج لى عرقها الجديد . قال فلان أخبرك قلت نعم قال هو بلاده حصلت كذا وهكذا حتى حصلت منهم قيمة ١٤٨ ريالا ومن الطرف مثل ذلك ٧٢ ريالا ولما كنت لا أملك سلطة كتابة الوصولات أخذتهم معى لمختار الذى وجدناه بحلة ولد ربيعة بالخوالدة فسلمت عليه وكنت أنتظر منه اجلالا بالنسبة لما حصلته فى الفطرة وأرسلته له مما لا يأمل ولا يحلم به فمد لى يده وهو ملتفت عنى أمام الناس فانفت لتلك المعاملة ورجعت للجماعة أهل عشور الغلال وقلت لهم المندوب بقى على السفر وما دام هو ولا غيره لا يعلم بغلالكم خذوا نقودكم وارجعوا فاعطونى منها عشرين ريالا فكانت هى نصيبى .

أخذ الجماعة باقى نقودهم ورجعوا فلما وصلنا أم درمان أخبرت مختار بما حصل على أصله فقال لى : يا مربوط ماكنت تقول لى اعطنى الخاتم حسب العادة امده لك فتكتب لهم الوصولات وتأخذ الفلوس كلها أو جلها وتورد الباقى فقلت له ذمتى أضيق من ذلك هذا تعمله أنت وأمثالك المدربون على البلع وضحكنا .

فى حلة ولد الجالب جاءنى يوسف أخى من كركوج أرسله أبى ليرانا ويتعرف أحوالنا وكانت حالته رثة تدل على فقره وعدم شغل فما وجدت عندى غير أربعين قرشا دمجا وأعطيته عمة كنت غزلت لحمتها وسداها من حشو بناج العشر وكنت معجبا بها لأنها تشبه الحرير من المضحكات ان الناس كانوا اذا قصد أحدهم السوق ولم يكن دفع الفطرة وأخذ الوصل يستعير وصلا من أصحابه فيعرضه للمحصلين حينما يطلب منه وصل الفطرة

وفى يوم كنت بسوق حلة الصراف أحصل الفطرة فجاءنى المساعد برجل

مدعى وصلا فقلت كالعادة ما اسمك ؟ فنسى اسم صاحب الوصل المستعار منه ورفع راسه كالمفكر فكررت له ما اسمك ؟ اسمى . ما اسمك ؟ فقال اصبر لى ياعيسى (صاحبى) ما اسمك ؟ فقال اسمى الله يخربه . ونحن نضحك ثم قال والله (الياكلك ابصر منك) هاك قرشين فأخذتهما وكتب له الوصل .

برجوعى من الجزيرة فى شهر الحجة سنة ١٣٠٩ هـ وجدت حماتى بنت بيتا مساحته خمسة أذرع طولا وعرضا ورحبته أمامه كمساحته أو تنقص قليلا وفى شماله أرض فضاء لمحمد على شنقراوى طلبت منه ذراعين على طول بيتنا لنجعلها مرتفقا فرفض وسكنا فيه حتى جاء عمى مالك وسافرت لسواكن كما سيأتى وبرجوعى طلبت من زوجتى الرحول منه فقالت لا أرحل من جوار أهلى وما رضيت فراقها لهذا المنزل حتى ملأته بضاعة من تجارتى أودعت باقيها عند الجيران أيضا حينما رجعنا من الجزيرة وجدنا عمى مالك حضر من كردفان فسلمت عليه وقلت له اعمل أحد أمرين اما ان تأخذ منى والدتى وبناتها وتتركنى أعيش وزوجتى واما أن تعطينى مائة ريال أتاجر بها فى التمر من دنقلا بالربح فقال لى المائة ريال لو دفعتها لك ما بتنفعك . الناس قالوا « الريف اذا ما أغناك يستر حالك » انتظر الى أن يصل المنصور أبو كوع من سواكن سافر معه .

بين سواكن وأم درمان :

والسبب فى أنى طلبت التجارة فى التمر لأمرين الأولى ان العقل يعتبر قاصرا فى جميع ما يجهله مهما كان صاحبه والثانى انى رأيت جلابة أحمدالخضر الذى جئنا معه من دنقلا فعشقتها لأنها أول منظوراتى التجارية . جاء المنصور وترك البضاعة فى حلة الشيخ الطيب فصحبته لاحضارها لأم درمان ولكن قبل قيامنا التقيت صدفة بعمى يوسف سليمان مندوب بيت المال وقلت له عندنا اثنى عشر رحلا بضاعة فهل يمكن أن تتكرم وتعشروها لنا فى بيت عمى مالك فقال لا يمكن بل تعشرها فى الوكالة فذهبنا لاحضارها وفى الطريق ونحن راكبين اتفقنا على أن أتأخر أنا مع الفاتورة ويأخذ المنصور جمال الموزونات ليخبئها عن العشور بمنزل عمى مالك الذى بجوار السوق .

فلما دخل البلد ليلا كان السحاب مع ظلمة آخر الشهر سببا فى ضلاله من البيت وصار يتجول فى السوق حتى نزلت المطر عند باب المحكمة فبركت

الجمال وصارت ترغى حتى خرج عليهم حرس المحكمة وقادهم لوكالة بيت المال حيث بات المنصور فى الوكالة فسمع عمى مالك فى الحال فمكثنا ننتظرمايفعل الله لنا فجاء عمى العوض المرضى أمين بيت المال واجتمع حوله أرباب الحاجات طلبنا فك بضاعتنا وقال له هذه غنيمة وقد تم الحكم نهائيـا فأنا آسف فلما سمعت حكمه هذا تقدمت فى الحال بما ألهمنى الله تعالى فى الحجا والحجـة فقلت والله يا عمى العوض ان احتلتم علينا وجدتم السبب وان سمعتم حجتنـا وانصفتمونا ان شاء الله نخلص منكم وقال فما حجتكم حالا التفت على الناس حوله وقلت لهم بالله يا أعمامى اسمعوا كلامى واحكموا بالحق يا جماعه الذى بريد أن يسرق بضاعته من بيت المال يخبر بها عمى يوسف سليمان عددا ونوعا قال عمى العوض لا قلت وهل يمر بها على ود قراى بكررى ويأخذ منه جوابا بعدد رحوله قال عمى العوض لا فالتفت لعمى يوسف سليمان وقلت له أتذكر انى لقيتك أمس وانت خارج من منزلك وقلت لك عندنا عشر رحلا بضـاعة هل تسمح لنا بأخذ العشر منها بمنزل عمى مالك فقلت لا يمكن الا فى الوكالة قال عمى يوسف صحيح وكنت استلمت من ولد قراى بعد ما أخذ رشوته فى جمال المثقلات جوابا لعمى يوسف بعدد جمالنا كلها احتياطى فأخرجت الجواب من جيبى وقدمته لعمى العوض فلما قراه فتح فمه ونظر الى كعادته حينما يفكر وقال يا مالك هذا ولدك ؟ . قال ابن أخى وشريكى قال عمى العوض طيب نأخذ نصفها فقلت الانصاف ياسيدى قال الثلث فقلت ان كانت الحجة قائمة فخذوا العشر ثم التفت على الجماعة قبل أن ينطق عمى العوض بقراره النهائى وقلت لهم بالله عليكم يا جماعة هل يتوه أحـــد من منزله فى أم درمان فصمتوا .

نحن عادتنا فى سفرنا هذا من سواكن نشد جمال الموزونات أولا لتتقدم لأنها مثقلات ثم نشد جمال الفاتورة الخفيفة ونلحقها ولما كانت الشدة الأخيرة من العجيجة مكان عمى ولد قراى وصفوا للجمالة الطريق الغربى ولما وصلنا مفرق الدربين عرفنا انهم تاهوا فلحقهم المنصور على حماره ولما دخل الليل واكفهر بالسحاب قصد المحكمة وأناخ جماله عندها فأسألوا الحرس أين وجدوهم فقال عمى ابراهيم شمو الشهير بود أبو روف والله يا العوض الصبى دا ما خلالك

سبب تأخذ منه أكثر من العشر فقال العوض لعمى مالك : عندك بخت ثم التفت الى يوسف سليمان وقال له خذ منهم العشر فشكرناه وانصرفنا وقد كافأنى عمى مالك على هذه الخدمة بأنه تركنى كلما أخذ تاجر صفقة بيعه أقول له : أنا شريكك فيعطينى ريالا أو ريالين خلو رجل فلما انتهى بيع البضاعة حصلت خمسة وأربعين ريالا فأرسلت الى أمى مأمون عبد عمى مالك وأحضرها من مدنى وكان المدنى مصطفى حضر وأخذ أولاده لرفاعة فأسكنا أمى فى منزل عمى مالك الذى بجوار السوق وبه عصارته وسافرت مع المنصور بالصمغ لسواكن لعمى مالك النصف للمال ولى وللمنصور النصف الثانى فتأخر المنصور بأم درمان وسافر الصمغ قبالى من أم درمان لبربر بيوم بمركب ريس لا أعرفه فسافرت غدا بمركب الريس ود أحمدو ومعى أبو الكيلك نصر الدين الميرفابى التاجر وكان عندى مصاريف الصمغ للحكومة والجمالة أكثر من ألف ريال مجيدى فى عيبة ملفوفة فى اللحاوية فلما وصلنا بربر وقفت المركب ليخرج أبو لكيلك قبالة بيته قلت له خذ هذه اللحاوية واحفظها للصبح لأن الزمن الآن بعد الظهر ومستخدموا بيت المال لا يأتون الا ضحى الغد فأخذها وذهبت لمحل الصمغ بحوش الدار فوجدت صمغنا مرصوصا ولكنه ناقص عدله فكتبت لعمى مالك بذلك • صليت العصر فى ظل الصمغ وآخذ أقرأ فى الراتب فاذا الفقيه ابن عمى الطيب الخليفة على حمارته بالقرب منى فقمت له وفسحت له عن الفروة فجلس يسألنى عن أفراد العائلة وأجيبه فاذا هو ينتبه انتباهة غير عادية معها هزة ويقول بلهفة أين نقودك التى جئت بها قلت أعطيتها أبو لكيلك يحفظها للغد فقال اركب هذه الحمارة وأتينى بها قلت ماذا أقول له قال لى بحزم لا أدرى ماتقوله له وانما أنا فى أنتظارك تأتينى بها الآن . ركبت الحمار ووصلت أبو لكيلك وقلت له وجدت أحمد عبد الكريم ومحمد صالح جالسين عند الصمغ طلبا منى النقود فناولنى اللحاوية ووضعتها على السرج وركبت خلفها فلما قربت من الفقيه الطيب طلع على الصمغ وقال لى ارفعها فرفعتها بصعوبة عدله الى عدله حتى قربت منه تناولتها ورفعتها معه فرماها بين عدلتين ونزل • ركب حمارته وودعنى ففى صباح غد نقب بيت أبى لكيلك وأخذ جميع مافيه من

المحصولات فلما جئته مسليا ومتوجعا كغيرى قال لى والله انت ولد حلال لو كانت لحاويتك عندى وما أخذتها أمس كان أعدائنا يشيعوا علينا انا تقبنا بيتنا لأجل ان نخون نقودك •

ولما طلعنا من بربر لسواكن أجر المنصور لنفسه جملا ولى جملا يسمى جمل ركوبه يحمل عليه الماء والزاد ويركبه المؤجر فيقرن فى قطر الجمال ويمش طرقه على مهل فكنت أضجر من الركوب فأنزل وأمشى أحيانا أكثر مما أركب فى كل مرحلة أراد المنصور أن يؤجر لى جملا فى رجوعه من سواكن قلت اعطنى أجرة الجمل فأعطانيها أربعة عشر ريالا فقلت لابراهيم على اليعقوبابى يا ابراهيم انت لما جئت من بربر كنت راكب كل المسافة قال لا والله يمكن أقل من نصفها قلت هل توافق ان نؤجر جملا واحدا نحمل عليه مائنا وزادنا وتتعاقب عليه قال أى والله فأجرنا جملا واحدا ووفر كل منا سبعة ريالات جاء المنصور أبو كوع ومأمون وأخذنا نقطع الصمغ بالجمال ببربر وقد كانت الحرم بنت النور أعطتنى ثلاثين ريالا على نقودى الخمسة وأربعين ريالا اشتريت بها صمغ وقلت أظن ان المنصور يكلفه لى على حساب صمغ الشركة ولكن انعكس أملى فقد حاسبنى المنصور حتى على السلبتين اللذين ثمنهما ثلاثة قروش ولما وصلنا سواكن وجدنا الصمغ رخيصا جدا يمكن يخسر أربعة فى المائةمما زادنى حرجا ان الصمغ الذى كان فى عهدتى أدخلت الحاصل من الجمل نقص عدله جمل فلما علم المنصور جاءنى وقال لى مكان وديت هذه العدله ارجعها فى البحر فى بربر ضيعت عدله وهنا ضيعت عدله والله ان لم ترجعها أخصمها من حسابك الخاص • أحرجتنى هذه العبارة الصريحة بالتهمة وأعملت فكرى كيف أتحصل عليها وأخيرا قررت أن أتعلم الوزن على ميزان الطبلية فاوزن لكل التجار مجانا بدل القنطار قرشا ثم لثقتهم بى بأنى لا يمكن أن أعامل عليهم الخواجات وأخونهم فى الوزن كغيرى فانكبوا على وفى يوم وزنت صمغا لسليمان كشه فجاءت العدلة وعليها علامة صمغنا فقلت للعتالة ضعوها ورائى وأرسلت للمنصور وقلت له هذه عدلتك وهذا سيدها فادعاها كل منهما فلما اشتد بينهما الجدل قلت لهما كل منكما يعد صمغه أزواجا لأن الجمل لا يحمل عدلا واحد فمن وجد فى صمغه عدلا بلا زوج فهى له فظهرت للمنصور • ولكساد

السوق شحن المنصور الصمغ لمصر وسافر معه بعد ان ربط لى اربعة رحول فاتورة وارسلنى بها لام درمان لعل عمى مالك يحتاج الى نقود فلما وصلنا ككريب وجدنا ابا الفتح موسى دقنا حضر بها لان عمه العامل عثمان دقنا قرر بها عشرا على البضائع التى تمر عليها بدلا من خمسة ريالات على الجمل كالصمغ فاول ما بدأ هذا العشر فينا فلما نزلنا طلبنا ابو الفتح بمكتبه واخبرنا بتقرير العشر ولم يقبل لنا اى عذر ثم التفت عنا وصار يكتب فى الرملة بخط جميل كلمة الملك ويمسحها ثم يكتبها فصرت كلما كتب الملك كتبت لله فلحظ ذلك ثم ترك الكتابة وامرنا بالانصراف ثم طلبنى برسوله رجعت اليه فقال لى كلما كتبت انا كلمة الملك انت تكتب كلمة لله قلت لاذكرك لئلا تستمر فى لذة الملك فقال لى انت من اصحاب المهدى ؟ قلت نعم : هل هاجرت فى سرية . قلت نعم هاجرت فى سرية ولد النجومى . هل شهدت واقعة ؟ نعم شهدت ثلاث عشر وقعة اولها فى قيقر صالح واخرها فى ارقين . هل طبعت بطابع الشهداء . لا لم يكتب لى ذلك رغم تعرضى له ورغبتى فيه هل خدمت فى بيت المال ؟ نعم هل يوجد عندك دفتر تبدأ لنا فيه حصر ما نأخذه اليوم نوعا وقيمة ؟ نعم وأتيته بدفتر وروسته له ثم أرسل معى أحد جماعته كرئيس علينا ومعه مساعدوه فدخلنا الجلابة وعشرناها وكتبناها عددا ونوعا ولم تبق الا أربعة حولنا فطلبنى وقال لى لا بد من أخذ العشر منك • سمعا وطاعة فأى القماش أرخص قيمة قلت التنش كم ثوبا . الرحل عشرون ثوبا كم رحلا عندك ؟ أربعة رحول • احضر ثمانية ثياب • حاضر • ذهبت واستلفت الثمانية ثياب سلمتها لرسوله فطلبنى وقال لى كلما جئت فقابلنى دائما وودعته وسافرنا • وصلت أم درمان ووجدت البضاعة غالية جدا فسلمتها عمى مالك ولم أعلم عنها شيئا أما رحل صمغى الخصوصى فبعته بسواكن واشتريت بثمنه بسطاوية جوخ اسود خيط للرقع وقدر نحاس صغير مجموع فلما وصلت أم درمان بعت البسطاوية والمجموع وأعطيت الحرم أماناتها بربحها ووفر لى مائة وأربعة عشر ريالا اشتريت لزوجتى خدامة كبيرة تدعى أم نعيم ماتت وعمرها أكثر من مائةوثلاثين سنة لأنها قالت هى أكبر من السلطان حسين الذى توج سنة ١٢٥٤ هـ ومات سنة ١٢٩٢ هـ وهى ماتت سنة ١٣٥٧ هـ ثم اشتريت لوالدتى خادمة •

وأرسلت ليوسف أخى بكركوج أن يأتينى لنتاجر معا وقبـــل مجيئه سافرت لسواكن شريكا لعمى مالك مباشرة فلما وصلت بربر اشتريت حمـارا ركبت عليه وأجرت لمائى وزادى بأربعة ريالات فصرت أمشى أمام القطـــار مسافة بعيدة وأنزل وأرتاح وحمارى يرعى حتى يمر بى القطار • وربما أكون نائما حتى وصلنا سواكن وصار التجار يشتركون كل اثنين فى جمـــل ركوبه كفعلنا وابراهيم على فلما رأونى ركبت الحمار وأجرت للماء والزاد اقتـــدوا فرجعت لأم درمان فحصلت فى سفرتى تلك ستمائة وسبعين ريالا ووجـدت يوسف أخى قد حضر من كركوج .

انفصلت من عمى مالك نهائيـــا بسبب انه استجر ملابس لأهله ورقيقه ومصاريف أخرى تربو على مائة ريال فلما أردت أن أحسبها عليـــه قال لى لا أقبلها الا اذا حلفت على المصحف انك مادخلت مطبخا ولا جلست فى قهوة وان لم تحلف يكون ما أخذته منك فى مقابل ما صرفته فيهما فقلت : يا عمى مالك مثل هذا الحساب يعلمنى السرقة وانفصلت منه ولم يكن بينى وبينـه معاملة مالية الى أن توفى رحمه الله رحمة واسعة فانه كان سبب معرفتنا التجارة

سافرت ويوسف لسواكن بمجيدى لأن الريال المجيدى صار ليس عملة متداولة بل صار يباع بقيمة فضته الصافية فيه واشتريت بقيمته سكرا ومحلبا وزراقا بعناها واشترينا صمغا من أم درمان وسافرنا لسواكن أنا ويوسف أخى فلما وصلنا بربر وزنا الصمغ وسلمناه الخبير الذى هو الفحل عبد السلام من فحلاب المكايلاب واشترينا ثلاثة حمير حملنا الماء والزاد على أحدهما وركبنـا الاثنين فلما يكون الماء كثير نخففه على حمارينا يوما واحدا فوصلنا سواكن فى تسعة أيام بدل أربعة وعشرين يوما بجمال الهدندوة أو ثمانية عشر يوما بجمال أهل بربر • أخذت معى عينة من صمغنا فبوصولنا بعت الصمغ بهذه العينـة واشتريت البضاعة وربطتها وسرحتها وأجرت الجمال فبمجرد وصول الصمغ سلمناه خليفة ليفى اليهودى وخرجنا ببضاعتنا التى لم نرافقهـا بل انتظرناها بككريب عند أبى الفتح موسى دقنا الذى حملنا له معنا هدية مركبة من ثوب حرير على شكل الشافونه التى يلبسها نساؤهم عادة من نسيج القطن وأقتين شايا أخضر ورطلين ريحة محلبية ورطل سرتية قيمتها نحو أربعين ريالا قوشليا

وكانت بضاعتنا ستة رحول منها واحد ريحة بيضاء اعتبرها مجموعا وخمسة فاتورة عشرناها مشكلا دفعت عنها شكل « جيب الأضينة » الذى قيمة الثوب منه قرشان ونصف اشتريتها مخصوصا لهذا الغرض من سواكن • وصلنا أم درمان وبعنا بضاعتنا التى ملأت منزلنا الصغير وجعلت باقيها فى منزل جارى الحاج سنوسابى وبعد ذلك قلت لزوجتى : « ألا نرحل بعد الآن ؟ قالت نعم : نرحل • فرحلنا بمنزل خالى أحمد عطا المنان الذى بنيت أكثر من بنيانه الذى كان فيه ورهنت منزلا بجواره لوالدتى وأخواتى • بعد أيام قليلة صرفنا مجيدى بثمن بضاعتنا ورجعنا لسواكن التى وصلناها فى أقل من ثلاثة شهور من خروجنا منها حيث لقينا الفقيه الطيب الخليفة فى بربر وقال لى : جئنى بسجادة أو حرام من سواكن فوعدته بأحدهما • ولما وصلنا سواكن بأربعة حمير ، على الرابع غمرات المجيدى وما يشربه وعليقته صرفنا النقود واشترينا البضاعة ، لم أجد الحرام للفقيه الطيب واستكثرت ثمن السجادة فاشتريت له كتاب الخرش على خليل وربطته فى بضاعتى بواسطة البنشاويش محمد أفندى طه الشايقى ابن بلدتنا وخلوتنا وهو أمين على تفتيش بيت البضائع لأن الكتب ضمن الممنوعات عن التصدير للسودان • فلقينى على صديق عند باب الجمرك قادما من بربر ونحن خارجون من سواكن فقال لى ان الفقيه الطيب يقول لك هذا الكتاب الذى اشتريته لى خير لى من السجادة والحرام ولم أخبر أحدا غير يوسف أخى الذى أنا متأكد أنه ما أخبر أحدا بالكتاب • فهذه كرامة ثانية لكرامة النقود فى بربر سنة ١٣١٠ ــ وصلنا كَكريب بهديتنا كالعادة وسومحنا فى العشر مسامحة كبيرة ووصلنا بربر أرسلنا للفقيه الطيب كتابه بالرباطاب وعملنا حيلة جديدة فى اخفاء البضائع من الرسوم ببربر وأم درمان كما سيجىء فى بابها • وبضاعتنا بالمراكب كان ضمنها الاثنان وسبعون قنطارا قرنفلا التى لها قصة طريفة وهى بعد أن سوقنا كل نقودنا قال لى الخواجه خليفة ليفى صاحبنا عندى لك بيعة قرنفل رخيصة جدا . قلت : بكم القنطار ؟ قال : أحد عشر ريالا • قلت لكن ما عندى ثمنها • قال أتركك الى أن ترجع من السودان. قلت : يعرف ذلك فى بيت المال هناك فيغنمونى • فقال محمود بك ارتيفه نزيلنا أنا أحل لكم هذا الموضوع عندى ثمانمائة ريال لمصطفى الأمين قيمة صمغه وأمرنى أن أرسلها له نقدية مع أمين فأنا أدفعها هنا لخليفة وسلمها مصطفى

بأم درمان . عملت بذلك ـ واستلمت القرنفل اثنان وسبعون قنطارا وباقى النقود شهلته بها رسوما بسواكن . لما وصلنا عقبة قرى بالقرب من أم درمان لقينا التجار الذين يقومون من أم درمان صباحا فسألهم المهدى أحمد حتى علم منهم أن قنطار القرنفل سبعون ريالا فجاءنى فرحا فأيقظنى من النوم وأخبرنى مبشرا لى . فقلت له : نومى خير لى من بشارتك هـذه ، قال : لماذا ؟ قلت : بضاعتى فى البحر لا أدرى أتغرق أم تسلم . فهل تتغنم بأم درمان أو تسلم . أتلحق هذا الثمن أم يتنازل الثمن . أفرح للناس قال لى : « تب عليك أصلك ما بتتمنى الخير »

وصل القرنفل وبيع القنطار خمسة وسبعين ريالا (أنظر هـذا الكسب يا تاجر اليوم) لما وصلنا الشيخ الطيب أخـذت عيبتى التى كان بها من الخرز والجلاد مالا تقل قيمته عن الألف ريال وصحبنى يوسف الحاج عمر قناوى بما يحب اخفاءه مثلى . وصلنا أم درمان فمررنا على بيت والدتى ، فقلت ليوسف: أسندنى لأعلو السور ثم ناولنى الشملة وهى شملة حبابية تخينة برتقالية اللون شبيهة بالبطانية اشتريتها لوالدتى . فلمـا دخلت البيت تلمست والدتى حتى عرفتها بين بناتها غطيتها بها وأخذت عنقريبا سندته على السـور حيث تناولنى يوسف . وصلنا منزلى وخبأناها فى مخبأ لا يعرف ولم نوقظ أحدا غير زوجتى التى فتحت لنا الباب ورجعنا للشيخ الطيب بليلنـا . كانت عادة والدتى أن تصحو سحرا تصلى حتى يطلع الفجر حيث تصلى الصبح وتقرأ هى وبناتها الراتب ففى تلك الليلة لم تستيقظ كعادتها فأيقظها بناتها فلما أحست بثقل الغطا عليها قالت لهن : بابكر جاء فقلن لها : لا . قالت : انظرن الشىء الذى فوقى . فلما نظرن الشملة قالت نعم جاء بابكر .

لما وصلنا من الشيخ الطيب وعشرنا ماقدمناه من البضاعة للعشر رحلنـا الباقى للمنزل . قمت توا لوالدتى أسلم عليهـا فضمتنى ووضعت رأسى على وركها وأكبت على باكية حتى ملأت دموعها أذنى اليمنى وصارت لها صوت مما دخلها من الدموع وأنا لا أحرك رأسى حتى تنبهت أختى السهوة فقالت : يا أماه ان أذن بابكر امتلأت من دموعك فرفعت رأسها ثم قبلتنى فى خـدى وقالت : أسأل لك الله أن يعطيك الولد التيمان والرزق الكيمان . فأحسست بحـلاوة روحية التى ما شككت فى أن الله تعالى يجيبها وقد فعل والحمد لله .

دخلت سنة ١٣١٢ المباركة ــ بنيت لوالدتى بيتا معنا رحلتها وابنتها الحسنى فيه ، وبعد بيع بضاعتنا وحصلنا نقودنا سمعنا أن فى الدويم قنطار الصمغ أربعة ريالات مجيدى ــ سافرنا الدويم فوجدنا الصمغ به ستة ريالات بلغنا أنه بدار الجمع ريالان وترحيله ريالان من الصمغ البائت فلما وصلنا أم حجر مركز رئاستهم وجدناه أربعة ريالات وصار بالدويم ستة الى سبعة ريالات • أخذنا نشترى الصمغ منها ومن جاراتها ، ثم اتخذنا محلا بحلة تدعى « أم بول » سكانها الدرعواب الأباجيين رأينا منهم حوادث يقف لساننا عن ذكرها فضلا عن تروينها ــ أردت أن أعرف نقصان الصمغ اللين اذا يبس جدا يكون كم رطلا فى المائة رطل ، فوزنت عشرة أرطال من صمغ الوادى الكبير الحجم اللين جدا بحيث يمتص الانسان مافى بطنه ويمضغ خارجه بسهولة فوضعتها فى طبق علقته على ظهر الراكوبة ونسيتها حتى مكثت خمسة عشريوما فى الشمس الصائفة ثم تذكرتها فوجدتها تكسرت وأبيضت جدا مما لفتنى الى نشر الصمغ لمعى البروش فى الشمس فوجدتها تسعة أرطال ووقيتين أى نقصت $\frac{٥ \times ١٠}{٦} = ٨ \, ١/٣$ ٪ فجعلت حسابى على ذلك ويزيد ماينقص من رمى الجمال عند كل نزلة فاعتبرته ١٠ ٪ فلما تسوقنا النقود أزف وقت نزول المطر فعجلت النزول للبحر وصالحنا فيما عندنا من الديون ونزلنا على ألا نرجع فلما وصلنا أم درمان وجدت بعض أصدقائى شاحنا صمغه لبربر فى مركب • رقدت ليلتين بالمركب التى بها الصمغ فنقلت ثمانية أرحل من صمغى الذى بمركبنا لمركب صديقى وخسرت فى ذلك أربعة ريالات رشوة للخفير ولم أزر والدتى فى هذين اليومين ولا رأيت بيتى قصدت أن أؤخر صمغى بالمركب لهذه العلة فأطلب من العتالة أن يخرجوا صمغ الناس خلاف صمغى • فلما زرت أمى فى اليوم الثالث قالت لى : بابكر انت فى البلد ثلاثة أيام حتى تأتينى أنا عفوت عن الناس الآخرين فشق على هذا القول وأخبرتها بعذرى فغفرت لى زلتى

وزنوا لى صمغى وطالبونى بقيمة الثلث نقدا فلم أجد من يسلفنى من التجار ، وللحظ طالبتنى زوجتى بمشترى غلال وكنت اشتريت مؤونة سبعة شهور فى هذه المرة التى تكثر نصف السنة بشهر ، فأخذت زوجتى تبكى وتقول

أنا ما بعت والله منه شيئا • فأعملت فكرى فخطر لى أنها لا تدخل المخزن لتراه لاهمالها وكسلها والخادمة تفتح العدلة التمارية فتأخذ منها حتى اذا لمست قعرها (آخرها) لم تهزها (تحركها) ليظهر مافى جوانبهـا فتفتح أخـرى ، فطلبت ما عندى من العبيد وكانوا ثلاثة أمرتهم باخراج عدل الغلال وصب (افراغ) مافيها من الغلال فى صحن الغرفة فوجدنا بها أكثر مما صرف فى مـدة السبعة شهور التى غبناها قلت لهم اكنسوا المخزن فوجدنا فى كناسته قمحا وذرة ومحلبا وظفرا وقرنفلا وزناه كان سبعة وثلاثين رطلا وكثيرا من الخيش ووجـدت صندوق صفيح مما كان يصدر فيه الشاى من الهند عادة وفيه شىء ثقيـل فأخرجته للغرفة فوجدت فيه سوسية مكتوبا بخطى على ظهر الصرة التى فيها ثلاثمائة وخمسون ريالا ، فتحتها فاذا فيها كشف بخطى دفع يوم بأسماء من يشترون منا البضائع • أخذتها مسرورا فرحا ، صرفتها بالمقبول ودفعت ما بقى على ثمن ثلث الصمغ . وذهبنا الى بربر (وسافرت وكا نمعى فى الطريق أحمد الفقيه ابراهيم وقيع الله وأحمـد يريد السفر لمصر طالب علم) حيث اشتريت بروشا شمست عليها الصمغ مسافة أسبوعين حتى جاء الحمال لحمـله ووزنه وأخذت منه عينة وسلمته الخبير وسافرنا فلما جئنا فى ككريب أخرنا أبو الفتح حتى جاء صمغنا ودفعنا عن كل جمل خمسة ريالات وكانت الصموغات كثيرة حتى وانك لا تكاد ينقطع عنك قطر من الجمال الا ترى قطرا آخر • والصمغ فى سواكن النظيف قنطاره أربعة عشر ريالا • اتفقت مع الخبير وكان اسمه أوشيك أن أعطيه أربعة ريالات قوشليا ويسلك بنا درب هندوب لنصل سواكن ونبيع قبل الناس فلما جاء عند مفرق الدروب سلك بنا طريق أوكاك فلحقتـه بحمارى وقلت له الشرط • رمى لى ريالاتى الأربعة فى الأرض ومشى فتبعتـه ومن معى وهما يوسف بدرى وأحمد الفقيه ابراهيم فمشى بنا ثلاثة مراحل حتى وصل أرضا عالية فسيحة أنزل فيها الصمغ وأخذوا جمالهم ولم نرهم أو نعرف لهم خبرا حتى مضت واحد وعشرون يوما ونحن لا نعرف أين نحن الا القبـلة حيث نصلى عرفناها بالشمس • أكلنا زادنا الذى عددناه للذهاب والاياب من والى بربر • بعد الواحد والعشرين يوما جاءونا بجمـالهم ولم يكلمونا ولا كلمناهم فقط حملوا الصمغ فتبعناهم حيث القافلة ، كنا فى أوكاك (سنكات

اليوم) حتى شجراتها الظليلة ووواديها الجميل فقلت لمن معى الأحسن أتقدم أنا بالعينة وأبيع الصمغ لأنى أعرف الطريق من أوكاك الى سـواكن وكنت رأيت مناما أجد بله ود الدفينه عند باب سواكن فأقول له يا بله الصمغ كم القنطار ؟ يقول الكنوز باعوا بأربعة عشر ونحن أعطونا ستة عشر أبينا .

بمرورى على سلسلة جبال عالية رأيت البحر ومدينة سواكن ثم وصلتها بعد ثلاث ساعات من رؤيتى لها فلما وصلت سواكن وجدت عند الباب أحد غير بله ود الدفينه فقـال نفس القول فدخلت سـواكن مسرورا بالتـأخير وقلت صدق الله « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »

سمع صاحبنا خليفه ليفى بوصولى وجاءنى بالمنزل فأوصلنى فى القطـار المشمس ثمانية عشر ريالا • رضيت له ورضى هو ولكن محمود بك ارتيقه قال الأحسن أن تصبروا حتى يصل الصمغ لأنى أخاف اذا تنازل الصمغ خليفـة يقول هذا الصمغ والعينة مختلفان واذا تعالى الصمغ بابكر يقول يوسف أخوى مارضى وهو شريكى ، فتركنا الاتفاق لحضور الصمغ فلما دخل الصمغ الوكالة جاء الزبائن وفتح خواجه جريفا احدى العدل وملأ يديه منها صمغا تشتت منه البعض فأتيته ونفضت يديه من الصمغ وقلت له : ليس هو للبيع • قال : لمن ؟ قلت : لخليفة ليفى فقال: اتركه له بدكانه ، قلت للحمالة احملوا فحملوه حتى أوصلناه دكان خليفة ، فلما وصله الخبر جاء مسرعا ووزن الصمغ بسعر القنطار واحد وعشرين ريالا ونصف ، ودفع لنا الثمن نقدا غير ثمانمائة ريال أخذنا بها منه زراق من زراقه المشهور أخذت منه كيسا به خمسمائة ريال قوشليا مختوما باسمه بالشمع الأحمر فنسيته بدكان الخواجه عدس فلما وصلت منزلى وتغدينا تذكرته فأخذت أبحث عنه فى كل الدكاكين التى مررت عليها فلم أجده وبعـد الساعة الرابعة مساء جاء الخواجه عدس سألته عن الكيس فقال لى بحزم : لم تنسه عندنا ، لكنه لما رآنى اهتممت بضياع هذا الكيس اهتمـاما ظهر على مشاعرى سألنى كم راس مالك ؟ قلت : هذا الكيس أكثر من ربعه فأخرج لى الكيس من خزنته مكتوبا عليه بخط كبير أمانة بابكر بدرى • قلت ممن علمت أنه لى • قال : سألت خليفة من الذى استلم كيسا مختوما نمرته ومبلغه كذا علمت منه أنه لك • فشكرته وقمت تسوقنا البضاعة وخرجنا من سواكن بجمال

أهالى بربر • فلما وصلنا والبضاعة بككريب وكان معنا رجل يدعى عبد الماجد أحمد جبور عنده رحل واحد فطلب منى أن أضمـــه على بضاعتى لنخفف له العشور قلت له : نعمل حيلة ينجـــو من العشر بالمرة • وضعت له معى طردا واحدا ومع بضاعة أخرى طردا ولما جاءوا للحساب غالطناهم فى العدد عنـدنا بواحد وفى البضاعة الأخرى • وكانت بعيدة منا بنحو اثنا عشر مترا وحجتنا أن الجمل لا يحمل طردا واحدا فانطلت عليهم الحيـلة وعشورى كالعادة الستة عشر رطلاعشرناها بأرخص قيمة • قمنا من ككريب بطريق بئر رواى ولم نحمل ماء كثيرا فلما وصلنا رواى وجدناها لا ماء البتة بيبرها فأسرعنا فى السير حتى وصلنا البالو صباحا ونحن وبهائمنا فى شدة العطش ، فقلت ليوسف أخى وعبد الرحمن المربوع وبابكر البشير اشتروا بيرين أو ثلاثة آبار لنحجـزها فنسقى بهائمنا ونحمل ما يكفينا ثلاثة أيام لبربر فوردوا المشرع ولم يجـدوا الا بئرا واحدة أنزلوا فيها يوسف ليملأ لهما القربة وهما يخرجانها من البئر •وبعد قليل جاءنى بابكر ومعه جمال يهرولان قالوا لى يوسف نزلت عليه البئر فمررت بهما على بيوت العرب واشتريت بيتين خشبهما وبروشهما ، حملنا ذلك معنا للبئر وأنزلنا معه عربا جعلوها ساترا اذا وقعت رملة أخرى تقع على هـذه البروش فلما ثبتوها جعلوا يأخذون الرملة من جانبى يوسف ونحن فى أثناء ذلك وقعت رملة أخرى ولكنها فى وسط البرش فلم يصل يوسف منها شىء ولم تسد الثقب الذى تمر لنا به الرملة لنخرجها للبر حتى أخرجنا يوسف ونحن واقفون حتى أخرجنا الوطنيين وأعطيناهم أجرهما ووهبنا لهما أنقاض البيتين ولكنا بتنا فى البالك حتى جاء الليل وانصرف العرب سقينا وحملنا الماء من آبارهم وسـافرنا بليلنا سبقنا جمال البضاعة وصلنا بربر • فلما دخلنا منزل أبى علام الحسـين حيث ننزل لأن المنصور أبا كوع متزوج ربيبته أخبرونا أن أحمد عثمان شقيق مطلقتى البقيع جاء يسأل عنكم وهو فى بيت محمد نافع فبتنا ومررنا عليه فى الصباح أخبرنا أنه بعدما سافر وعبر البحر هو ورفاقه سمع بأنا سنصـل بربر مساء اليوم ورجع من هناك ورجع معه رفاقه وجدناه متوعكا بحمى أخـذناه معنا للدكان الذى أجرناه لنقيم فيه حتى نخلص الايجارات وندفع العشـور ونستعد للسفر • جلس معنا قليلا وقال اشتروا لى ليمونا وسأرجع للمنزل • فى رجوعنا عصرا مررنا عليه فوجدناه أحسن حالا مكثنا معه مليا وذهبنـا ففى

الصباح مررنا عليه وأخذناه للسوق فلم يستطع الجلوس معنا وكان فى حدق عينيه حبوب صغار حمراء فرجع لمنزله ففى مساء هذا اليوم جاءنى رجل من سكان رفاعة يسمى حاج ضرار دعانا عشاء فأخبرناه به فقال ادعوه معكم فلما جئنا وقت الاصفرار وجدناه جالسا على بئر خارج المنزل فطلبناه للمشى معنا للعشاء فاعتذر • جلسنا معه قليلا فألح بأن نمضى فمضينا وبعد قليل جاءنا رسول من بيت محمد نافع يسألنا عنه فقمنا وخفنا أن يكون وقع فى البئر فأنزلنا من فتشها فلم نجده فقصصنا أثره فوجدناه فى غرفة صغيرة عند باب الدار ميتا فانكب يوسف أخى على جنازته يبكى شبابه الذى لم يتجاوز الثلاثة والثلاثين سنة ولا عقب له • أرسلت بابكر البشير وأحضر ثوب دبلان كفناه منه ودفناه بليله ولم يضعف حزنى عليه ما عمله معى بخصوص أخته ولا بتدبير طلاق حفصة منى وخطبتها للحسن الفضل لأنى وهبت خيانتهم معى لله تعالى حيث رأيت نفسى أنى لا أستطيع الانتقام منه بقدرها — رجوت قوله « فمن عفا وأصلح فأجره على الله »

أصبحنا فارشين ولكن يوسف أخى رأى محمد نافع مشغولا ببناء فى بيته فحلف لا يتم المأتم هنا فنقلنا الفراش الى بيت عبد الرحمن المربوع وبعد المأتم أعطينا رفاقه ماكنا أعطيناه المرحوم من كسوة لزوجته واخوانه ولأخيه الحسن بموجب كشف وخطاب العزاء • كان للسيد على محمود الضوى امتياز يسامح له فى نصف العشر ببربر فكتب بضاعتى باسمه وذلك بأن وضعت خيش على المكان الذى فيه عنوانى وهو ت ٢٢٥ وكتبت على الخيش الجديد عنوانه وهو ت ٩٨ فلما وصلنا بربر أدخل بضاعتى فى دكانه وأخذ يماطلنى بقوله ليأت أحمد أخوى والجمالة يطالبوننى فى الأجرة • وفى يوم ما سمعت أنه يريد تسفير كل مافى دكانه من البضاعة لأم درمان فأخذت مصحفا وجئته فى منزله صباحا قبل أ نيذهب للسوق فحلفت له على المصحف انه اذا لم يعطنى بضاعتى فى هذا اليوم أذهب للامير الزاكى عثمان وأطلعه على كل شىء وأنا أنصارى لا يهمنى الفقر لأنه اعتيادى عندى ولكن انت تتصور ما يلحقك من المعرة والمضرة فأخذنى للسوق وسلمنى بضاعتى وعين معى من أخذ ثلاثة أرباع العشر •

خلصنا أطرافنا وسافرنا ووصلنا أم درمان فوجدنا زوجتى حفصة حاملا وولدت فى يوم ٢٠ رمضان توأمين بنتا وولدا ، ولكنها تعبت فى النفاس ولدت البنت يوم الخميس واستمرت ماسكة حبل الجنين الثـانى حتى وضعت يوم الجمعة صباحا فأجيبت دعوة أمى « الرزق كيمان (والولد تيمان) » — ربحنا خمسين فى المائة عما كنا نسابق له — والولد تيمان — هاهما على انى تزوجت حواء سنة ١٢٩٩ هـ والبقيع سنة ١٣٠٣ هـ وحفصة فى صفر سنة ١٣٠٧ هـ ولم ألد الا فى سنة ١٣١٢ هـ من حفصة بدعوة الوالدة الصالحة بعد ثلاثة عشر سنة من زواجى الأول . عملت فى هذا النفاس أكثر من عشرة أضعاف ما صرفته فى زواج أمها . مما أتذكر أن التمر كان رحل جمل موضوعا بعدليه فوق بعضهما وسط غرفة أمهما وكل من أراد شيئا منه أخذه من جهته حتى صارت بهما خروق كثيرة .

ولما وصلنا أم درمان وبعنا ، اشترينا الصمغ وسفرناه لبربر وجاءنا الفقيه الطيب الخليفة أخرنا كثيرا . فى هذه البرهة صرت أشترى الصمغ وأبيعه ومن ضمن المشترين منى بشير الأمين الذى كنت أنزل فى بيته فى المتمة .

اشترى منى خمسة رحول كل عدلة مكتوب عليها وزنها بالأرطال دفع ثمن خمسة وثلاثين قنطارا وكان الوزن اثنين وأربعين قنطارا — سهى على أن أجمع كل الوزن وأنبهه بالباقى يكون معه أمانة حتى وصلت بربر وكان قد رحل صمغه فذكرت له زيادة الصمغ فأنكرها وادعى أنه نقص أرطالا قليلة — فسكت لسببين أولهما أنى أهملت والثانى لأن السبعة قناطير ثمنهـا تسعة وأربعون ريالا لا أشاحن فيهـا صديقا أنزل ببيتـه ولكنـه صـار يشنع بى ونسى أنه قال لى بأم درمان هذه العدلة ستمائة وخمسون رطلا يمكن أن يحملها الجمل التلب وضحكنا . فلما كثر كلامه بأنى تبليت عليـه جاءنى محمود عيسى وقال لى اذا كنت لك عند بشير الأمين صمـغ فلا تتركه له لأنه فضحك فى البلد فجمعت له مجلسا وكان أبو علام الذى ننزل ببيته ببربر كما سبق صديقا لمصطفى الأمين وكان نصير البشير على فلما اجتمع المجلس قال لى أبو علام يا بابكر (المال يجى بلا صلبطة) فتحمست وقلت يا بشير أتذكر أن أحد العدل وزنها سبعمائة وخمسة أرطال قال : نعم وتذكر أن الثانية وزنهـا

ستمائة وخمسة رطلا قال : نعم قلت : يمكن الجمل التلب يحملها قال : نعم قلت : اذا احفظوا لى ياجماعة وزن هذين العدلتين ونضيف لهما وزنا أصغر الثمانية عدل الباقية فى الرسالة الموزونة باسمه فى كشف القبانى الرسمى اذا كانتخمسة وثلاثين قنطارا أو أقل أنا كذاب واذا زادت ماذا يكون • نهض محمود عيسى الذى كان مضمحلا حينما سألنى أبو علام بحضور المجلس • هل أخبرت بشيرا بأن صمغك زائد سبعة قناطير ؟ قلت : لم أخبره • قال : هل ألحقته خطابا بذلك فى مدة الشهرين قلت لا فقال جملته المتقدمة واضمحل لها محمود الذى نهض بعدما قال (هذا الكلام تمام) ومشى بنفسه فأحضر الوزن الذى كان تسعة وثلاثين قنطارا وثلث قنطار فأطرق أبو علام وبدت عليه الكآبة وعرف بشير وكلم المجلس بالسبعة قناطير فقلت أنا تنازلت عنها لأجل خاطر أبى علام ابن عمى فقال بشير لأى سبب تركتها ؟ قلت : نظير الطعام الذى أكلته فى بيتكم بالمتمة فضحك الجماعة وانصرفوا ضاحكين

وسافرنا لسواكن بالطريقة المعلومة وكان صمغنا سافر قبلنا لحقناه فى الطريق وسبقته لسواكن بالعينة وقد صار معروفا عند تجار سواكن ببياضه لتشمسه الذى أخيرا صار كعادة للصمغ الى اليوم • رجعنا لبربر وبضاعتى ستة عشر رحلا فاتورة وخرزا مثمنا فى كيس • أخذت الخرز وقبل أن أخرج به طلبنى محمد صالح أمين البضاعة فاضطررت أن أسلمه الى من أتأكد عدم أمانته ورجعت الى محمد ولد صالح فاستلم بضاعتى وأدخلها فى الحاصل ضمن البضائع لتلك الدفعة لحينما يعشرها ، فلما خلصت منه جريت مسرعا أبحث على صاحب الخرز الذى اتهمته بالسرقة وبالبحث وجدته فى مكان خال وقد فك الخرز وأخذ منه ستة حبال رأيته بعينى يدخلها فى كفة سرواله فخفت اذا أخذتها منه أو أفهمته انى رأيته يخبر محمد ود صالح الذى سيغنم الخرز كله فكظمت غيظى وصارت لهذه الحادثة قصة عجيبة لا داعى لذكرها • ولما جاء الليل جئت للخفير عبد النبى ومعى الحارث أبو فأعطيناه على كل رحل ريالا قوشليا ففتح لنا الباب فأخرجت منه أربعة أرحل من البضاعة المثمنة حللتها ووزعتها على رفوف دكان عمى محمد الحسن أخى أبى علام وقفلت الدكان سريعا ورجعت للمنزل فى الصباح • جاء محمد ولد صالح وجعل يخرج البضاعة لكل منا

بموجب الكشف الذى عنده فلما جاء اسمى قال اخرجوا له ستة عشر رحلا قلت بضاعتى اثنتا عشر رحلا نظر الكشف وقال ستة عشر رحلا قلت اثنا عشر فنظرنى شذرا فقلت له بثبات أظنك يا عمى أردت أن تكتب الاثنين كتبتها ستة فانتهرنى وقال قبل ما يلدوك أنا كاتب . قلت لكن يا عم محمد أنا سيد البضاعة أعترف بالنقصان وأنت الأمين تعترف بالزيادة . اذا أوجد لى الأربعة رحول خذ عشرها وأعطنى الباقى لما صدمته هذه الحقيقة المنطقية عض على أصبعه وقال لى : اصبر أنا أوريك وسكت فاهتممت جدا لقوله لأنى مختلس واذا تربص يقبض على متلبسا بالجريمة فيصادر مالى فحكيت لبعض أصدقائى بأم درمان الذى أخبرنى بأن قال لى طريقة محمد ولد صالح ختمية فما عليك الا أن تأتيه بكتاب توصية من أحد السادة الميرغنية بأم درمان ــ وكانت السيدة نفيسة بنت السيد الحسن تزورنا للرحم الذى بيننا من جهة والدتها التى والدها رباطابى فلما وصلنا أم درمان زارتنا وطلبت منى عدة الشاى الموجودة عندى فقلت خذيها لكن البراد طلبه منى على ود الشيخ القرشى وسآتيك بخير منه من سواكن فى سفرتى هذه وسأشترى لى صمغا باسمك بثمنه وما يتبعه فاكتبى لى جوابا للشيخ محمد صالح ببربر بالتوصية على فقالت لعمر التنقار الذى يأتى معها كلما جاءت « اكتب له كطلبه » فأمليته كما أحب وختمته السيدة بخاتمها الذى ضلعه يكون بوصة ، فى رأس الورقة فأخذته واشتريت ركوة ومركوبا فاشريا وسافرت مع صمغى بالمركب فلما وصلناه قال محمد صالح لى : جئت قلت : نعم ولك معى أمانة وسلمته الركوة والمركوب . قال لى : ممن هما . قلت معهما جواب من صاحبهما احضره لك غدا فجئت له بالجواب وتربصت له حتى وجدته منفردا فأعطيته اياه . ففك ظرفه وفتحه فلما رأى ختم السيدة نفيسة قبله وبرك على ركبتيه وجرت دموعه وأصابه حال بين السرور والدهشة فتركته وانحزت جانبا فلما أفاق وقرأ الجواب مرات عديدة أفاق وصار يبحث عنى فبرزت له فقال هذا الجواب من السيدة نفيسة نفسها !؟ فقلت : نعم بدليل خاتمها ويمكنك ترد عليها بواسطة كاتب الجواب عمر التنقارى تلميذها وخادمها الخاص . فقال لى أين كتبته لك قلت فى بيتنا فاندهش فقال : أتزوركم هى قلت : كثيرا للرحم الذى بيننا فقال لى : اذا دخلت منى فى حصن حصين يا بابكر سلم لى عليها .

كان قبل قيامنا من أمدرمان رأيت عند يوسف أخي فروة ميدوب قال لى أهداها لى الحسن الفضل قلت فى نفسى عنده غرض يريد نخدمه فيه فجاءنى يحملنى أمانة صمغ نأخذه فنبيعه له بسواكن ونحضر له به جهاز عرسه فقلت له قد رأيت الفروة عند يوسف اذا كنت أهديتها له لهذا الغرض فانى أقضيه لك بغيرها فاستردها منه فقال لى لا والله أنا ويوسف أنداد فى السن ولعيبان فى الصبا . وأقسم لى أنه أهداها لهذا الحب لا للغرض المزعوم وبعد أيام سفرنا صمغه مع التسعة قناطير الطلح التى سفرتها باسم السيدة نفيسة ولما ضمن سفر صمغه جاء ليوسف واستعار منه الفروة وسافر بها لدنقلا — فلما وصلنا بربر لقينا بها أحمد صديق وقال لى الحسن الفضل حكى لأولاد عثمان أنه غشاكما بفروته التى أهداها ليوسف فلما سافر الصمغ فعلا استعارها منه على ألا يرجعها وقال له غنوة وهى :

ما شبهك ركوب الزرقا　　　يا العلى جيرانه قاطع المرقه
قل لا بان لهيجا طرقه　　　نحلا من قديم مى سرقه

فمعناها أنت لا تستحق ركوب فروتى الزرقاء لأنك لا تزور جيرانك ولا تحييهم أنتم يا يوسف وأهلك . كلامكم مثل مشى الجمل الأطرق أما أنا فالركوب مثلها ثابت لى (نحلا) ورثته من آبائى — فلما سمعت هذه الغنوة ركبنى من الغضب ما غطى على وغلب على حلمى وعاملته من نوع عمله (فهذه احدى الحادثتين اللتين انتقمت فيهما) تركت صمغه ببربر مع التسعة قناطير الطلح وكتبت له بدنقلا مع أحمد صديق بأن صمغه غير خالص الثلث بأمدرمان لذا ضبط مع تسعة قناطير لى غير خالصة الثلث وقد تركت الصمغين ببربر فاعمل لصمغك ما تراه وهذا للمعلومية وسافرت لسواكن فلما وصلنا لأمدرمان جاءنى هو وفاطمة أخته ليستلم الأمانة فقلت له هل أحمد صديق لم يسلمك خطابا منى بما حصل للصمغين ؟ وأنا بعت صمغى بعد رجوعى من سواكن بسعر القنطار خمس ريالات بعد خصم الثلث وصمغك محفوظ تحت اسمك فبهت وبعد مدة قال لى أنا قلت انك تهزل معى بخطابك مع أحمد صديق فانصرف وهو محسور فعتبت على أخته فاطمة فأخبرتها بما حصل منه وقلت لها الغنوة لأنى من تأثيرها على

حفظتها فى مرة واحدة • فلما سمعتها فاطمة قالت : هو يستحق منك ما حصل له ولكنى أرجوك أن تعطينى فركة حرير برصه لخاطرى فجئت لها بها •

الحادثة الثانية التى انتقمت فيها هى أن بشير الأمين بعد حادثة مجلسنا معه مباشرة باع صمغه بسواكن ببضاعة لكساد الصمغ ومصطفى أخوه أكد عليه ألا يحضر بضاعة بل يحضر القيمة نقدية لأنه من ضمن الداخلين على ماأظن فى مسألة تهريب سلاطين ويتوقع ظهور الحادث فتغنم بضاعته • فلما باع بشير صمغه بالبضاعة شرع يوزعها على التجار السودانيين ليعطوه القيمة نقدية فعين لى بضاعة بخمسمائة ريال وأنا عمدا قد اشتريت فلما جاءنى ليأخذ منى الخمسمائة ريال قلت له : نفذت نقودى وأنت لم تذكرنى فاحتار وصار يساومنى فى أن يتنازل فى المائة خمس ريالات فقلت له انى لم أقصد ربحا فابحث عن غيرى فاضطر أن يرجعها للخواجه الذى اشتراها منه بخسارة عشرين فى المائة لاضطراره للخروج مع الجلابة •

فى مندوبية الكريبة سنة ١٣٠٩ هـ اجتمعت بعمى حمودى الفضل الحضرى والد محمد حمودى الحضرى الذى تعين أمين بيت المال بصرص بعدى فساعدته مساعدات قيمة وكان معه ابنه ابراهيم حمودى الذى انعقدت بينى وبينه صداقة متينة دامت الى أن توفى بحلة البساتنه فى سنة ١٩١٧ م وصلنا أم درمان وبعنا بضاعتنا • اشتريت لزوجتى حجول فضة وزنها ستون ريالا من ابراهيم حمودى الذى أراد أن يكسرها ليجعلها ثمانين ريالا لزوجته ويزيد عليها بعض الذهب . ففى بعض الأيام زارت زوجتى زوجة ابراهيم حمودى والدته بنت عامر أزرق التاجر الشهير وزوجة محمد الكارس فلما خرجن منها لم تتحرك لهن من عنقريبها فخرجت معهن وودعتهن ورجعت لزوجتى ناصحا وموبخا • قلت لها هذه الحجول التى أثقلت رجليك من الحركة هى التى استقلتها زائرتك فزيدت لها والتى معها بنت عامر أزرق صاحب قميص عامر المضروب به المثل والثالثة زوجة محمد الكارس الذى المرمى فى بيتها بقدمه أكثر قيمة من المحفوظ عندنا فعلام تتكبرين أنسيت جوع بلانا وسعيك من صرص للعرضى راجله ونسيت دردوم الودك حينما دخلت أم درمان ، فمن ذلك اليوم اتعظت وأخذت تجامل الناس • فى هذه السنة حصلت هذه الحادثة العجيبة

(رجل لا أذكر اسمه صونا) سمسار احتد فى الكلام مع عمى مالك وكنت حاضرا فلما كان من سنى دافعته عن عمى مالك فاحتد بيننا الغضب فجاءنى أحد معارفى سرنى فى أذنى أن أقول له هل أنا فلان حتى تغضب على هـذا الغضب ؟ وما كنت أفهم معنى لهذه الجملة التى قلتها تلقينا فاستشاط السمسار غضبا وبارحنا ، فسمع المهدى أحمد بما قلته وما حصل من الرجل فأغلق دكانه بسرعة وجاءنى فحلف على طلاقا أن أقوم معـه لمنزلى لأمر مهم يفهمنى اياه بالطريق فركبت حمارى وذهبت معه فأخبرنى فى الطريق معنى الجملة وهى ان الرجل السمسار كان صديقا لما كنينا عنه بعلان صداقة رفعت عنهما الحجاب فى المنازل ، فخان السمسار فلانا فى زوجته فلما أحس فلان بذلك قال للسمسار لا تأت منزلى بعد ذلك فان نفسى لم ترتح لثقتى بك فقال السمسار : ان دخلك شك من ناحيتى فانى مع خادمتك فلانه فسأل فلان خادمته فقالت لسيدها بعد أن عبست أنه مع زوجتك ففكر فى الانتقام من صديقه السمسار الخائن فما رضى أن يعتدى بمثل ما اعتدى عليه به عليـه بل شرع يراود والدة السمسار الذى هو أصغر أولادها فأجابته واتصل بها ، فلما أحس السمسار بما حصل وبعد أن تأكد منه قال لأخيه الكبير ان أمك تزنى بفلان فأنكر عليه أخوه ذلك فقال له سأريك بعينك قم الآن واذهب اليها فذهب الكبير فوجد أمه جالسة فى حجر فلان وفلان راقد فنادى والدته فخرجت له فقال لها ما هـذا ؟ قالت له : زوجنى اياه ابن عمى فلان هذا ــ فذهب لخاله مغضبا وقال له كيف تزوج أمنا دون علمنا ونحن رجال فقال له حفظا له لكرامة الجميع : هى ابنة عمى وزوجتها فازداد الكبير غضبا وأخذ يوبخ خاله الذى احتد وقال له : ان أمك زانية وأنا لم أزوجها فبهت وسكت ومضى لسوقه الذى لم ينتفع به بعدها ، فلما تأكد فلان من اشاعة الحادثة طلق زوجته الخائنة وقال لصديقه السمسار : أنا طلقت زوجتى فطلق أمك

وصلنا أنا والمهدى أحمد منزلنا ، فلم نستقر به حتى دق الباب دقة مزعجة فطن لها المهدى فخرجت وخرج معى وفتح الباب قبلى فاذا السمسار وسكينة فى يده قلت له : ادخل فتنفس الصعداء وجلس المهدى وجلس هو فى ظل يتأوه والمهدى بينى وبينه فشرعت أعتذر له وأغلظ له فى الايمان انى لا أعرف معنى

ما قلته له ولكن فلانا ابن فلان سرنى بها فى أذنى فقلتها تلقينا ونحن وأنتم بيننا مصاهرة بابن خالتى المتزوج فلانه شقيقتكم التى وجدتها أنا بأسوان بعد موت زوجها وحفظتها مع اخواتى حتى زوجتها فتنفس أحر من الأولى وبارحنا فلقى الذى أسرنى فرماه فى الارض فى الشارع وأخذ يبحث عن سكينه ولكن المارة خلصوه منه . وأوردنا هذه الحكاية ليتعظ بها الزناة ان لم يتعظوا بقول الشاعر :

عفوا تعف نساؤكم عن محرم ... وتجنبوا ما لا يحل لمسلم

الى أن قال

لو كنت حرا من سلالة طاهر ... ما كنت هتاكا لحرمة مسلم

ان الزنا دين اذا استقرضته ... فوفاؤه من أهل بيتك فاعلم

فى هذه السنة ونحن بالدويم ، أرسل بيت المال مندوبين يشترون الصمغ ، فبدأوا يمنعون التجار حتى يشتروا كميتهم أولا فشكوناهم لعمى العوض المرضى فأمرهم أن ينزلوا أنفسهم منزلتنا وكان فى الصمغ قلة فى الوارد فاجتمعنا وقررنا تقسيم ما يشترى بعد أخذ ورد على رؤوس الزرايب حتى أن صاحب رأس المال القليل متى خلصت نقوده يسافر فى السنة مرة وتقفل زريبته بحيث لا يسمح له أن يبيع فى أم درمان ويرجع للدويم وبذلك تمكنا من كفاية كل أحد مرة فى السنة وكنت انتدبت من الجمعية وعند ارادة معرفة عدد الزرائب كتبت اسم عمى مالك الذى كتبت له خطابا فحضر لنا بأول فرصة وسكن زريبته التى حجزتها له . وفى سنة ١٣١٢ هـ ولد له ابنه مجذوب بكردفان . حضر راس مائة يدعى طلق النار ولعله اسم سيده (محمد على طلق النار الجعلى) معه جمله من الجهادية يأخذ من كل زريبة رحلين لحاوى لا أدرى ماذا يريد بهما ولقد مروا على زريبة بيت المال وكان بها أبو الحسن أبو المعالى فنازعهم بأنه تبع بيت المال فلم يبالوا به وكسروا ساعته وأخذوا الرحلين منه فلقيتهم فى زريبة عمى مالك الذى خفت أن ينازعهم فيضربوه فقدمت لهم الرحلين وسقتهم لزريبتى فوضعت لهم الرحلين خارج الزريبة وبجوارى أبو لكيلك . فلما وصلوه نازعهم فضربوه وشرطوا جبته وأخذوا منه أربعة أرحل وتركوا زريبة حاج الأمين عبد القادر ولم أدر السبب ولا هو يعلمه ولكن الله

سلمه منهم . وبعد ما تسوقنا وشحنا الصمغ بالمراكب سافرنا أنا وحاج الأمين .

زواجى من أم أحمد :

فلما قربنا من الخرطوم قال لى : هل عندك زوجة بنت ريف ؟ قلت : لا . قال : اذا ما تزوجت فى حياتك ؟ قلت : كيف ! قال : الآن هل أحد من أهلى أو أهلك علم بمجيئنا ؟ قلت : اللهم لا . قال : الآن ندخل بيتنا فنجد الغرفة الخاصة بى مغلقة مبخرة وفرشها نظيف منتظم ــ وبوصولنا تأتى الغباشه المسكره الباردة فالجبنة ، فالشعيرية أو السكسكانية ولما وصلنا وجدت كل ما قاله حقيقة كقوله . فقلت له فى الحال أخبر زوجتك تبحث لى عن ابنة ريف مثلها ــ مازالت تنازعنى فكرة تزويجى بمصرية مولدة منذ كلام حاج الأمين عبد القادر وفى يوم زرت المهدى أحمد بمنزله بيت المصرية وطلبت منه يكلف زوجته تبحث لى عن زوجة مناسبة فجاءنى منها فى الحال وأخبرنى أنها قالت : خير زوجة له نفيسة بنت صالحة فانهن نساء مصونات وصالحة طاهية فى الطعام وخياطة وتطريز اللباس فأخبرنى فقلت فلتخطبها لى وبعد أيام أخبرنى المهدى أحمد بالموافقة فأعطيته أربعين ريالا قوشليا صداقا وجهازا رغم غلاء الملبوسات فجاءنى وقال لى : استقلوا النقود فقلت له : لتقل زوجتك لأمها صالحة عنى هذا يكفى مع جهلى بحالة ابنتها فاذا وجدتها موافقة بعد الدخول عليها فاطلبى ماشئت وان لم توافق فهذا يكفى خسارة فقبلت رغم معارضة أهلها وقالت لا أكف بخت ابنتى وهذا رأى رجل عاقل يرجى منه الخير وأنا ضامنة ابنتى توافقه . هذا فى شهر ربيع الأول فلم أرها ولا أحدا من أهلها ولا منزلهم ثم عقدت عليها فى ٢٧ رجب بمنزل على خاطر ولم أرها ولا بيتها حتى يوم دخولى بها فى غرة رمضان ١٣١٢ هـ لأنى كنت حنبليا متطرفا . وبعد أن انصرف المدعوون شاكرين بقى معى ابراهيم أفندى خاطر الذى عرفته فى تلك الليلة أنه نسيبى وأنه الرجل الذى اشترى أرياح وملابس الجهاز دون أن يتعرف لى ومعه عثمان حمدتو بك يؤانسنى الى أن قرب الليل أن ينتصف وكلما قالا لى قم فادخل أقول لهم حتى تخف النساء وبعد أن حصل ذلك دخلت وعلمت أن من المدعوات بنت أبو السعود باشا التى تقدم ذكرها ــ فقابلتنى وشكرتنى بعد أن حكت حكايتها ــ فلما خلوت بالنساء وأنا جالس على السرير بعد أن

صليت ركعتين أمامهن وجعلت أسبح فأخذت امرأة ضريرة أظن اسمها حفصة تغنى فأشرت أن أصمتى فقالت أخرى : قمن قمن وهو يتحصن منكن فقلت : لا • بل أحصنكن ثم أخذت الفاتحة علامة ختام العدد ثم قلت : : السلام عليكم فخرجت احداهن والعروس بيدها وبدأت الضريرة تغنى ، قلت : ماذا تردن ؟ قلن : نرقص قلت : لا يمكن ، انظرن كم شارعا بين منزلى وبين هذه المنازل وكم جنسا يسكنونها • كل هذه الشــوارع للرجال وان أولاد خاطر من أحسن وأعقل الناس كما علمت فلا يمكنني أن أمتع نظرى ببناتهم ونسائهم عريانات أمامى • قالت احداهن : هم أولاد خاطر لا ينظرون الرقيص • فقلت : هــذا اعتقادى فيهم فاذا كانوا سفهاء لهذا الحد فأنا آخذ زوجتى منهم وأرحل بها فى صباح هذا الليل فقالت احداهن وأظنها بنت يوسف بك كورتى : أبدا حاشاهم والله هم كظنك بهم • قلت : اذا لا أكون أنا السفيــه دونهم • قلن لى : طيب ترقص العروس • قلت : هى تعرف الرقص ؟ ماكنت أظن أن بنات الريف يرقصن فلترقص لأرى فلما صممن على الرقص قلت لهن : ادخلن فى المخزن وارقصن وأنا أرقد فى مكانى هذا • قالت احداهن : طيب اعطنا حق البنات • قلت : كم ريالا ؟ قالت : عشرون ريالا . قلت للولد الذى كان معى بالدكان وكان بيده كيس به النقود : أعطها يا عبد القادر حمودى عشرين ريالا فاستلمتها وقالت أخرى : وحق البلانة المشاطة قلت : كم ريالا ؟ قالت : عشرة ريالات فاستلمتها فقالت احداهن : حق مسح القصه قلت : كم ريالا ؟ قالت : كما تشــاء قلت : العادة قالت : وقية أو نصف وقية ذهب • قلت : أعمل لها حجول وأســاور وأكمام وثوب جزايرلى قيمتها أكثر من ثلاثة أواق ذهب قالت : متى تأتى بها ؟ قلت : صباح غد (وكانت هذه الأشياء موجودة بدولابى عملتهــا لأخطب بنت محمد الحسين الطيب ببربر منعنى والدى من زواجهــا) وفى الصبح أرسلت عبد القادر حمودى جاء بها • وطلبت منهن أنى صاحب أشــغال فليعفننى من مكث سبعة أيام بالمنزل فسامحننى بعدما أخذت رأى حماتى صالحة الظريفة • فلما رأيت زوجتى وما بها غير « فرج الله » واحدة فى عنقها نويت أن أحليهــا بكثير من الحلى (ولكن ضياع مالنا حال دون ذلك) سررت لعدم استعمالهن عارية الحلى الكاذبة واعتبرت حماتى عاقلة • ولا أنسى ما وجـدته ببيتى من

الأثاث وما بامرأتى من اللباس يضاعف مادفعته مهرا وجهازا وناهيك بعشاء المدعوين مما جعلنى أجود لهم بما يطلبونه وأظهر بينهم بمظهر الغنى • فى أواخر رمضان جاءنى على خاطر زائرا وقال لى : هذه الخادمة التى تخدمكم بالأجرة وان أولاد خاطر اكتتبوا لزواجك وان زوجتك كانت تطحن بيدها فاذا كنت راضيا تستمر فى طحينها من أول شوال أو ترفع يدها أعمل ماشئت • قلت كنت أظن أنها خادمتهم الملك ضحك وقال لى : ألم تر الدن الذى بداخل الحوش لدبغ الجلود ؟ قلت : لم أر داخل الحوش • ونزلت سوق الرقيق بعد أن انصرف هو فى الحال واشتريت فرخة كانت أجمل من فى السوق بستين ريالا وأحضرتها لها •

فى أول محرم سنة ١٣١٣ ﻫ سافرنا لسواكن لكنا تأخرنا شهورا بسبب أن الحكومة أخذت تسخر الجمال لأحمالها اللازمة لها وصار الصمغ يرمى « بديس ابل » (اسم بئر شرق كوكريب) فتوجهت لسواكن • أحضرت جمالة البجا وأخذت من خليفه ليفى نحو ألف ريال ثم رجعت حيث أجرت جمال النوراب فأدخلنا صمغنا الذى صار فى بوار • حجزنا أكثر من شهر اقامة وكان الحر شديدا نستحم مرتين أو ثلاثة مرات فى اليوم ثم بعنا واشترينا البضاعة ، ولما خرجنا عند البوابة أعطيت محمد أفندى أمين تسريحى وعد جمالى اثنين وعشرين وأشر التسريح وجعله آخر التساريح وكانت التأشيرة تظهر بخلاف الأصول فلما أكمل ما فعله عاد اليه ثانية فلم يجد به تأشيرة فظن جماله متأخرة فقال لى : أين جمالك قلت : خرجت قال : أرجعها فقلت : حضرتك نظرتها ؟ فقال : كذاب « أنا أوريك » وامتلأ غيظا • ولما كنت متأكدا من أنه نظرها ما اهتممت بكلامه فأمر عسكريا معه يحضر جمالى ويرجعها وفعلا رجعت وحفظت البضاعة بالمركز الى الصباح فشكوته الى لويد باشا المحافظ فطلبه فاحتج أنه لم ير التسريح الأخير واتهمنى بأنه يلزم أن يكون عندى ممنوعات ولذلك هربت جمالى فقلت للمحافظ : ياسعادة الباشا هل يمكن الانسان يهرب اثنين وعشرين جملا نهارا وحضرة المأمور لا يراها ؟ اذا حضرته يكون مهملا وقلت لسعادته رأيته بعينى حسب الجمال وأخذ قلمه من جيبه وأشر على تسريحى ولا أدرى أين وضع تأشيرته • فتناول خاله محمد أحمد بك قمندان

البوليس الذى حضر صدفة لشغل رسمى وكان معى محمود بك ارتيقة نزيلنا الذى ترجى أمين أفندى رجاء حارا مكررا يعيننى فرفض • فلما استلم خاله التسريح تصفحه فوجد التأشير على ظهره فأراه التأشير وقال للمحافظ : المأمور غلطان والتاجر محق فحكم الباشا بأنى أنتظر جلابة أخرى ومصاريفى ومصاريف الجمالة على حساب المأمور أو يعين معنا من مشايخ العرب من يضمن سلامتنا وبضاعتنا حتى نلحق الجلابة على حسابه فاختار الثانية وسفرنا • ولحقنا الجلابة فى ديس ابل بعد ثلاثة أيام • فلما رجعنا المرة الثانية من سنة ١٣١٣ هـ وهى المرة الأخيرة من سفرنا لسواكن أحضرت له ثمان ريشات نعام بيضاء من أحسن نوع تفاديا من حقده فشكرنى وصحبنى • بعنا صمغنا وبضاعتنا ولما وصلنا بربر جاءنى خبر وفاة والدتى التى أخبرتنى السهوة أختى وكل من حضر موتها أنها كانت كلما أفاقت من سكرة من سكرات الموت قالت : أنا عافية منك يا بابكر محللة لك حمل بطنى ولبن ضرعى وحمل حكرى عفوا يدخلك الجنة ويمتعك فى الدنيا فتقول لها السهوه : وسعيد ؟ فتقول عافية منك يا بابكر وتكرر ما قالته ثم تقول عافية منكم يا أولادى أناثا وذكورا ثم أفاقت وقام سعيد من عند رأسها وخرج • فقالت لها السهوه : أما تستحى من سعيد وتذكرينه مع بابكر قالت لها الوالدة : لا لا بابكر رفيق بلانا لا أقرن معه أحدا فى عفوى وكررت العبارة حتى تشهدت أخيرا وفارقت الدنيا • فلما بلغتنى وفاتها حزنت جدا وقمت توا لأم درمان بالبر بالحمير فلما وصلت وعلمت ماقالته زال عنى الحزن وجعلت فراشى عليها مندم سرور لا مأتم حزن ، رحمها الله رحمة واسعة فقد فقدنا بفقدها أعطف قلب وأخلص صديق وأصلح دعوة والحمد لله • لما وصلت البضاعة أعطيت سعيدا أخى ستين ريالا قوشليا ليحضر والدى وزوجته من كركوج فأتى بهما ولم أسافر بعدها لسواكن وصرت والدا لوالدى أوفى النفقة عليه الى أن توفى سنة ١٣٣٧ هـ أى بعد أن صرت أباه خمسا وعشرين سنة والحمد لله وسيأتى حنانه على وشفقته على مالى فى حالتى الرخاء والشدة فى أوانه ومكانه •

فى شهر ذى القعدة سنة ١٣١٥ وضعت لى ابنةأسميتها السهوه ولا يخفاك يا قارىء انى معسر فى المال مشتغل بالعلم فجعلت عقيقتها دون الوسط بقليل ولما كملت عشرة سنوات لدغتها عقرب برفاعه فلما أتعبتها كان بمنزلنا الدكتور يوسف مبارك أشار لنا أن نسقيها كونياكا ــ فلما علمت ذلك جزعت جدا وقالت يا أبى اقسم عليك بالله لا تسقنى خمرا القى به ألله فرفضت سقيها اياهافأصبحت متوفاة فعلا وكنت عازما السفر للدويم كعادتى فدفنتها وسافرت من المقابر دون أن أرجع الى المنزل للمعزى كالعادة لأنى رأيت من تمام الاحتساب لمصابها عدم ابرازى علامة من علامات المأتم ٠

تسوقنا الصمغ ووضعناه على البحر للسفر ولكن حصل أن طرق سمع الخليفة أن التجار يدخلون قفرة سواكن وكان اعتقاده أن تجار المهدية يقابلون تجار سواكن بككريب بديم عثمان دقنه يتبادلون الأخذ والعطاء حتى كشفه الحقيقة الحاج محمد ابراهيم زروق ـ رئيس الأمناء فى مجلس حافل فمنع الاتجار بين البلدين ٠

فى عشرين رجب سنة ١٣١٤ وضعوا لى ابنتى آمنه وكنت غنيا كثير الأرباح كما ترى فيما يأتى فبالغت فى الصرف على عقيقتها ، فمما أذكر أن السكر كان صندوقا أعنى خمسين رأسا فلما اجتمع أصدقائى الذين دعوتهم وكان من ضمنهم المهدى أحمد مساعد قال لى : قد بالغت فى الصرف فقلت له بيت شعر ارتجالا :

عققت على بنتى وكانت وليمتى ... على أمها مالم تكن قيمة السكر

ما قولك يا سيدى ٠ فضحك الجماعة ٠

حصل بينى وبين زوجتى حفصة ما يحصل بين الزوجين لأنها أظهرت الفخفخة والافتخار ٠ ففى أثناء الحادثة قلت لها : لمن أشكوك ؟ فقامت وذهبت لقريبها محمد مكى الذى جمع معه أولاد عمه ثلاثة وأتونى الأربعة فى البيت وجاءت معهم ولكنها دخلت بيتها فاستقبلتهم بالديوان ولم أسألهم عما جاء بهم أمام أبناء عمى مخافة أن يحصل لفظ يؤدى الى شحناء فلما شربوا الشاى وانصرف أقاربى قلت لهم : جاءتكم حفصة ؟ قال محمد مكى وابراهيم البشير بتغيظ : أيوه لأنك جهلتنا قلت : أطلبوها لتحضر كلامنا . فلما جاءت قلت لهم:

ما الذى قالته لكم ؟ فقال كبيرهم : قلت لها ما عندك وليان (أوليــاء) • قلت هل قالت شيئا نسبته لى غير هــــذا ؟ قال : لا ، قلت : أنا معكم منفرد فليقم أحدكم يضربنى حتى تحجزه هى مرضاة لها • فقال : لا • ولكن نريد أن تعمل لها وقيتى ذهب • قلت : واذا ثبت لكم أنها لا أولياء لها تعفونى من الأوقيتين فسكتوا ولكنهم اشتد غيظهم قلت لا تسكتوا ، انت يا محمــد مكى أكبرهم وتذكر كل شىء وأمها شاهدة على ما أقوله لكم هل علمتم أنى حينمــا جلسنا للعقد عليها بأصوان وقال المأذون : حفصة بنت من ؟ لم يعرف من الحــاضرين اسم والدها أحد حتى قلت أنا : بنت الشيخ وأقصد الشيخ لغويا يعنى الرجل الشائب فصادف اسم أبيها الشيخ ولد سنادة وما كنت أعرفه ــ ثانيا هل علمت أنها ووالدتها مكثتا بالدبة خمسة عشر يوما وهى مطلقة منى والمسافة بين الدبة وقفر أم كتى بلدكم ضحوه فلم يزرها أحد من أهلكم مع أن الشيخ سنادة له زوجة وبنت متزوجة وكل أهله موجودون • ثالثا جئت هاربا ووجدتهما بالدبة فراجعتها لأحلل حملها أثناء الطريق حتى أوصلتها لكم بأم درمان وأنتم الألى تفزعون معها الآن كلكم موجودون هل زارها أحد أو قدم لها قرشــا أو كيلة غلال خلاف حرم بنت النور مع أنها نازلة بينكم • رابعا أنا سافرت للجــزيرة كاتبا لمختار ومعى والدتى واخواتى وأنتم تعلمون أنهما (أى حفصة وأمهــا) أخرجتا من البيت لتسكن فيه العيبة وحرم بنت علوب وقد بنت مريم بيتهــا الذى كبيت الحمام هل ساعدها أحدكم حتى أعطاها عمى محمــد على حمــد السيد أخشابا لسقفه وحتى كساها المنصــور أبو كوع ابن عمتى فالآن لمــا صارت غنية فى الحلى والعيشة عرفتموها وصرتم تقومون أمامهــا وتنتصرون لها منى • أنتم الرجل الذى يحفظ وليتكم ويسترها تكافئوه بمثل هــذا! أما تعلمون أن أكمل امرأة بها عيبان : عيب يعلمه الله والزوج وعيب يعلمه معهمــا الناس • قوموا اضربونى أو اضربوا أنفسكم فان أحدنا يستحق الضرب فانتحب محمد يبكى بكاء عاليا وانصرفوا خجلين • فلما سمع الشيخ الجليل محمــــد البدوى بكلامى لهم طلبهم وزجرهم وقال لهم : فضحتمونى بما كان مجهــولا عندنا وعند غيرنا وزارنا بالمنزل واعتذر لى مما فعلوا وزجرها هى وأقسم اذا بعد هذا يحدث مثله ليحلق شعرها •

سرقاتي من الرسوم وسببها :

في سنة ١٣١٠ كما تقدم أول مسامحتي من أبي الفتح موسى دقنا في أخذ عشوري لما رجعت شريكا لعمي مالك مباشرة في آخر السنة ورجعت في أوائل سنة ١٣١١ جعلت في صندوق السكر علفه تأخذ رأسا فزاد الرحل عشرين رأسا بثمن سواكن • وصلت أم درمان لا أجرة ولا عشـور وكانت رحولي سـتة رحول سكر ثم اشتريت قدرين ريحة بيضاء زنة القـدر مائة وخمسـة أرطال جعلت في مضيقة الأسفل صفيحة وملأت المضيق بمجموع وقفلته وسـددته بالطين مـن البحـر بسواكن • فعشر في ككريب مجموعا لكن لما وصلت بربر ظهرت الريحة البيضاء في الطين بانفتاح القفـل الأدنى واختـلاط المجموع فدقق معي محمد ولد صالح حتى كحت الطين وأخرج الصفيحـــة السفلى وعشرها بيضاء وقيمتها أربعة أضعاف المجموع • لما أردنا السـفر لأم درمان جعلت كل قدر في عدلة تمارية خيشتها من الداخل بخيشة تخينة وأتممت العدلة تمرا ولما وصلنا أم درمان أجرت جملا حمل الرحل وربطت في كل عدل قربة بها ماء حتى اذا سمع صوت الريحة من اهتزاز مشي الجمل يرى الناظر المـاء في القرب فلا يشك في أنه صوت الماء حتى وصلنا الدكان نزلنا كأنه تمر •والسكر نجا كله من العشر • أما الفاتورة فكان الصادق عثمان مسموحا له بترك نصف عشور ه من عثمان شيخ الدين فكتبت بضاعتي باسمه ونجا ربع عشرها فربحت في هذه السفرة سبعمائة ريالا وفارقت عمي مالك •

اجتمعت بيوسف أخي وسـافرنا بمجيدي صرفنـاه واشتريت قدرين محلبية أيضا وفي هذه المرة جعلت له أنبوبة لحمت لحاما محكما بقعر القـدر حتى خرجت في مضيقة قطرها ثمانية سنتيمترات وعند المضيق ثلاثة سنتيمترات ليدخل العصا وتركتها بلا طين وجعلت لهـا قفلين أحدهما في أسـفل المضيق والآخر في أعلى المضيق حيث يبتدىء البزبوز • فلما وصلنا بربر جاءني محمد ولد صالح بمسمار وخرق البزبور وأدخل فيه سلكة رقيقة لآخر قطر القـدر وسحبها وشمها فاقتنع بأنه مجموع أما الفاتورة فجعلتها من الحرائر والجوخ وأدخلتهما في صندوق غطيتهما بطبقة من السنبل ففتحوها وعشروها سنبـلا والسنبل قنطاره بسبعين قرشا وعملت في أم درمان عملنا الأول • بعنا ورجعنا

بالصمغ الذى ربحنا فيه ربحا كثيرا وعملية السرقة فى هذه المرة اشترينا زراقا كثيرا لأنه يباع فى أم درمان مختوما بالبصلة التى تكون دائرتها بمساحة دائرة ختم الحكومة التى تدمغ به البضائع غير الزراق مكتوب فيه بخط كبير يظهر (بيت المال) فلما جاوزنا الباك قلنا للفحل عبد السلام الجمال الذى بيته فى المكايلاب قبلى بربر خذ الأربعة رحول خبيها فى بيتك ففارقنا بها وأدخلها فى مخزن بيته ووضع عليها قش لوبيا وباقى البضاعة فيه رحلين من القدور كالسابق محلب وريحة يابسة محاطان بخولنجان فلما رآه عمى محمد ولد صالح قال لى ماهر وذلك بعد جواب السيدة نفيسة كما تقدم بعد يومين طلبنى عمى الريح حامد أمين بيت المال وقال لى الأربعة رحول الزراق التى وضعها الفحل عبد السلام فى مخزنه ووضع عليها قش اللوبيا الأحسن تقدمها للعشور والا نغنمها • قلت يا عمى الريح مخبرك هذا لماذا لم يضع عليها خفيرا يحرسها لكم ؟ انى مسامحكم غنموها ان صح ذلك وكان يوسف أخى بجانبى فقلت له فى أثناء كلامى : بخيت فرحات (وهو جمال نامنه) للسفلاوى الى قتيبه لمحمد مصطفى بالفاضلاب • فقام من وقته لبخيت وحملوا الرحوله للسفلاوى الذى عبر بها النيل بالداخلة (أتبره الحالية) على طوف دوم لمحمد بالفاضلاب الذى وضع لها مرقا على فم حفره وعلقها فيها خوفا من الأرضة • وبعد يومين طلبنى عمى الريح وقال لى الرحول عبرت النيل بالداخلة ووصلت الفاضلاب علقت بحبل فى حفرة فى عمود خوف الأرضة وأنا لا أعلم ما قصه لى قلت غنموها ياعم الريح • قال أفضل ترجعها • قلت يا عمى الريح لا تكلمنى ثانى مرة فى هذه الرحول غنمها غنمها وكررت ليوسف بخيت فرحات يضعها عند شيخى الفقيه محمد حامد بالمتمة فقام من حينه لبخيت الذى أوصلها المتمة فطلبنى عمى الريح وقال لى ان الرحول وصلت المتمة وسنكتب لأمين بيت مال أم درمان بها قلت له هى خرجت من دائرة اختصاصكم • قال نكتب فيها للنور الجريفاوى أمين بيت مال أم درمان • فقلت أفعل ما شئت ومشيت • فلما وصلنا أم درمان وبعد أن أخذوا عشر ما قدمناه من البضاعة كان بعيبتى هذه المرة من الخزر والجلاد ما قيمته فوق الألف ريال دخلت بها وكالة العشور وأريت الأمناء مختار محمد وحسن حدربى ثيابا وفركا لا قيمة لها وأخبرتهم أنها كسوة

للعائلات فسلموني اياها وحمل العتالة البضاعة التى أخذوا عشرها ولما وصلت باب الوكالة لقيني عمي يوسف سلمان (وهو أكبر العمـال المنوط بهم ثلث الصمغ وعشر البضائع ولا يمكن أن يقبل رشوة) قال لى مافى هذه العيبة ؟ قلت له ورميت له المفاتيح بعدم مبالاة لما بها وقلت : البضاعة تقدمت فتشها وأرسلها لى فقال : خذها والحق بضاعتك • ولو أني تلجلجت فى الجـواب أو جمد دمي من الخوف أو الكسوف لاستلمها وفتشها •

فى يوم ما جاءنى صـديقى الحميم المرحوم ابراهيم حمودى الفضـل الحضرى وعرفنى أن عمي يوسف سليمان وضع على منزله حرسـا بتهمة أنه عنده ختم مزور يدمغ البضاعة كختم بيت المال ويأخذ على ذلك نصف العشر ممن يختم لهم بضاعتهم • واعترف لى انه يعمل ذلك فعلا • فاذا ضبط هـذا الختم لا شك فى ترحيله للرجاف وموته هناك أو تقطع يده ورجله وطلب منى مساعدته بما ينقذه من الورطة • فبعد روية اهتـديت لأن أذهب لعمي يوسف سليمان وأخبرته أنى كنت ذاهبا لزيارة الشيخ عبد الله الفقيه الأمين أم حقين ، وبرجوعى لقينى ابراهيم حمودى محملا عائلته ووالدته ذاهبا الى المتمةوعرفنى أنك السبب فى رحولته لقصدك له بناء على وشاية أعدائه فأنزلته بالعجيجـة لحينما أقابلك لأنى ما رضيت لك هذه السمعة •• الخ •

والسبب لسرقتنا بضاعتنا بهذه المخاطرة هو كثرة الرسوم الموضوعة من الحكومة على البضائع بحيث لو يدفعها التاجر تماما لم يبقى له من رأس المال الا سبعة أجزاء من ستين جزءا • وهاك حسابه لتنظر ذلك :

ندفع على الصـمغ من الدويم لأم درمان الثلث وفى بربر السدس وفى ككريب الجمل ومتوسطه أربعة قناطير خمسة ريالات قشلي يعنى جنيه وقيمـة متوسط الصمغ خمسة عشر ريالا . اذن تكون رسومه واحد على الاثنى عشر وعندالرجوع يؤخذ فى ككريب الجمل عشر وفى بربر عشر وفى أم درمان عشر فيكون

$$1 - \frac{1}{3} = \frac{2}{3} \text{ و } \frac{2}{3} - \frac{1}{6} = \frac{1}{2} \text{ و } \frac{1}{2} - \frac{1}{12} = \frac{5}{12} \text{ و } \frac{5}{12} - \frac{1}{10} = \frac{19}{60} \text{ و}$$

$$\frac{19}{60} - \frac{1}{10} = \frac{13}{60} \text{ و } \frac{13}{60} - \frac{1}{10} = \frac{7}{60}$$

هذا ما يبقى من رأسمال التاجر وهذا بخلاف العشرين قرشا التى تأخـذها حكومة سواكن على الجمل داخلا وخارجا • فبالله عليـك يا قارىء ما هى التجارة التى تربح ألف فى المائة ؟ ومن وراء هذه الرسوم مصـاريف التاجر

ذهابا وايابا له • ومصاريف أولاده وراءه • أتنكر بعد هذا علينا السرقة فى رسوم مهما بالغنا فى اخفائها وتعبنا وتفننا فى أساليبها ؟ اللهم لا لوم علينا •

انشاء الله انتم الغابة وهم الحطابة :

تركت السفر لسواكن وأقمت فى سوق أم درمان اشترى البضائع ممن يجلبونها وأربح فيها فى شغلى هذا • فاننى ان ذكرت لك فى بعض أسفارى خبأت بضاعتى فى مركب تحت بضائع الرباطاب ــ كالزعف والتمر فلما وصلنا أم درمان جاءنى مختار محمد سليمان مفتش البضائع الذى يعشرها وهو كان معنا بخلوة القرآن برفاعة وهو عرفنى وأنا لم أعرفه وظننته تاجرا يدعى شبيطة فسألته عن أثمان البضائع وأطلعته على كل بضاعتى بأنواعها واعدادها مخبأة وظاهرة فلما أتممت كلامى تأكد انى لم أعرفه فقال لى انت يا بابكر ما عرفتنى وكان ذلك فى سفرتى بعد انفصالى من عمى مالك فى سنة ١٣١١ وقال لى أنا مختار ، فسقط فى يدى فلما رآنى ارتبكت هدأنى بقوله : أخرج ما كان ظاهرا فى البضاعة والمخبأ اتركه فى مكانه حتى يأتى عمى العوض فاذا قال خذوا العشر فقط أخرج كل البضاعة للعشر فاذا قال خذوا نصفها أو ثلثها بعد العشر كسلفية على بيت المال يكفى أن يأخذوا منك نصف أو ثلث ما أخرجته فقط • وفى أثناء كلامنا جاء عمنا العوض ويوسف سليمان وأمراه أن يأخذ العشر ونصف البضاعة سلفة ونفذ الأمر وترك المخبأة • فهذه أول خدمة ، وبذا انعقدت بيننا صداقة متينة وتبادل نافع واليكم قصته كاملة :

حينما أردت أسافر أوصانى لأحضر له معى سبحة يسر وعقد سوميت فأحضرتهما له وحلفت من ثمنهما الذى لا يتجاوز السبعين ريالا قوشليا يعنى ١٤ جنيها • فصار يجاملنى فى العشور ويقبل شفاعتى لغيرى ثم جعلت له أمانة تجارية تزداد ربحا وافرا ، ثم تزوج ووضعت له بنتا اشتريت لها فرخة تحملها واعترف ان ماربحته منه ضعف ما أعطيته ونحن على صفاء حتى جاء محمد منصور يحمل خطابا من أبى علام لأساعده فى العشور فلما أخبرت مختارا وكنت موجودا معه ، فبدلا أ نيحترمه أو يتسامح له عن بعض العشر ضربه بكفه على خده بعد أن أخذ منه العشر كله فأنكرت هذا الانقلاب الفجائى وقمت ركبت حمارى وذهبت للسوق فلما كان وقت العصر جئته بمنزله فرحب بى كعادته

فطلبته فى خلوه فخرج معى فقلت له يا مختار عرف سكان أم درمان التجار اننا صديقان وبما اننا معروفان ولا يجوز أن تتهاجر مهاجرة النساء أو العامة جئتك لأنصح لك انى لست صديقك المخلص كما كنت فلا تعتمد على صـــداقتى والمعاملة الماليـــة بينى وبينك (أعنى أماتتك عندى) محفوظة السر مأمونة النقصان • فالذى أريده أنك اذا سبقتنى فى مجلس جئته بعدك أو ضمنا مجلس تحافظ على ألا يفهم أحد بيننا جفـــوة ولك على أنى لا أسمح لك به منى ، فاضطرب جدا وبدأ يعتذر ولكنى بارحته فجاءنى فى الســـوق وجلس معى فبدأت أريه بضاعتى التى بدكانى كلها معشـــوره ومختومة ، فأمســك بيده زجاجة فيها نحو رطلين محلبية وقال لى هذه معشورة يمزح،فقلت لا وأمسكتها منه وصوبت فمها للأرض • فلما قبض على يدى حلفت عليه بالطلاق ليطلقنى حتى صببتها كلها فى الأرض فنهض قائما وانقطع عن دكانى ولكنــه يزورنى ببيتى رغم قطعى زيارته الا فى مناسبات قاضية بالزيارة •

دخلت سنة ١٣١٤ وصمغنا موجود كله ومعه لحاوى ورحـــول نطرون وجوالات ملأى بريش النعام وأنا بدكانى ، ففى يوم بعد سقوط دنقــلا بيد الحكومة مر على بالشارع على حمد صاحب الحماره التى بعتهــا ببلان كمــا تقدم ومعه ثلاثة رجال فقمت له وعانقته وصافحت من معه فأجلستهم وطلبت لهم قهوة فأخذ على حمد يصوب ويمعن فى بضاعة الدكان ثم قال لى لمن هــذا الدكان ؟ قلت لى • فقال هذا كله ملكك ! فقلت نعم فقال أعوذ بالله من السلب بعد العطا انت يا بابكر نصرانيا لأنه لا يمكن لأحد من أصحاب المهدى أن يملك مثل هذا الا اذا انقض البيعه وأراد على أن يقوم فتعلقت به وقلت له : الليــلة هذه انت وهؤلاء الاخوان الذين معك بيتوا معى بمنزلى وفعــلا بتنــا معــا وتآنسنا فسألته هل اتهمنى بأنى بعت حمارته فأقسم بالله لم يجل فى خلده مرة واحدة وانه نسيها ولم يذكرها الا بحديثى هذا فأعطيتــه ستة عشر ريالا وكل واحد ممن معه أربعة ريالات بعد أن حكيت له الحكاية التى تخص الحمــارة التى تقدمت •

انتصفت سنة ١٣١٤ وقضيتها بأم درمان تاجرا وطالب علم رغم منع التعليم رسميا فقرأت على الفقيه حامد محمد أحمد الأزهرية منفــردا بمنزلى ثم جاءه

الفقيه أحمد كريم الدين ومحمـــد نمر السعدابى يحضران المختصر والألفيه واتخذت له مخبأ فى بيت محمد خير كريم الدين الذى قتل بالمتمـة وأخـذت سقوف غرفه فسقفنا له محلا لا يعرف وصرنا نقرأ عليه ٠ وقرأت أب النجا على الاجروميـة على الشريف ود أبى خف ومعى الشيخ سيد أحمـد الأزهرى ثم أكملت دروسى على الفقيه حامد محمد أحمد الى يوم خروجنا الى واقعة كررى لم نتركها يوما الا أن أكون غائبا أو مريضا ٠ وفى كل هــذه المدة صمغنا مرصوص على البحر حتى جاء المنصور أبو كوع من بربر فى آخر شهر ذى الحجة من السنة ونصح لى وألح على فى سفر صمغى ليبقى ببربر لأن الحـكومة أصدرت أمرا بسواكن ان كل الصمغ الذى تجده فى أم درمان تصـادره ٠ فسفرته فى آخر أسبوع من محرم بمركب عبد الله سعد التى رئيسها عبد الباقى العالم الزيدابى وسفرت معه اللحاوى الفارغ ورحول ملأى بالنطرون وجوالات ملأى ريش نعام والمنصور نفسه سافر فى المركب لبربر وعنده فيها غلال ٠ فلما وصلوا المتمة وجدوا الأمير عبد الله سعد عرض بمن معه ضد المهدية وخاطب الانجليز بمروى لينجدوه بسرعة فلم ينجدوه كما آمل وقبضـوا على صمغى يخرجونه بالمتمة ويحتفظون بمركبهم ولكن أصدقائى بالمتمة شفعوا عنده فترك المركب تصل بربر وترجع له ٠ فلما وصلت الزيداب (وطن رئيسها) وجـدت الأمير حسنين عرض أيضا فأخرجوا الصمغ وما معه وأدخلوه فى مربوع التهامى بما معه من النطرون والريش ٠ وأخونا المنصور أجر مركب صـغيرة شحنهـا بغلاله وترك بضاعتنا وسافر لبربر سامحه الله وسنرجع لسيرة الصمـغ ٠ كان بعض أولاد عمى وبعض أولاد خالى ضيوف عنـدنا يأتوننا فى أول الشتاء ويستمرون يتاجرون وهم ضيوف الى وسط شهر أغسطس حتى وان بعضهم يعمل عصارة فى بيتنا ويسعى الكباش الباطلات لتسمن ويبيعها فاذا هوى أحد أولادنا بأن يضرب الكبش يضرب صـاحبه الولد بدل الكبش وذلك فى أول سنة ١٣١١ الى آخر شـعبان سنة ١٣١٦ حيث رحلت من أم درمان بوالدى وزوجتى الأولى بأولادها الى الجزيرة كما سيأتى :

ومما أتذكر أن على صديق طلب منى أن أمشى معه الى محمـد سليمان قاهر لأخلصه من دفع رسوم بضاعة الدامر فقلت له ان رجلين اشتريا منى ريحة

تركاها عندى أمانة أمش للسوق أسلمهما اياها وأرجع لك فجذبنى من الحمار ثم أمسك عنقى ولزنى بعنف حتى وقعت على وجهى فى الأرض • فقمت ركبت ومشيت معه لمحمد سليمان وخلصته منه وتوجهت نحو السوق ، فلما مررت بجنوب بيت المال رآنى عمي يوسف سليمان فنادانى فلمـا وصلته وجدت معه جمعا من أولى الحاجات وأظنهم من جماعة الكاره • قال عندك نقود جاهزة قلت بيع أمس بالدولاب قال أبيع لك تسعين ثوبا من الولايه ذات الثوبين بسعر ١٢٠ قرش (مائة وعشرين قرشا) بشرط أن تدفع لهؤلاء خمسمائة ريالا قوشليا • قلت قبلت ولكن استلمها مقدما • فسلمنى اياها وحملتها على الحمير ومشيت مع الجماعة والبضاعة معنا الى السوق ففتحت الدكان وأدخلت الولاية فى مخزن وقفلت عليها ثم وضعت الصنجة ذات الـ ٢٥ رطل فى كفة الميزان والنقـود فى الكفة الثانية حتى توازيا • هذه ٤٠ ريالا وعددت لهم معها مائة ريال وبقى فى الدولاب نقود هذا يوم واحد • سمع التجار بالولايه وازدحموا على فحددت السعر ٢٠٠ قرش تجاذبوها فى الحال فربحت كل ثوب ثمانين قرشا وهذا ببركة تحمل الأذى للأهل والارحام وعمى على شكالك الذى كان يؤذيننى كما قرأتم ، أحد ضيوفنا كلمـا ، جاء لأم درمان كنت أبالغ فى اكرامه لأنى أعلم انه كثير الجوع بين الوجبتين الفطور والعشاء لأن فى وقت الغذاء نكون بالسوق فكنت أوصى مشددا بأن يعمل له الغذاء والشاى حتى قال مغنينا فى هذا المعنى :

« خلاف الشاى فى النهار اتنين أكلتنا »

أكتب لكم هذا يا أولادى لا تمجيدا لنفسى ولكنى أريد أن أريكم ان الارحام لها حق لا تسقطه اساءتهم لأحدكم قال تعالى « وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ــ فلمـا رأى والدى صبرى على اذاهم ونسـيانى لاساءتهم شكرنى ودعا لى قائلا انشاء الله يا ولدى « انتم الغابة وهم الحطابة » والمعنى أن تدوم حاجتهم لكم وفضلكم عليهم كما تدوم حاجة قاطعى الأخشاب لمحل الأشجار الغزيرة كما يدوم تعويض كل ما قطعوه منها بنمو أو بنبات غيره منها ، وهذه دعوة صالحة كررتها لابراهيم مالك بدنبك بلدنا بكشوى حينما جاءنا على صديق فى آخر يوم أسافر فيه من الرباطاب سنة ١٩٢١ سائلا أعطيته خمسين قرشا وأعطاه الشيخ ابراهيم ثلاثين قرشا أمسكها بيده وقنت مستقلا

لما أعطى وقام مغضبا ومشى فقال لى ابراهيم يستحق أن نرجعها منـه فقلت له اتركه انشاء الله نحن الغابة وهم الحطابة •

هروب سلاطين وما بعـده

من حوادث هذه السنة سفر سلاطين وما ترتب عليه مايقال ان عبد الماجد الحاج محمد الغبشاوى قد أخبر الخليفة عبد الله بأن أحمد العجيل هو الذى سفر سلاطين واحضر له الزاكى الذى سفره فعلا والسبب على ما سمعناه وقتئذ مصداق الحكمة القائلة ما اجتمع فرجان فى منكوح واحـد الا ألقيت بينهمـا العداوة والبغضاء ، فان عبد الماجد طلق زوجته التى فى الرميلة تأديبا لهـا وفى نيته مراجعتها فسبقه أحمد العجيل وتزوج بها على عهدة الراوى • اماالحوادث التى رأيتها ان الصادق عثمان التاجر الميرفابى صـديق شيخ الدين سمعته مرة فى السوق قال والله لو يسلم لى مالى هذه السنة لا أتاجر بعدها أبدا • وكان ابشر عثمان شريكا تجاريا لأحمد العجيل الذى كان أكثر أيامه يقضيهـا فى الرميلة مع العروسة ، وابشر هو الذى يباشر الدكان لا يغيب عنه ففى يوم أنا والصادق ومصطفى الأمين بدكان ابشر عثمان بلغ الصادق ان محمـد أبو بلل ومعه جهاديه توجه لمنزل محمود عيسى وكان للصادق صندوق فيه تباكو(تنباك) وهو ممنوع جدا استعماله ، والاتجار به ، فأسرع الصادق الذى بجيبه مفتاح الصندوق ليصل قبلهم ولكنه وجدهم عند الباب فدخلوا معه • فأراد ولد أبى بلل أن يحمل الصندوق بما فيه لبيت المال ولكن الصادق فتحه وأخرج منـه ورقة ليأخذها غير ان محمد أبا بلل خطفها منه وفتحها فاذا خطهـا أفرنجى ، فبقدر ما ترجاه الصادق وتذلل له من كبريائه وبالغ له فى الرشوة لم يتركها له وأوصلها للخليفة ، فطلب ترجمتها فاذا بها أن الصـادق متفق مع الحكومة بسواكن بترحيل أفرنجية من أم درمان وفى صباح ذلك اليوم خرج الصادق من مخزن بضاعته التى ملأت ثمانية غرف بقرب السـوق • وذهب للسوق فكان التجار يسألونه عما حصل وكنت ومصطفى الأمين من أصدقائه فتوجهنا معـه لبيت مخزنه فأخذ يتوضأ للعصر • فلما كان فى يده الشمال دخل محمد أبو بلل ومعه كل الحماره بحميرهم وجهادية بيت المال ، فقال له هات مفاتيح البضـاعة فما زاد على أن قال له البضاعة كلها أو بعضها • فقال بأنفه كلها • فادخل يده

اليسرى وأخرج المفاتيح من جيبه ورماها له فى الأرض • فأخذها وفتح مخزنين نقل الحماره ما فيها ، وكادت الشمس تغرب صلى الصادق العصر معنا فى جماعة وبعد الصلاة جلس على كرسى فلما فرغ محمد أبو بلل شمع مافى الحواصل بالشمع الأحمر ووضع خاتمه على شريط من الناحيتين وذلك أول يوم أرى فيه الشمع الأحمر ثم تناول عمة الصادق من رأسه وكتف بها يديه على ظهره وساقه لبيت المال راجلا وأنا ومصطفى الأمين تركنا حميرنا ومشينا معه بأرجلنا حتى وصلنا بيت المال حيث وجدنا عمى العوض الذى أخذ له أبشر عثمان من دكانه فوجدناه يقول له : يا زول أمن نفسك ولا تقتل نفسك • فيرد عليه أبشر عثمان أنا وأحمد العجيل نموت معا أو نحيا معا وبقدر ما ألح عليه تمسك بمبدئه هذا ، ثم جيء بأحمد العجيل وفى عنقه جنزير وابور حامله على ظهره فوضعت فيه فى الحال ثلاث مكيات وأدخل السجن ثم التفت علينا عمى العوض أنا ومصطفى وقال لنا أنتما مجنونان هؤلاء جناة محكوم عليهم بالموت ماذا تريدون منهم ، أمشوا أخرجوا حالا والا أدخلناكم معهم • ثم قال لنا خذوا أبشر عثمان معكما فراجعناه قبل أن يدخل السجن فيؤتم أولاده بلا سبب • فلما التفتنا الى أبشر عثمان قال لنا أنا مع أحمد العجيل تمتعت معه والله وعلى الطلاق سأموت معه فتركناه وخرجنا • انظر الى هذا الوفاء وقارن بينه وبين وفاء السموءل ذاك بابنه فى أمانته وهذا بروحه لمجرد صداقه • اللهم هذا أكثر وفاء ولكنه ما وجد أمة تسجل له هذا الوفاء فأدخل معه وسفر معه لبحر الجبل ومات معه • أما الصادق عثمان فقيد وأدخل السجن ولم أره بعدها حيث سفر لبحر الجبل والخبر الذى جاء عنه وقتئذ أنه نزل على دفة المركب التى يقطرها الوابور ليتوضأ فاختطفه تمساح والحكم لله العلى الكبير •

يجب أن نقارن بين معاملة الخليفة عبد الله لأولاد البحر وبين هذين الرجلين • الصادق كان باشبوزق فى الحكومة السابقة وأحمد العجيل كان تربال ساقية • فصارت مالية الصادق بسبب صداقته لشيخ الدين تقدر بستين ألف ريال • ومالية أحمد العجيل بنصفه ، فخاناه فى صميم دولته وبين تأثير الخليفة لأهل الغرب من أول توليته بحيث جعل عثمان آدم بالفاشر بدل محمد خالد زقل وحامد على بكسلا بدل أبى قرجه ويونس الدكيم بدنقلا بدل ود النجومى

الذى عرضه هو وجيشه للموت المحقق وعثمان الدكيم ببربر بدل محمد الخير عبد الله ومحمد زين بأبى حمد بدل أولاد محمد أبى حجل ، أترك هذا الحكم للقارئين .

المهدى أحمد مساعد أعرفه منذ نعومة أظافرى وفى هـــذه السنة جاءه شريكه حمد الكردى وحاسبه وكنس دكانه حتى ترك رفوف دكانه خاوية . لما سمعت ذلك طلبته فى ساعته وقاسمته مافى دكانى من البضاعة الا الريحة التى احتكرتها داخل مخزنى وقيدت عليه الثمن وصـــار يدافعنى حتى خلصنى ولم أترك له شامتا ولا أوقفت حركته التجارية ثم أشترى بما ربحه ريشا وسافر لمصر حيث اجتمع بمحمود المكى وعقدا شركة مع عبد المجيد حسن قريب جاء بها بعد فتوح أم درمان .

توفى الشيخ عبد الغنى السلاوى العالم الجليـــل الذى يحفظ القاموس المحيط تقريبا ، فما تسأل من كلمة لغوية الا يقرأ لك كل المـــادة . زرته يوما فوجدته حاقنا فقال لى : أئتينى بحسن زكى فأسرعت له طاردا حمارى فلمـــا جئت به وقربنا من بيته سمعنا البكاء عليه فبهت ومشيت فى جنازته حافيا جزعا على وحيد نوعه فى كل العلماء فى اللغة ولم أفتشه فى غيرها . ففى الجبانة أخبرنى يوسف كورتى صمغى ضاع بالزيداب فقلت له ويوسف أخى وصل بربر بعد أن تعرض للموت ثلاث مرات فحمدت الله وعملت حفلة فرح مدح فيها الشيخ أحمد أبو شريعة بزماله كلهم وفيها الشيخ ابراهيم أحمد كراع النعامة والمشايخ على طلبه والصاوى وغيرهم من مقرئى المصريين كلهم . فسهرنا ليلتنا .

فى هذه السنة طلب الخليفة عبد الله محمود ولد أحمد بجيشه من الفاشر فانتشر الريال المجيدى فى السوق فما كان يصرف لجيش محمود وكان مسبوكا فجعل التجار يأخذون الريال منه بنصف ريال القوشلى أو أبو طيره هو العملة المستعملة فى سواكن وقيمته ٢٠ قرش . اما الريال المجيدى فقد صار بضـــاعة بقيمة ١٦ قرش وحصلت فى السوق ربكة فى ثمن البضائع . فاشتكى جمـــاعة محمود للخليفة عبد الله مباشرة أو بواسطة لا أدرى ، انما الذى أذكره لهـــذه الحادثة ان الخليفة جمع كل التجار المعروفين وكنت منهم وذلك بواسطة الامناء العشرة من التجار ورئيسهم محمد ابراهيم زروق وقال : لماذا تعتبرون الريال

للاخوان جماعة محمود أحمد نصف ريال ؟ فخاطبه محمد ابراهيم زروق قائلا: يا سيدى لأن التجار حينما يصلوا فى سواكن لا يقبل الريال المجيدى المسهوك الا فى نصف ريال قوشلى لأن المجيدى أصبح بضاعة فى سواكن يشترونه كفضة غشيمة فغضب الخليفة عبد الله وقال أصحاب المهدى يدخلون عند الكفره ٠ قال نعم يا خليفة المهدى ٠ قال الخليفة الله عالم وشاهد النور الجريفاوى وجماعته قالوا أصحاب المهدى يجتمعون بتجار سواكن فى ككريب يستلموا منهم البضاعة ويسلموهم الصمغ ٠ فقال محمد ابراهيم أنا يا خليفة المهدى لا أكذب عليك ، الحقيقة ما أخبرتك بها ٠ فغضب الخليفة ودخل بيته وفى غد منع التجار من سواكن

اجتهدت أنا فى احتكار الريحة اليابسة لأن عندى منها قرنفل كثير يتيم ، صرت أشترى كل الوارد منها حتى جمعت نحو أربعين قنطارا وانقطع الوارد وعدمت بالسودان غيرى ٠ فصرت كل يوم أخرج قدر قنطارين لا أبيع منها الا للفراشة (التجار الصغار) لكل واحد ثمن قنطارا أى اثنا عشر رطلا ونصفا بثمن أفرضه عليهم فرضا (ولم يكن وقتئذ تموين بل كل السوق سوق سوداء) حتى نفدت الريحة ٠

فى شهر ربيع من هذه السنة اشتريت مؤونة ستة أشهر غلالا بسعر الأردب ريال وربع ريال وأودعت عند والدى ما أردت حفظه من النقود للطوارىء لأن الأمير محمود عين لعبد الله ولد سعد والحكومة استولت على أبى حمد فقال لى والدى اشتر بكل هذه النقود التى سلمتنى اياها غلالا واحفظه فى الأرض فقلت له ان الغلال مادام ولد السنى مسيطر عليه فى الجزيرة لا يتعالى ثمنه قال: ولم ؟ قلت : لأنه يوجد عند الجهادية والمناديب ومن يتبعونهم يبيعونه رخيصا ٠ فقال لى بعد أن تبسم ٠ هذا من أسباب تعاليه ، لأنه اذا أجدبت سنه أو أتوسطت يأخذ أحمد ولد السنى ومناديبه مؤونتهم ومؤونة باب الخليفة وينعدم الغلال فترتفع قيمته ارتفاعا غير منظور ٠ فما سمعت كلامه ولما جاء آخر شعبان وطلب منى الغلال نزلت البحر وجدت الأردب ستة ريالات ٠ اشتريت لآخر محرم وفى أول صفر جاءنا خبر قتل عبد الله ولد سعد ومن معه بالمتمة بواسطة جيش محمود وقتل حسنين ومن معه بالزيداب بواسطة على فرفار وانقطعت

المواصلات • فلما طلبت الغلال وجدت الأردب اثنى عشر ريالا ثبت فى هذا الثمن حتى شهر رجب من سنة ١٣١٥ حيث صار الأردب ثلاثين ريالا ونفذ غلالنا وقلت نقودنا وأفراد عائلتنا رقيقا وأحرارا وضيفانا يزيدون فى مجموعهم على الأربعين نفرا ومما زاد الطين بله انه وضعت الرسالة ابراهيم بدرى يوم ١٥ شعبان سنة ١٣١٥ فخسرنا فى تسميته واشترينا خادمه لوالدته وطلب منى صديقى مصطفى الطاهر مبلغا يسمى به ابنه عمر الذى وضع فى شعبان أيضا فدفعت له ما كان عندى من النقدية وهو ريالات قليلة تصبرت وكيف يصبر رب عائلة كهذه فقدت مؤنتها • فحاورتنى نفسى أن أطرق أصحابى يسلفوننى فبدأت بأبناء عمى ضيفانى فتنكروا لى وبعضهم رحل من بيتى ، فتصاغر عند ذلك كبريائى وتنازلت عنه وقلت :

ذا المال لا تغترر فالمال غرار
الناس بالناس والمحتال محتار
كم للضرورة أحوال تبيحك ما
قد تقشعر لذكراه وتحتار
قد كنت أزعم انى لا يزعزعنى
عسر ويسر لدى الحالين صبار
لكن طفلا وشيبا عز صبرهما
الطفل يبكى وصرح الشيب ينهار
زعمت الا أقوم الدهر من أحد
ببابه صاغرا ان حل اعسار
لما اقتحمت من اللاواء لجتها
قد صار عزمى وعزم القول طوار
وصار كل حبيب كنت آمله
لكربتى شامتا للعرف نكار
فصار يقتادنى ذل الطميع الى
بيت اللئيم وما للجود ديار
حتى لجأت الى من ليس يهملنى
فاسبل الستر ان الله ستار

أنا فى هذه الحيرة جاءنى موسى يعقوب من أصدقائى ولكنه لبخله لم أطرق بابه جاءنى كلفنى أمشى معه لرفاعة قائلا ان ابن عمكم مختار العامل بلغنى انه سيقلع مطاميرى فاعتذرت له لعدم وجود غلال بمنزلى ولا يمكننى أترك عائلتى بهذا الحال وأسافر فسلفنى أردب أقسمه لهم وأقوم معه فرأيت ذلك من فضل الله الذى سخره لى وكان مختار قال لموسى يا موسى انى كنت مشتاقا لزيارة بابكر لى برفاعه فلما رأيته معك تمنيت انه لم يأتنى ٠ انت ياموسى سمين وأبيض كنت أظنك من البساريين (مواليد بالهلالية كبيرى الأجسام) ثم قال له كنت عازما أن أقلع مطاميرك وانت تنظرها فلا يقيد لك أكثر من نصفها والباقى يكون خشم وسوق وعلائق وحق الفعلاء والخفراء ولكن عندك بخت حيث جاء معك بابكر وأعطانى مختار ست أرادب قلت لموسى استلم أردب سلفتك هنا وأنا أعطيك أجرته فقال لا واذا غرقت المركب ورفض بتاتا أنزلت أرادبى معه وقلت له سلمها والدى وتأخرت مع مختار الذى أخذنى معه بمروره لضواحى رفاعه ووجدته آخذا الشيخ ابراهيم مدنى نديما لأنه ظريف وعالم ٠

لما وصلنا معه حلة الطنضب وجدنا كبار الشكرية هناك فى انتظار مختار وهم المشايخ محمد عوض الكريم عبد الله عوض الكريم على الهد حسان أبو سن ٠

جلس مختار على مقلوبة عليها فروة وجلسنا مع أولاد أبو سن ٠ دخل علينا مختار ولد الحسين ومحمد ولد شوش ومحمد ولد أحمد وكلهم من أقارب عبد الله سعد فدارت بالمجلس سيرة عبد الله سعد بمناسبة حضور محمد شوش من المتمة فقال على الهد عبد الله ولد سعد شنو الاضينة وفضح بنات عمه فغضب مختار حتى ورمت أنفه وصبت دموعه ثم التفت على ولدالهد وقال له يا على ، عبد الله ولد سعد ما قال طلبت منى أشياء أنا لا أسلم بها حتى أموت تجرى بعدى وفعلا وقف دونها حتى مات ما عليه فى ذلك عيب انما العيب على الناس الذين قالوا نحن ننشف فى المكان الذى مطرنا فيه وما نفذوا ماقالوا ماتوا والقيود بأرجلهم فالتفت اليه محمد أخوه وقال له (شن من بلاده ده ياعلى الزول يقوله كلاما يندم عليه وينبذ فيه) فخرج محمد ولد شوش وطلبنى

وقال لى أنا كنت سمعت بأن مختار زاره أحد أولاد عمه المقربين عنده وجئت لك بمختار ومحمد ولد أحمد كشاهدين ليرجع لى مختـــار غلالى الذى قلعه وسفره لمنزله بأم درمان وان لم يرجعه لى اشتكيته ولكن الآن أرجوك أن تقول له قال لك عمك محمد ولد شوش كلام على ولد الهد الذى رديت عليه وأخجلته به فى المجلس يقصدنى به وقلت له انت كلاما أنا لا أستطيع أقوله له فى هـذا الوقت أخبره انى قد عفيت لك غلالى لا تسأل عنه فى الدنيا ولا فى الآخرة وعلى الطلاق اذا بقى لى شىء فى خيلى لأهديت لك أفضلهـــا واذا كنت فى حالى فى المكانة والميسرة لكنت أزوجك ابنتى نظير هذا الكلام والسلام . دخلت على مختـــار وقبل أن أخبره جاء الغداء فقـــال له الشيخ محمد أبو سن : تفضـل يا العامل فنهض قائما وقال أنا آكل عنـــدكم ؟! آكل السم اذا ونادى شدوا زواملنا فشددنا ومشينا لعد الحاج نزلنا بمنزل مختار الحسين الذى تركنـاه معهم فذبحوا لنا خروفا تغدينا وتعشينا منه فطلب مختار وكيله المأمون طه وقال له : انت قلعت غلال محمد شوش ففى هذا الليـل تفتح مطاميره وتملأها من غلال الشـكرية وتدفنها القصـابى قصابى والفيتريته فيتريته وتاتنى غـدا العصر برفاعه تخبرنى بانك نفذت امرى تماما فنفذه .

كان لعمى مالك رحل مرمر مخبئه بمنزل محمد اليمنى بالسوق فركبت وبحثت عن عمى مالك لأخبره فوجدته بمنزل عبد القـادر محمـد ولد الأمين كاتب الامير يعقوب فاخبرته وركبت معه فوضح لى من كلامه انه ربما يتهمنى فحلفت له حتى وثق من براءتى فأشرت عليه بانا نمضى لمحمـد أحمـد كاتب الشونه لأنا نعرفه فنرشيه ونأخذ من كل عدله نصفهـا فأبى وقال ان ابراهيم رمضان امين بيت المال صاحبه وكان جاره قبل ترحيله من السور وهو يمشى له المغرب بمفرده ويعمل معه الترتيب فوافقته على ذلك ولكن سرعان ما غير فكره ومشى للشيخ محمد عمر البنا فوسطه لابراهيم رمضان واعطاه له خمسين ريالا فابراهيم رمضان غضب جدا فلمـا قابل عمى مالك الشيخ البنـا قال له قابل ابراهيم رمضان ببيت المال غدا فما شككنا انه اتفق معه على شىء يريحنا فلما قابلنا ابراهيم رمضان ما كان منه الا أن طلب سرورا السجان وأمره بسجن عمى مالك فقلت له عمى ابراهيم نحن لنا أمل تعطينا بعض البضاعة فقبض بيده من

التراب وقال لى دى ما أعطيكم اياها فقلت له الأرض نحن نمشى عليها وبنينا بيوتا فوقها وتوجهت لعبد القادر الأمين الذى جاء معى فى الحال وكانت النتيجة من مجيئه أن شاتم ابراهيم رمضان وأغضبه حتى زيدت أغلال عمى مالك فمضيت فى صباح اليوم الثانى للشيخ بأن النقا وكيل راية يعقوب الزرقاء ورافقته فلما قابل ابراهيم رمضان ضحك معه وقال له يا ابراهيم ! مالك صديقك وجارك واعتماده عليك بعد الله تسجنه .. فضحك ابراهيم رمضان وقال له سجنته لتساهله من العجيب انه وسط لى الشيخ محمد عمر البنا نديم خليفة المهدى وانت تعرفه خفيف اللسان يقول ما يشاء ومالا يشاء قوله فانى خفت ان ينطق عند الخليفة بهذا فاعطب .. والآن نطلقه لكم قال نعم تطلقه وتعطيه شيئا من بضاعته قال ابراهيم والله ان البضاعة سجلت وبيعت ولكن أعطيه ماتطلبه له من الصمغ فاتفقنا على أن يعطيه صمغا بثلث قيمة الرحل ويضعف من قيمة الصمغ حتى توازى النصف فعمل بذلك ولكن الشيخ بان النقا رجع قبل أن ينتظر فك أغلال عمى مالك فأحالنى ابرايهم رمضان برسول على السجان الذى أقسم لا تحل أغلاله الا بثلاثين ريالا أرجعناها لعشرين فمشيت الى منزل عمتى أم ابراهيم أخذناها منها وفى الحال أخذ عمى مالك سريته « صافى النية » وركب حماره وخرج من أم درمان التى لم يرجع لها الا بعد أن وصل الجيش الفاتح مدينة السبلوكة .

لما رجعت من رفاعة وجدت أمرا صادرا من الحكومة بأن كل من له صمغ بالوكالة التى صارت سكنة للجيش لم يحوله فى ظرف ٤ أيام يصادر وعمى مالك عنده نحو ستين رحلا . أخبرت أم أولاده الكبيرة فأعطتنى وقية ذهب واستلمت من شريكه عبد الرحمن المربوع أردبا سمسما بعت الاثنين ورحلت الصمغ بمنزلى الذى أسكنه بالأجرة لقربه من الوكالة فلما صار الفتح واطمأن الناس جاءنى عمى مالك بمنزلى الذى به الصمغ وبعد الغداء قال لى أنا أطلبك مائة ريال قلت له حقيقة لكن امهلنى حتى أبيع الصمغ هذا وأعطيك اياها فضحك وقال لى والله تعملها يا ظالم قلت له يا عمى مالك الرؤساء للمراكب والعتالة الذين أخرجوه منها والحماره الذين أوصلوه هنا كلهم أنا الذى دفعت لهم الأجرة ويعترفون بذلك والآن هو بمنزلى فقال لى تمام تعملها يا ملعون وضحكنا وركب لأهله . وفى تلك الأيام وصلنا الخبر الأكيد ان صمغنا وما

معه من الريش والنطرون جعل الضعفاء من أهل الزيداب الذين سلموا من الموت وطبعا اختل عندهم الامن وفسدت الحرف واتنابهم الجوع فجعلوا يبلون الصمغ ويأكلونه والأقوياء منهم يحملونه على الطيفان للدامر أو لبربر ليبيعونه ويشترون بثمنه الغلال وبعد مدة تبالغ ليوسف خبر الذين يحملونه لبربر فجعل يحتج عليهم وبعضهم يقسمون له أكثرهم يهرب فرجع لنا بعد الفتوح بتسعين جنيها فقط كنت قبل مجيء يوسف طلبت من ابن عمى على صديق الذى اشترى ذهبا من أم درمان ليخف عليه حمله أن يسلفنى اياه ونكتب له ليوسف ببربر يعطيه قيمته فرفض لما سمع أحمد محمد ماحى بك الرباطابى أرسل الى من نفسه ليعطينى ما أطلب وفعلا استلفت منه أربع أوقيات وهذا تجمعنى معه لحمة الرباطاب فى الجملة وعلى صديق ابن عمى وضيفى هو وسريته وبعد هذا استمر ضيفنا دون مبالاة يطالب براحته الى أن سافر •

فى يوم ما جاءنى عمى مالك وقال لى ان ابراهيم باكراوى ومن معه أكلوا منى ألفى ريال أو أربعين ريالا قوشليا ــ اذ الريال القوشلى يساوى خمسين ريالا محليا ــ بأنهم أمضونى عليها مرتين يطلبنى اياها ولد الشقلينى وحينما دفعوها له أرسلوه لى فمشيت معه ووقعت عليها مرة ثانية فمشيت لبخيت سليمان وهو أصدقهم والذى بعهدته دفتر حسابهم الأصلى النظيف فقلت له المسألة هذه تكشف قلوبكم خصوصا انت تقل ثقة الناس فيك أطلعنى على دفتركم النظيف لأنظره هل عمى مالك فى هذين التاريخين أخذ مرتين قال لى امهلنى حتى يحضر شركائى فقلت له الأمر لا يحتاج لحضورهم ضحك وقال لى خلصت عمك منا وقد كنت أخبرتهم انك تأتى فستأخذها منا فالأحسن نتركها خذها استلمها وشيلها حمالا أوصلناها لعمى مالك فلما عداها واستلمها قال لى انت حرامى مثلهم لذلك خلصتها منهم ودفعت أنا أجرة الحمال • كانت وردت لى أخيرا ثمانية رحول صمغ من الدويم فى مركب دخل عليها بعض الجهادية رموا فيها تنباكا كعادتهم وبحثوا حتى بينوه فضبطت بالمركز ونقل صمغها لبيت المال فأخذت أحاول عمى العوض يترك لى صمغى فلم يقتنع وفى مرة وجدته ومعه عمى على ابراهيم شمو ففى محاولتى لعمى العوض قلت له يا عمى العوض أنظر للرحم بيننا فقال لى أنا رباطابى قلت له ما جنسك قال لى من الجزيرة فتوار قلت له : انت ما سمعت الرباطابى قال لامرأته ناس فتوار مثل البغل مع الحمار

يهنقون ومع الحصان يحنحنون (يصهل) فضحك عمى على ابراهيم وقال له عليك الرسول يا العوض تعطى بابكر صمغه لأنه صبى طاعم فلم يقتنع أخبرت والدى قال لى اعمل له غداء وأوصلنى اياه فدعوته فأجاب فلما جاء الغداء أخذ عمى العوض قطعة لحم وجعل يمصها مصا لأن أسنانه مخلعة فقلت له ان محمد أبا حجل منذ بدأت سنونه بالقلع حرم اللحم فما أخذ بعدها لحمة ولم يقتنـع برد الصمغ وفى يوم جئته فى أول المكتب وجدت معه عمى الأمين أبا سن فجاء الشيخ بان النقا يريد مبلغا كبيرا فلما وجـدنى قلت لعمى العوض والله العظيم ربنا اليوم يخلص لى منك صمغى بوجود صاحبى نعمتى سـابقا ولاحقـا وأخبرتهما خبرى فتوسطا لى عند عمى العوض الذى قال للشيخ بان النقا اذا أردت تعطيه الصمغ فحرر له اذنا بنصف قيمته كمنصرف لك ضمن طلبك فحرر له الوصل فى الحين وكتب لى لمحمد أبى بلل الذى أخذ منى أربعين ريالا رشوة زيادة عن الأتعاب التى قاسيتها وسلمنى الصمغ بعلامتى المكتوبة على طروده •

عندى فرخ يدعى رزق الله هرب منى وبعد مده وجدته عند تعائشـة فديته منهم بنقود فلما أخذته للبيت وجدت بيده داغا وهـو حرف ج يوضع بين السبابة والابهام علامة لأنه جهادى وكان عثمـان شيخ الدين أكبر أولاد الخليفة عبد الله عينه والده لرد المظالم فأخذت فرخى وكتبت عرضحـالا أطلب فيه كتابة شهادة بيدى أو يستبدلونه منى بقيمة أو بغيره أو تستلمونه منى قبل أن أعتبر انى مالك جهادية جئت بركت على ركبتى أمام شيخ الدين بالجامع بين صلاتى الظهر والعصر وعن يمينه الشيخ الطيب هاشم الذى ندب لتعليمه العربية ووجدت أمامه مولد ريف من كردفان يتكلم معه بما يخالف ما باعراضه (طلبه المكتوب) فقلت لصاحب العرضحال كلامك مخالف لعرضحالك خذه ليقرأ لك ووافق بينهما ثم تعال لسيدنا قال شيخ الدين : قل له يا سـيدى • ثم تناول عرضحالى من عمتى فلما قراه قال لى انت غير شاكيا ولا مشكوا قلت نعم أخذ العرضحال وقال لى : تعال باكر تجد عرضحالك على أسطى (وهى كلمة تركية) معناها تماما كمـا تريد • ولكن يا للاسف فانه أصبح معـزولا فاحتفظت برفخى حتى سقطت أم درمان وهرب مع من هربوا من رقيقى •

حادثة عجيبة :

فى يوم جاءنى موسى يعقوب وأخبرنى ان مختار محمد العامل محموم فقم معى لنزوره فركبنا فلما وصلناه وجدنا معه ملازميه يعقوب الأمير العظيم على أحمد فضيل وآدم جديد الحريرى ودوديه بدوى وداؤد الجامعيين وأمامهما سموار نحاس أصفر فيه ماء لعمل الشاى وبينما يتحدثون اذ سمعنا صوت الوابور الآتى بنساء المتمة المقتول أو المأسور ولاة أمورهن اذ نهض داود قائما وضرب جبته على وركه بيده نشطا وقال (بلفظه) كب امشى لخليفة المهدى يدينى جعلية أسويها سريه فما أتم كلامه الا نهض مختار المريض رمى ثوبه الذى كان مؤتزرا به وقام بسرواله فقط وضرب داود صفعة كادت تلقيه فى الأرض وضرب السموار برجله وقال كمان تشرب شاى فى بيتى تشرب سما فقال داود يا مختار تضربنى قال وأقتلك وهل خليفة المهدى يعمل الجعليات سرارى وهل يقدر يعملهن اذا أم درمان ما تقيد نارا . خرج داود مغضبا وخرج بعده موسى يعقوب فزعا وساد المجلس صمتا عميقا ورجع مختار وقد تدثر وصار يبكى فنهض على أحمد فضيل واقفا وقال والله يا مختار خليفة المهدى ما يرضى يجعل الجعليات سرارى والله لا يمكن أن يأمر بذلك ها هم مثل هذا يؤجج الفتنة بيننا وبينكم ثم خرجوا فقلت لمختار فى مثل هذه الأيام وفى مثل هذه الحالة تعمل مثل هذا العمل وتتكلم مثل هذا الكلام جلس على عنقريبه والتفت الى مغضبا وقال لى أنا عارفك جبان ماذا يريدون أن يعملوا لنا أكثر من ذلك وما قيمة الحياة بهذه الحالة ثم هاضته الحمى فرقد ودعته وانصرفت مستعجلا لأدرك بيت المال فأخرج بتول بنت ولد ضبعه بنت أخت عبد الله بك حمزه وأخت السيد الذى بلغنى انه قتل فى المتمة لعلى أقدم لعمى عبد الله بك يدا وأساهم بواجبى للجعليين المأسورين ولكنى لا أزال مشغول البال بما يحصل على مختار سار داود من توه الى الرجل العاقل الحليم الحكيم الأمير يعقوب متهيجا طبعا حكى له ما صار من مختار فأرسل الأمير يعقوب فى الحال للشيخ بان النقا موسى وقال له : امش الى خليفة المهدى الآن واحكى له ما حصل من ولدكم مختار واعمل فكرك فى أن خليفة المهدى يعفو عن نساء المتمة ويسلم كل واحدة منهن معارفها قبل غروب الشمس فسار بان النقا ودخل

الباب وحكى لخليفة المهدى ما قاله مختار كمتبرىء منه ومخطىء لمختار وقال فاستوى الخليفة جالسا وقال يابان النقا يعقوب عرف هـذا الكلام ؟ قال نعم وأرسلنى لخليفة المهدى أبلغه اياه قال الخليفة وما رأى يعقوب ؟ قال اضطربت ولكننى خفت ما يعود على من المسئولية فقلت رأى سيدنا فوق الجميع قال بحده : ماذا قال يعقوب ؟ قلت : يفوض لخليفة المهدى ويرى أن تقسم هـذه النسوة لمعارفها قبل غروب الشمس قال امش من ساعتك هـذه لبيت المال واعط كل امرأة لمن يعرفها أو تعرفه وشجعوا الناس على دخـول بيت المال مختار جزاه الله خيرا قال بان النقا فانقلب خوفى أمنا وجبنى شجاعة وحزنى سرورا ورجعت الى سيدى يعقوب أخبرته فارتاح ارتياحا ظهر فى أسارير وجهه ونفذت أمر الخليفة فى الحال

قلت انى أردت أن أخرج بتول بنت ولد ضبعه فلما وصلت بيتى صرت أفكر فى الطريقة التى تدخلنى على النسـاء ويتردد فكرى فى انهن مسموح الدخول عليهن أم وضعن فى سور مخصوص عليهن خفراء يمنعون الدخـول عليهن ثم حزمت أمرى ومشيت فوجدت بيت المال مفتوحا فوالله ما وجـدت امرأة حرة مطلقا فأحسن فيها بل وجدت الشيخ بان النقا وابراهيم رمضـان بجانبه ودلالة بيع الرقيق قائمة فاشتريت خادمين احداهما مرضعة لأرضع فيها ابنتى آمنه الصغيرة لأحجزها من لبن أمها والثانية كانت للقـاضى ولد الخضر كما سيجىء ذكرها .

جعل أهل الغرب عصيان عبد الله ولد سعد سببا لاستباحة أموال الجلابة كما يسموننا وهبط علينا كابوس مركب من الخوف والحزن انسانا أنفسنا على انا مؤسسوا دولة المهدية فجرءوا علينا وخضعنا لهم حتى فى مدينـة أم درمان استدل على ذلك بثلاث حوادث حدثت لى نفسى !

الأولى قصدنا السوق أنا والمنصور أبو كوع راكبان حمـارينا وفرخانا يجريان وراءنا وكل منا رابط تركاشه فى سرج حماره يضربه فى ظهـره كالأمر فلقينا عند مقابر الشهداء الشماليين عبد الله تابع السنوسى أخ خليفة المهـدى ومعه اثنان راكبان وواحد راجل من السود فلما التقينا نهرنى أن أنزل فنزلت فأركبوا الرجل الاسود حمارى ومضوا فى طريقهم فجلست وتبعهم المنصـور

بحماره وفرخه وجلست فى انتظار رجوع حمارى مع المنصـور وفرخه فاذا المنصور ولا حمار معه فقال لى سألونى عنك فقلت هو فى انتظار حماره فقال عبد الله اذهب اليه وآتنى به ولد الكلب الجلابى ما يمنعه من الجـرى وراءنا حتى نصل ونسلمه حماره فمضيت مع المنصور راكبا خلفه الى فريق فور حيث وجدتهم فى ظل حوش عبد اللطيف التاجر النوراوى • أخـذوا منى عمـامتى وكرابتى وسيفى وأجلسونى فى الشمس وكا نالنهار حارا جدا وللحظ وجدت عندهم قضية بين رجل اسكافى من المواليد المصريين وزوجتـه قريبـة عبد الله فجعلت أدحض حجة الزوج مؤيدا حجة الزوجة وكلما رأيت من سيدنا عبدالله ارتياحا ندفاعى أدنو من الظل حتى انتهت القضية التفت على وقال لى الجلابى ود البقس (لم أعرف معناها) مالك لا تجرى وراءنا ألا تجرى وراء العبيـد فقلت انت يا سيدى ما قلت لى اجرى ولو قلت لفعلت •• قال اعطوه عمتـه وكرابته وحماره فركبنا معهم على غير طريق السوق بحكم الرهبة فاذا الطريق يمر بباب منزلى قلت له يا سيدى هذا منزلى ألا تشرفونا بشرب الشاى عندنا وغرضى التعرف به قال دى وى بشرب دخلنا وعملنا لهم قراصـة قمح بسمن وسكر وشربنا الشاى فرأى البراد جميلا فقال لأحد من معه أدخل البراد هذا فى مخلايتك ولم يطلبه منى كأنما اشتراه من دكانى ودفع لى الثمن ولم أظهـر أى حركة حتى ولا العجب بل شكرته بأنه شرفنى بأخذه ولكنه نفعنى ومن معى فى حادثتنا مع الأمير يعقوب كما سيأتى :

الحادثة الثانية ركبنا أنا والمنصور أيضا من بيت المال (ورشة الصنـاعة الآن) بطريق الشاطىء قاصدين الموردة ولسوء الحظ صادف سـيرنا مجىء أهل الغرب لصرف الغلال من شونة حبيب (بجنوب الفنطاز) فالتقينا بطـائفة منهم راجعون وهم راحلون فاصدمت بامرأة منهم اصطدامة أشك فى أن جبتى لمستها أم لا فاذا هى تقع ميتة فبهتنا وانحلت قوانا واستسلمنا لما يعمل بنا فاذا هم بدلا مما يكتفونا كقاتلين للقود أخذوا يفتشون جيوبنا فوجدوا عندى نحو أربعين ريالا وعند صاحبى خمسة عشر ريالا فلما استلموها ركلها أحدهم برجله هى قومى فاستوت قائمة فحمدت الله حيث قدر ولطف فمشـوا فى طريقهم وركبنا فى طريقنا فما أحد منا ضحك ولاجرى ذكر الحادثة على لسـانه حتى

انقطعوا من مقابلتنا ولما وصلنا الموردة حكينا لمن قابلونا بها فأخبرونا انهـا تكررت عليهم حتى ألفوها .

والحادثة الثالثة هى أن سكان السور (الملازمية) اتخذوا فى الآخر عادة لاكتساب النقود من الجلابة وهى يخرج بعضهم فيلاقى رأس الرقيق فيغريه اذا كانت أمة بزواجها واذا كانت عبدا بتحريره من الرق بادخاله الجهـادية وقـد تصح الثانية ولكن الأولى لا تحصل للأمة فبعد ادخال المغرى للسـور يمكث المغرى أيلما ثم يأتى لسيد المغرى ويصف له رقيقه ويتفق معه على مبلغ يقارب من ثلث قيمة الموصوف فيستلمه منه ويحضر له رأس رقيقـه ففى يوم كنت أنا وعمى مالك مع محمد أحمد حاج الامام بدهليز باب دائرة حوشـه اذا جاءه جهاديان وصفا له آدميه ابقه منه فطلبا منه ثمانين ريالا مقبولا (ريالين قوشلى) فأعطاهما اياها وبعد يومين جاء بها وكان لعمى مالك آدميـه فوراويه تدعى فاطمة بيضاء اللون سأل منها الجهاديين ووصفها ليهما وبعد يومين جاءا وطلبا منـه ثلاثين ريالا فقـال لهمـا أنا آخـذ الثـلاثين ريالا وأمشى معكمـا تسلمانى الآدمية وأسلمكما الثلاثين ريالا فرضيا وركبنا حمارينا أناوعمى مالك ومشينا معهما حيث وقفنا قبالة باب السور الضيق الشمالى ودخلا السور بأمل أنهما يأتيان بفاطمة ويأخذان النقود فاذا بهما ومعهما أربعة من الجهادية أمسك كل واحد منا ثلاثة وفتشوا جيوبنا وأخذوا ما فيها وسلبوا عمتينا وكرابتينـا وسيوفنا ولو كان باب السور يدخل الحمار لأخذوا حمارينا فرجعنـا ونحن نحوقل ونسخط ـ وما يشبه هذا ان الشيخ عبد اللطيف وقيع الله عنـده عبد يدعى على مولد عنده فختنه مع أولاده . وأرقده على عنقريب سـاج عظيم القيمة فلما كانت سنة ٣١٥ وبلغ عمره العشرين سنة هرب منه ودخل الجهادية ففى بعض الأيام أرسل لى عبد اللطيف الذى كان جارنا أحـد أولاده فلمـا وصلت بيته وجدت عبده على هنا ومعه أربعة من الملازمين السود يطلب أخذ والدته والعنقريب الساج الذى ختن عليه فقلت لعلى أما العنقريب فلك الحق فى أخذه حيث انه أرقدك عليه فى ختانك اما امك فالشرع لا يسلمك اياها الا اذا دفعت قيمتها فأخذ العنقريب ووعد سيده بدفع قيمة والدته فلمـا خرجوا

قال لى الشيخ عبد اللطيف بماذا أحللت له أخذ العنقريب ؟ قلت : بتغفيلك فى اكرامك للعبد اما سمعت قول الشاعر :

ثلاثه اكرامهم اهـانه   الرق والنساء والصبيان

فضحكنا رغم سخطنا وافترقنا . أنا كنت فى السوق فمر علينا عبد حاملا مصحفا خطه من أجمل خط النسخ وتاريخ كتابته سنة ١١٩٢ هـ قبل مائة سنة واثنين وعشرين اشتريته منه بستة ريالات قوشلى يعنى جنيه مصرى تقريبا . (ستأتى لهذا المصحف قصة)

قلت نفعنى عبـد السنوسى بعد قفل السـكة التجارية فى سنة ١٣١٤ بلغنا ان الخليفة أراد فتحها ففرحنا نحن التجار فى يوم اجتمعنا نحو ثمانيـة ركبنا حميرنا ذاهبين للمورده لنبحث عن المراكب لترحيل صمغنا وكنا مشغولين بالحديث كيف يصل الصمغ لسواكن والجيش فى بربر وبعدها حتى قربنا من بيت الأمير يعقوب (محل مدرسة الأحفاد الآن) فاذا الأمير يعقوب بالشـارع ووراءه جمـلة أنصار ومن بينهم عبـد السنوسى فلما رآنى انطلق نحـوى وقال سيدى يعقوب يا بابكر فاذا نحن قبالة وجهـه نزلنا من حميرنا التى مرت أمامه واصطفنا صفا واحدا حيث التفت علينا الرجل العظيم بما أبدل خوفنا امنا وحزننا سرورا وقال لنا السلام عليكم أنت طيبون وعيالكم وتجارتكم التجار ركن من أركان المهدية (الدولة) وفى كل سؤال نستبق بنعم يا سيدى كل هذا وهو واقف وقد أشار لمن يمسك حميرنا ثم قال امشوا بارك الله فيكم وأشـار بأن نمر أمامه فلما توقفنا قال امشوا الأدب فى المطـاوعة فمشينا ونحن نلهج بمدحه والدعاء له .

أتانى يوما أحد المخنثين طلب منى حبات قرنفل قال انه يشرب بها ماء ممن يجلبنه الأدميات فعبست فى وجهه وقلت له القرنفل معروض للبيع فولى ووجد صديقى مختار بن محمد سليمان بدكان أحد الشوافعه فقال لمختار صـاحبك الذى فى دكان بسيونى الله يخيبه قال له ماذا أقول لك ان قلت لك الله يخيبك أنت فقد خيبك الله مالك وصاحبى قال شحدت منه حبات قرنفل أشرب بها ماء كشر فى وجهى وقال لى القرنفل للبيع فقال له مختار والله لو أعطاك حبة قرنفل واحدة كنت أترك صحبته قال المخنث لمختار ها أنت تعطنى ما أطلب منك قال

مختار نعم ولكن تخسرنا الاثنين قال المخنث لمختار ليصبر والله لاذمنـه فى كل مجلس فضحك مختار وقال له هـو لا يبـالى لذلك لأن مثلك ذمه مدح فى الحقيقة قال المتنبىء :

اذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

ثم أتانا مختار وقال لى لماذا لا تعطى المخنث حبات قرنفل فتلجم بها لسانه ضحكت وقلت له جاءك قال نعم وقص على كل ما جرى بينهمـا فقلت له انى ما بخلت بالحبات لكنى بخلت بما هو آت فضحك وقال هذا بيت شعر ماهـو الذى تبخل به قلت له يا صديقى انت تعرف المخنثـين ورغبتهم بل سرعتهم فى الاتصال بالنساء فى بيوتهن وما يقولون عنهن فانى خفت أن أعطيه هذه الحبات أو أبش له فيأتى مرة أخرى فيجلس على هذا الكرسى ثم يزورنى فى البيت ثم يتردد على البيت فى حضورى وغيبتى فيعرف أسماء وذوات زوجاتى واخواتى وفى أثناء ذلك يترقى فى طلباته بقدر صلاته فمتى امتنعنا من اعطـائه ما يجب لبخل أو عذر قال عن عائلتى ما شاء له عرضه ولسانه فرأيت أن أعمل بالمثـل الحكيم « الباب البجيك منه الريح سده واستريح » فقبل راسى وشـكرنى وقال ليتنى عرفت هذا قبل أن أعرف هذا الخبيث .

فى يوم ما جئت من السوق ووجدت بعض عفش منزل زوجتى حفصه فى حوش الديوان البرانى فسألت مريم والدتها عن سبب خروجه . فقـالت لى : أبوك طلقنا قلت لها (رغما عن رغبتى الأكيدة فى زوجتى خصـوصا بحجرها التوأمان أول أولادى على صغرهما) اذا كان والدى لا يرضى ببقاء ابنتـك معى فان كلامه يمضى على فأخبرت هى ابنتها زوجتى بذلك وشاع الخبر حتى وصل السهوه أختى أما أنا فمما يدل على تنفيذى كلام والدى أخـذت كتابا أقرأ فيـه ونسيت كل ما قيل لى وما فعلتـه حتى دخلت على السـهوه أختى وقالت لى أنت تقـرأ فى كتـابك والنسـوان نقلن عفشهن كله قلت لهـا ان فى امكانى أن أتزوج امرأة أخـرى وأن ألد أولادا ولكن ليس فى امـكانى أن أشترى والدا أبدا فلذا أكـرر لك ان لم يرض أبى ببقـائها بمنزلنا فان كلامه يمضى بلا شك فذهبت لهن وأكدت لهن ذلك وذهبت السهوه لأبى سألته عن السبب وأخبرته بكلامى فقال لها اذا كانت ترغب فى بقـائها مع زوجها تأتى لى هنا وتقول لى ولدك عديل فتوجهت لها السهوة ورجعت لوالدى

وقالت له ان حفصه قالت ولدك عديل قال لها ربى يأخذنى (قسم يعتاده) ان لم تأت عندى هنا وتقول لى ولدك عديل ما أرجع عن قولى فرجعت لحفصه وأتت بها عند أبى وأسمعته ولدك عديل فقال لها ارجعى لبيتك أنا عفوت عنك وبابكر لا يقدر يسألك عن هذا الكلام أبدا فما سألتها عنه الى اليوم .

دخلت سنة ١٣١٦ بعد أن سبقها من الحوادث الحربية والسياسية ما زعزع اعتقاد المعتقدين الا من عصم الله قلبه وقليل ماهم فمن الحربيات سقوط كسلا يوم ٧ ربيع آخر سنة ١٣١٢ وسقوط دنقلا فى ١٥ ربيع ثانى سنة ١٣١٤ وواقعة المتمة وسائر الجعليين فى غرة صفر سنة ١٣١٥ وسقوط أبى حمد فى ٨ ربيع أول سنة ١٣١٥ وجلاء أبى الخليل من السلمات فى ٧ ربيع أول سنة ١٣١٥ وقيام الزاكى عثمان من بربر فى ٢٥ ربيع أول سنة ١٣١٥ ودخول هنتر باشا بربر فى غرة ربيع ثانى ووصول السكة حديدأ باحمد يوم ٧ جمادى سنة ١٣١٥ واحتلال شندى يوم ٢٩ شوال سنة ١٣١٥ وأكبر من كل هذا انكسار جيش الأمير محمود ببلدة النخيلة بنهر أتبره يوم الجمعة ١٣ العقدة سنة ١٣١٥ اما السياسيات فمن أهمها تغيير أهل الجزيرة وعكس اعتقادهم بمعاملة أحمد السنى التى أولها سنة ١٣١١ حيث يأخذ الغلال للباب من محل وجوده لا يقسم على أهل الحلة بالرءوس و لا يتفاضل الموجود (بالغنى) واطلاق يد عماله وجهاديته بحيث تفتح المطمورة فيؤخذ ثلثاها للباب وثلثها لهم ناهيك بالشفاتة أى أهل الغرب والجهادية الذين يمرون فى الجزيرة فيسلبون ما أرادوا سلبه ثم كانت الخاتمة واقعة الجلعيين .

بعد انكسار جيش محمود أخذ خليفة المهدى يفكر جديا فى الدفاع فجعل شيخ الدين رئيسا للملازمية وابراهيم الخليل على جهادية الكاره وعين عبد الوكيل بشير أمام الجيش المحارب لنا الذى قام من ولد حامد غربا ومن الرويان شرقا وكلما قاموا يقوم أمامهم حتى قربوا من كررى جاء بخبرهم فطلب الخليفة من محمد البصير وعبد الله عوض الكريم أبى سن والعباس العبيد وولد الكريل وغيرهم من الأمراء وأمرهم أن يذهبوا لذويهم فينفروا الرجال المستحقين للجهاد ولا يسمحوا لأحدهم باحضار عائلة ولو خادمة أو سرية فوجدوا هذه فرصة بين أهليهم فى التنفير ما بين المد والجذر بمعنى أنهم يرسلون الناس يصلون الشرق ويقيمون أياما ثم يتسللون راجعين حينما يصل غيرهم

لحفظ المكان فلما جاء جيش الحكومة والجعليون المحاربون لم يوجد منهم من يقاومهم فابحث أيها القارىء عن سبب هذا الانقلاب وأهل الجزيرة كانوا عضوا مهما فى نصرة المهدية فى فتح الخرطوم وفى الثغور اما سمعت قول الشيخ الحسين ولد الزهراء فيهم فى موقعة القلابات حينما أنزل الحبشة عليها واصفا لهم بقومى :

ان قومى خفيف حديثهم | أحدث عن قومى بكل العجائب
أكارم وافوا شاهد الحق واقفا | ليشهد فانقضوا انقضاض الكواكب

مما يدلك على عدم ارتياحهم للجهاد هذه المرة انه لما أمر الخليفة الشيخ عبدالله عوض الكريم أبو سن بالسفر لتنفير قبيلة الشكرية كان معه عمه الحاردلو فأرسل الشيخ عبد الله من يشترى له بطانية من سوق أم درمان وتأخر الرسول قليلا فاستحثه الحاردلو على الخروج وترك الرسول وبطانيته بقوله يا شيخ العرب (نحن نكتل فى بطانية) الزول هذا اذا غير رأيه نحن ما كتلنا اركب يا شيخ العرب وامرقنا ما دام لقيت لك سبيب (تصفير سبب) فركبوا وتركوا البطانية وأرسلوا لها هل ترى أيها القارىء مثل هؤلاء لهم روح معنوية تدفعهم للرجوع ليموتوا وعلى من تقع تبعة هذا التحول من الاخلاص المزوج بالاندفاع الى الحيلة المزوجة بالانهلاع اليك هذه القصة .

زارنا مرة الأمير دقرشاوى أبو حجل وسليمان أخوه ورجب الملك عوض الله وكان الأخير من ملازمية الخليفة عبد الله المتطرفين فقال فى حديثه انه سمع من فم خليفة المهدى الشريف الترك يصلون كررى يوم ١٦ ربيع آخر ونحن نقتلهم فى كررى ونرجع نصلى الجمعة فى الجامع فرفعت يدى الى أذنى علامة لتكذيب ما قيل كما يفعلها الصبيان فقال لى رجب يا بابكر كذاب أنا أم خليفة المهدى وقبل أن أرد عليه فى هذا الموطن الخشن الدقيق (طبعا يكون ردى كذاب أنت) فرد عليه الأمير دقرشاوى بقوله والله يا رجب كلنا فى قلبنا كلام بابكر هذا ولكنه سبقنا بالنطق به كذاب انت خليفة المهدى لا يقول هذا الكلام الذى لا يعلم به الا الله ثم بعد هنيهة قال رجب خليفة المهدى قال ان أصحابه المخلصين لو ترك الواحد منهم فرضا من الصلاة أن الله لا يسأله عنه . اكراما للخليفة فقال له سليمان والله الخليفة نفسه ان ترك فرضا يسأل عنه فخرج وقال أنتم منافقون .

جدت فكرة فى تلك الأيام وهى ان المهدى عم قال ان الترك يقتلون فى كررى وصار الخليفة يسأل باحثا عمن سمعوها من المهدى عم ليستأنس بها وقد جاءنا على قوى وسألنا عنها فأجبناه سلبا وذلك قبل أن تحصل واقعة محمود بأتبرا •

كان والدى يقول انى أفكر دائما فى جيش الخليفة وجيش الحكومة وأجمع بينهما فى كررى وبعد قليل أرى الخليفة وجيشه يقوم ويمشى لأم درمان ادد ادد يجرى أمام جيش الحكومة ما رأيت لهم نصرا أبدا (فقلت فى نفسى لو كانت والدتى حية لأمسكته من خده وقالت له : هوى يا دا الراجل الكافر اسكت لا تتمنى للانصار الهزيمة) وقد حصل ما تفرسه فعلا •

قضيت شهور سنة ٣١٦ قبل سقوط أم درمان كما قضيت سنتى ١٣١٤ و ١٣١٥ فى التعليم والمطالعة حيث طالعت ديوان ابن الفارض بشرحى البورينى والنابلسى وكثيرا من تفسير الكشاف والجزء الأول من حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى والنهرية بالجمل والبرده بالباجورى وكان عندى الزوزنى على المعلقات وما كنت أميل للمطالعة فيه ولا ذنب له الا انه لا يبعث الروح الدينية فى نفس الانسان كما يبعثها ابن عباد على حكم ابن عطاء الله الذى ماكنت أترك النظر فيه حتى كدت أحفظ الحكم • لأن النفوس كانت تستعد للموت وكانت الأخبار المروعة تكاد تصم الآذان فلا تطرق مجلسا الا يسألك من به ما الخبر فاذا خلقت لهم خبرا اعتقدوه ونشروه رغم ترجيحهم ان لم يكن تأكيدهم بأنك خلقته فمن ذلك وابورات الحكومة كانت تمر على المتمة حينما كان الأمير محمود بها بجيشه بعد أن قتل أهلها وكنت جالسا مع بعض أصدقائى الذين دعوتهم للغداء معى فخرجت منهم لأنظر استعداد الطعام فلما رجعت سألونى هل جاء خبر ؟ ولم يكن بين قيامى منهم ورجوعى اليهم الا بضع دقائق ولم أتعد سور المنزل • قلت لهم نعم فتسابقوا لسماعه باشتياق قلت جاءت ثلاث وابورات ذاهبة لحلة مدين لتأخذ الغلال منها فضربها جماعة محمود كسروا منها واحدة ورجعت الاثنتان لشندى فنقل بعضهم هذا الخبر مع علمه انى خلقته على طريق الفكاهة ونقله سامعوه منهم على سبيل الحقيقة فلما انتشر بلغنى وقلت لمبلغى ان هذا الخبر قد خلقته أنا على سبيل الفكاهة فلم يصدقنى ومن أغرب المصادفات انه بعد أسبوع حصل فعلا مصداق هذا الخبر •

أقول هذه الحكاية الآتية وأترك للقارىء تأويلها حسبما يعتقد اما أنا فمقتنع بولاية قائلها لأنى سمعت منه مباشرة وهى فى الأسبوع الأول من ربيع الأول سنة ١٣١٢ كنت راكب حمارا متوجها للموردة فى غرض مهم فلما قابلت بيت الأمانة فى شارع الموردة رأيت مجتمعا على شكل دائرة فلما وصلته وجدت العريان المجذوب المسمى ابن عوف وسط الدائرة يتحدث مع حركة أشبه بالرقص فمما سمعته منه قوله القاضى أحمد الراجل مسكه مسكه مسكه رماه فى البحر غطس غطس مرق مرق ثانى مسكه رماه فى البحر مسكه رماه فى البحر غطس غطس . الفاتحة لروحه القضاة ده وراده كررها ويرقص فيها ثم قال الله الله التنباك فى كسلا التنباك فى كسلا (ولم تكن بيد التليان حينذاك) وكان من ضمن الواقفين الشيخ عبد القادر ولد أم مريوم فلما سمع التنباك فى كسلا ضرب حماره وأسرع فتبعته خوفا من أن يرانى أحد استمع لمثل هذا وبعد قليل جاء خبر احتلال الطليان لكسلا على أن هذا الرجل يلبس ازارا ضيقا اذا ستر صفحة اليته لا يستر الأخرى وفى الغالب ترى عليه العذرة اما القاضى أحمد على قاضى القضاة فقد وشى به للخليفة فسجنه ثم أطلقه ثم سجنه فى بيت ومنعه الأكل والشراب حتى مات جوعا وعطشا . وولى القضاء بعده الشيخ سليمان الحجاز فلم تطل مدته لوفاته ثم ولى بعده الشيخ الحسين الزهراء الذى لم يحد عن الصراحة فى مسألة دنقلا وعبيد يونس فسجن ومنع الطعام والشراب حتى مات جوعا وعطشا فتحقق موت القضاة الثلاث ده ورا ده بعد واقعة أتبرا وأسر الأمير محمود أيقن خليفة المهدى ان الجيش قد قرب وصوله فاستعد لمقابلته على انه راجت اشاعة ان الخليفة وأخاه يعقوب ومن معهم عازمون على الهجرة الى كردفان أو دارفور ولكنها عما قليل كذبت وخصوصا بعد أن شرع خليفة المهدى ببناء أحد عشر طابية فى أم درمان وستة طوابى فى الشرق والخرطوم وتوتى وفى كل منهما طابيتان ووزع عليها المدافع والطبجية والحرس وجرب عمل اللغم بواسطة رجل مغربى يدعى منورا كان قد وفق لعمل اللغم فعلا وأخذه فى مركب يقطرها وابور الاسماعيلية لوضعه فى المكان الذى عين له ولا أعرف المكان بالضبط . (ولكنا سمعنا صوت انفجاره حينما انفجر وأغرق المركب والوابور ومن فيهما منور من المغرقين)

سمعنا صوت الانفجار على جهة الدباغين ولم أتذكر تاريخه بالضبط

ـ محمود على الأحيمر كان محمود على هو الأمين على نقود الأمير يعقوب وكان متزوجا بنت على خاطر الذى لا تحجب عنى عائلته لمصاهرتى لهم فعرفت محمودا واتصلت به فرأيت منه تبذيرا فى نقود الأمير مما يدل على انحلال الادارة من أصلها فكان يعمل ليالى فى المديح النبوى ويجمع فيهـــا كل أنواع المادحين والمقرئين والسامعين مما يكلفه عشاؤهم نحو الخمســين ريالا مجيديا فيحيون الليلة (وكنت معهم فى أكثر الأحيان) الى أن يطلع الفجـــر فنفترق لنصلى بمنازلنا خوفا من اعلان صوت التكبيرة المتحدة وكنا ننتقل من بيت الى آخر فاذا أراد المادحون الانصراف وزع عليهم نحــو ثلثمائة ريالا مجيديا فيأخـذ الشيخ أحمــد أبو شريعه وجماعته مائة ريالا والشيخ ابراهيم كراع النعامة الرجل العالم خمسين ريالا والشيخ على طلبة ومن معــه من القراء مائة ريالا وباقى المداح مثل قسم الله واخوانه وغيرهم بواقع عشرة ريالات لكل منهـم وصاحب المنزل يرسل اليه الخمسين ريالا مقدما على العشاء ويأخذ البـاقى لنفسه اذا اقتصد فأرسل لى فى يوم ما خمسين ريالا لتكون الحفلة فى منزلى فرددتها له وعملت الحفلة على حسابى الخاص وبعد ذلك اليوم لم يطلب منى عمل حفلة بمنزلى ، هذا الرجل الذى كان هذا حاله من البذل فشل فى اتخاذ وظيفة له فى هذه الحــكومة كما أخبرنى عندما زارنى برفاعــه سنة ١٩٠٨ مستجديا بأن سبب حرمانه أنه أهان سلاطين باشا يوما فى المهدية حينما جاءه طالبا منه نقودا . هــذه حالة الدنيا بخصوصه ودليل انحلال ادارة المهـدية المالية .

بعد عقد نية خليفة المهدى على الدفاع ارتفع سعر الذرة ارتفاعا سريعا حتى بلغ ستة وثلاثين ريالا مجيديا لأن أهل العــوائل الكبيرة تنافسوا فى مشترى مؤونتهم سنة لخوفهم من الحصــاد أما أنا ومن معى فلم نشتر الا ما يلزمنا للشهر على الأكثر وفى الآخر صرنا نشترى ما يلزمنا فى اليوم لاختفاء الذره من السوق حتى وانى اضطررت لتكليف موسى يعقوب أن يبيع لى ثلاثة أرادب سلفا بمائة وثمانية ريالات ولعمى مالك وهو غائب اردب بهذه القيمة وذلك يوم الاثنين ثلاثين أغسطس سنة ١٨٩٨ أى قبــل سقوط أم درمان بأربعة أيام .

وفى يوم الثلاثاء الذى هو ميعاد الاستلام أنا وهو تتغدى بمنزلى سمعنا أن الوابورات وصلت أطراف أم درمان البحرية ورجعت وموسى أسرع لمنزله وبقيت بمنزلى وفى عصر يوم الأربعاء خرجت مع من خرج لكررى ولم أستلم الغلال ولا بعضه ودفعت قيمته لموسى، بعد سقوط أم درمان ،بواقع الأردب ستة ريالات ودفعت له الباقى وهو تسعون ريالا مع قيمة أردب عمى مالك برفاعه واستلمت منه سند عمى مالك بخطه .

قلت لما صمم خليفة المهدى على الدفاع صار الناس وأنا منهم يفتكرون فيما يؤول اليـه حالهم اذا حوصرت أم درمان أو تغلب جيش الحـكومة على الخليفة وخرج من أم درمان وأخذ الناس بعوائلهم خصوصا من ذاقوا أتعاب الهجرة مثلنا فى جيش ولد النجومى وفى بعض الليالى أعملت فكرى وكددته فيما ينجينا من الحصـار أو الهجـرة جرى على لسـانى تخميس لبيتى ابن عطاء الله اللذين أولهما لا تدبر لك أمرا وهاك التخميس : ــ

أيهـا المبتلوا صبرا ... لا تضق للكرب صدرا
لم تحط بالغيب خبرا ... لا تدبر لك أمـرا
فأولى التـدبير هلكى ... وأرض كلا ما أردنا
واستفد ممـا أفدنا ... للنـوائب ان تردنا
سـلم الأمر تجـدنا ... نحن أولى بك منـكا

فاطمأن قلبى وسلمت الأمر لربى ثم جاءنا الخبر الأكيد بضياع صمغنـا وما معه من أموال النـاس الذين كانوا ببربر ولهم عوائل بأم درمان ، جاءوا ليحضروا الموقعة معهم فلقينى عمى النور ابراهيم الجريفاوى وقال لى : أظنك غير حارص على اخراج الزكاة ولذلك أضاع الله مالك . فقلت له أنا مانى محمد لله جميلة فى الزكاة . فقال أعوذ بالله من جراءتك على الله والحقيقة انى أخـرج الزكاة بدقة وتحقيق واحتياط بشىء عليها لعلى أكون ناسيا دينـا مرجو الدفع يستحق اخراج الزكاة عليه . وبعد مفارقتى لعمى النور تألمت مما سمعت منه لعل فيه روح الشماتة فقلت هذه الأبيات : ــ

كلومى أراها من كلامى غالبا ... وقد تأتى أحيـانا بغير تكلمى
فما كان من قولى ألمت لمسـه ... وما كان من ربى فليس بمؤلم
ولكن أرانى صابرا عند خطبها ... وذاك بفضـل الله لا بتحـزم

فى يوم ما وأنا لم يكن بيدى غير اثنين وعشرين ريالا أفكر فى أن أشترى بها غلالا وأتركها لغيره مما يلزم ، اذ دخل على المشايخ البلال الأسيده وعبد الرحمن منصور والنور عبد الحفيظ ، وبعد شرابهم الشاى قال البلال جئناك نطلب منك تسليف عمك النور عبد الحفيظ ثلاثين ريالا لاضطراره لها . فقلت والله لا أملك غير هذه الاثنين والعشرين ريالا فدخلت وجئته بأساور وحجول بنية لى توفيت ، فأخذوها ومضوا شاكرين ، فبكيت لعدمهم لأن البلال الأسيده هو الرجل الكريم الباذل وعبد الرحمن منصور الذى كان بالأمس أغنى تاجر سودانى بتجارته العظيمة ، والنور عبد الحفيظ المملوء البيت بمهاجرى أهله من المتمة تصل بهم الحالة الى هذا الحد • بكيت أسفا على ما أصاب الناس من الشدة التى عمت العظيم والحقير •

من ضمن استعداد الخليفة للدفاع أرسل الخليفة لأحمد فضيل ليحضر بجيشه ليحافظ على شرق النيل بأم درمان لئلا يحتلها جيش الحكومة قبله فلما وصل رفاعة بلغه احتلال الحكومة أم درمان وفى اليوم الثانى وصلت وابورات الحكومة فقابلها أهالى رفاعة بالترحيب والزغاريد ظنا منهم أن الوابورات جاءت لتطرد جيش أحمد فضيل فاذا هى تمر فى طريقها لمدنى فسنجة وانفرد أحمد فضيل وجيشه الذى كان برفاعة نهبا وسلبا حتى ملابسهم التى على أجسادهم سلبت منهم ، وسيقوا أمام الجيش نساءا ورجالا وأطفالا حتى خرجوا من البلد وهناك ظهرت حيلة الشيخ عبد الله عوض الكريم أبو سن الذى أظهر له الحزن على احتلال الحكومة النصرانية لبقعة المهدى عم والعزم الأكيد على صحبته حتى يصلوا الى خليفة المهدى ، فلما باتوا بحلة بانت وهى أقرب حلة من رفاعة قال لأحمد فضيل لا فائدة لنا فى النساء والأطفال فالأفضل أن ترجعهن الى رفاعة فوافقه فرجعت العائلات ، فلما بلغوا الرحلة التى بعدها قال له نحن الآن قادمون على مفازه ، وهؤلاء الشيب والضعفاء يشاركوننا فى الماء والطعام واذا قابلنا العدو ربما ينهزمون منه فيحلون عزم الجيش فالأحسن ترجعهم فوافقه وبقى معه الرقيق والشبان والأقوياء فبث فيهم روح الرجولة بواسطة من يأمنه على حفظ سره فلما وصلوا قرب المغازه وجد ان أكثر الناس رجعوا تعشى مع أحمد فضيل كعادته وكان قد نبه على جماعة باسراج الجمال واعدادها للهرب ، فلما علم ان الأمير قد نام وحرسه تفرق منه ركب جماله وتوجه لمدنى

بجزيرة الرهد والدندر . فلما أحسوا بهروبه عند صلاة الصبح طردوه بخيلهم . فلما عدا النيل رأى خيل أحمد فضيل فى طرده وقفت على شـاطئه الشرقى وضربوهم بالرصاص ورجعوا .

موقعة كررى :

خرجت من منزلى يوم الأربعاء آخر أغسطس سنة ١٨٩٨ حاملا جلاس ، وبعد أن فرغت من الدرس سمعنا أم بايا والنحاس يضربان وبالسؤال علمنا ان خليفة المهـدى خارج لكررى ، فسلمت غلامى الصغير جلاسى يرجعـه للمنزل وخرجت توا بأمل ان الخليفة يقضى ليلته فى منزل هجرته بمكان العرضة ويذاكر الناس بأن يستعدوا ثم يرجعون لمنازلهم ليخرجوا يوم الخميس لكررى ولكن الجيش واصل سيره لخور شمبات حيث بتنا هنـاك . فلحقنى عبداى عبد الله وجابر بالركوة والفروة وزاد يومين وعدة الشاى الذى لم أترك شرابه رغم ان رأس السكر بستة ريالات مجيدى وأقة الشاى وصلت ثمانيـة وعشرين ريالا مجيديا ، فأصبحنا ليوم الخميس أول سبتمبر بشمبات وعقبتنا الوابورات على أم درمان فضربت طوابى شمبات وتوتى والخرطوم . ونسمع صـوت طوابى أم درمان وغيرها تضرب فيها . وفى نحو الساعة ٤ صباحا عربى سمعنا صـوت سلاح ضرب بجيشنا وبالسؤال عن سببه فهمنا ان احـدى الوابورات غرقت والثانية سلمت وجىء بدفتها للخليفة فضرب السلاح بشرى بالنصر وكان معنا رجل يدعى مجذوب أبا بكر أصله من جماعة عثمان دقنا ووالدته بنت الشيخ الطاهر المجذوب وبيده كرس صار يضرب الأرض بكندابه (زجـه) فيغطس جزء منه فى رملة خور شمبات المطورة ويقول لنا يا منكرون أنظـروا علامة النصر ونحن سكوت وبعد هنيهة سكت ضرب الوابورات للطوابى فانتفخت أوداجه فخرا واعتمد القبض عليها ونحن المعنون بسببه كنا عشرة . سـليمان أبى حجل وميكائيل الملك عوض الله وعمر الصادق وعبد القادر الأمين وأحمد عبد الحميد (كتاب الأمير يعقوب) ومختار محمد العـامل وباباكر مصطفى وبابكر بدرى ومحمد مصطفى . بعد الظهر رجعت الوابورات للضرب فاضمحل صاحبنا مجذوب من فخره فقلت له الكفره ديل يبعثون قبل الآخـرة لعنة الله عليهم فطأطأ رأسه وبان عليه الخذلان وفى نحو الساعة ٤ مساء بدأ ضرب القنابل

فى قبة المهدى عم • فاصطففنا صفا واحدا فى طرف الجيش جهة الجنوب الغربى وكانت خيل الراية الزرقاء قبل ذلك بقليل بدأت تقلب أربعا أربعا فكسرت رجل الشيخ بان النقا موسى وكيل الأمير يعقوب فى رايته وادارته فأرجع الى منزله فغبطناه وقلنا انه سعيد سلم بباقى جسده • قلت وقفنا صفا ننظر ضرب القبة وكان عند أحمد أفندى عبد الحميد نظارة مقربة تتناوب النظر فيها ففى تلك الساعة مر علينا السيد محمد المهدى راكبا حصانه وتابعه وراءه حامل الركوة فسلم علينا واستمر فى سيره فلما رجع ورأى اشتداد الضرب وقف على بعد مائة ياردة منا وجعل ينظرها حتى ظهر منها فتحة عريضة طويلة كر راجعا فسلم علينا بصوت جهور وتبسم لنا ومر فى طريقه فلم نره بعد ذلك • عندما ظهر الشق الكبير فى القبة بهت الناس وانقطع صوتهم كما انقطع صهيل الخيل ولم أسمع تكبيرة الاحرام للمغرب ولا أدرى أغيرى سمعها أم لا • وبعد أن صلينا المغرب فى تايتنا تعشينا بالآبرى بالماء والدقة وبعد أن صلينا العشاء جاء طلب لأحمد أفندى من الأمير يعقوب ، فلما رجع لنا أخبرنا انه قد كتب أمرا للامير يعقوب أبى زينب الذى تركه خليفة المهدى بأم درمان بأن يمر بعد ثلاث ساعات من شروق الشمس فكل من وجده فى بيته ممن لم يخرجوا للجهاد فى سبيل الله مع خليفة المهدى يذبحه على باب داره وهذه مكيدة من الخليفة اذ لولاها لكان الكثير من الناس يتسرب تحت الظلام لبيته ، وفى نحو الساعة ١١ مساء جاءنا على كرواش شقيق محمد فضل أمين بيت مال الفاشر وطلب منا نعمل له جبنة وأخبرنا انه متوجه للفاشر أوهمنا فيها بأنه بمأمورية فتوجهت لأبشر الياس الذى كان عنده جبنة استقرضها منه فلما شربها على كراوش أدخلها وعدتها فى الزغو وقال لا يرجعها لصاحبها بوجه ما • وركب جمله وفارقنا وبعد الواقعة علمنا انه متهرب فقط فنجا وانتظر السلطان على دينار هناك فحظى عنده ، اما ابشر الياس صاحب الجبنة فاستشهد فى صباح الجمعة بالموقعة •

جاءتنا الأخبار ليلا بصفات ترتيب الجيش من حيث الزمان والمكان ، فمن قائل ان سلاح النار قام فعلا ليهجم على جيش الترك فى مكان خدعه ومن قائل ان الخيالة يكونون معه ومن قائل ان شيخ الدين والخليل اختلفا وبسبب اختلافهما بطل هجوم الليل ونحن ما بين مصدق ومكذب حتى أصبحنا فعلمنا ان أهل السلاح النارى توجهوا شمالا الى جبل كررى وان عثمان دقنا

وعثمان آزرق بمن معهما نزلا جهة البحر تحت جبل ضرغام ورأينا فعلا رايات الخليفة على ولد حلو فى جهة الشمال الغربى لمكاننا الذى نقلنا اليه نحن أنصار الراية الزرقاء حتى نزلنا واديا ننظر منه جبل ضرغام شرقنا جهة الشمال قليلا فسمعنا نحو الساعة ٧ صباحا دوى السلاح من العدو ومن سلاحنا النارى • وفى نحو الساعة ٨ بدأ المجروحون من جماعة عثمان دقنة يمرون علينا يحمل المجروح أو يسند بأربعة أشخاص فلا يعترضهم أحد •

ففى تلك الساعة قلت لمن معى اذا جرح منا أحد سأجرح معه من دمه ويحملنا الباقون منا فننجوا ما دام ذلك جائزا • وكان خليفة المهدى بالقرب منا جهة الغرب ومعه حاشيته وأمامهم الملازمية المعروفون بالامدادية جلوسا على نحو عشرين ياردة أمام الخليفة فى نحو الساعة ١١٫٣٠ جاء من أخبر الخليفة باستشهاد ابراهيم الخليل رحمه الله فقال له بصوت سمعناه شيلوا عنقريبى احملوه عليه وادفنوه فى بيته وكان العنقريب محمولا على بغل بجانبنا فأخذوه ورجعوا بطريقهم علينا حاملين جنازة الخليل وبعد قليل جعلونا صفا والراية الزرقاء أمامنا فرأينا سلاح العدو يلمع ويخفت تبعا لحركاتهم وكنت عارفا ذلك ورأيناهم كالحجارة الصفراء فلما ظهروا نادى خليفة المهدى بصوت سمعناه ابجكه قم خذ الاخوان دول صدوا أعداء الله ديل . فقام سلاح الامدادية ونحن ننظرهم فتقدموا نحو مائة متر وأكثر بقليل وضربوا بطلق متقطع فرماهم الجيش بطلقة متخذ صوته رن • فلم يرجع ، منهم من مات ومن تماوت ومنهم عمنا رجب المذكور كما تقدم • وما زال جيش العدو سائرا علينا ونحن تحت الراية الزرقاء حتى قرب منا وصار يصلنا رصاصه فيمر مصبوبا فوق رؤوسنا،حينذاك قال محمد المهدى الى متى نقف هل نقف الى أن يمسكونا بأيديهم ثم همز حصانه وخلعت الراية وكنت قبل ذلك رأيت لواء رملة بجانبه شجيرات فقلت لمن معى من يصل منا ذلك الرمل يرقد فى دأره •

قلعت الراية وجرينا معها حتى وصلنا الرملة فرقدنا أجمعين فى صف واحد وصرنا ننظر الى الراية وهى تقع فترتفع فتقع فترفع وفى الوقعة الثالثة اشتد علينا رمى الرصاص حولنا فاصدقك انى الذى كنت أتعرض للوابورات ولا أبالى بلقاء الجيش والذى كنت هاجرت لفتح حلفا من ضمن تسعة رجال فقط • صرت اليوم أدعك وجهى فى الرملة كأنى اذا دخل رأسى فى الرملة لا أموت

اختناقا ، ذهلت فى هذه النظرية لشدة خوفى من الموت الذى كنت أتمناه فى مثل هذا الموقف حتى ضرب جارى بابكر مصطفى باليمين فى يده الشمال فآب لى وعى آن ذاك وتذكرت وعدى للجماعة فملصت (خلعت) عمتى من رأسى ولوثتها فى دمه وربطت بها ذراعى الشمال وقلت للجماعة صرنا اثنين مضروبين فقام الجميع من مكمنهم وحمل أربعة منهم واحدا وخرجنا فلما صرنا خارج الوادى جرى كل منا على جهته التى ارادها وبقينا انا ومختار محمد العامل حملت يد المضروب على كتفى ومختار حمل يده السالمة واجتمع معنا سليمان باشرى من الرباطاب وجرينا جهة الغرب وكان جيش من العدو وراءنا فكلما أسرعنا نجد انا تحت وفى سلامه ، فقلت فى تلك الساعة لمختار ممتحنا له ابصق مثلى هكذا ورميت ببصاقى فقال لى فى الحال وفى مثل الساعة الضيقة انت جمعت هذا فابصق غيره فضحكنا فلما رأى المضروب انا مهما جرينا لا نخرج عن دائرة الخطر قال ارخوا لى يدى فان الجرح آلمنى من رفع يدى فلما ارخينا له يده وتخلى عنا جرى اسرع منا فوالله ما صرنا نلحق به ولكنى خطر ببالى ان تتجه بجرينا صوب الجنوب لنقطع مسافة امتداد الجيش للجنوب فننجوا من رصاصه فلما أخبرتهم بذلك ، ملنا بسرعة خاطفة نحو الجنوب وبعد دقائق نجونا ، فلما اطمأن جريحنا جلس على الأرض وقال اموت هنا ولا اتحرك فأنتهره مختار وقال له اذا كنت تريد الموت فمن اوصلك الى هنا ، فقلت انه معذور فلا يصح أن نضيف الى ألمه ألم التوبيخ فضحك مختار والتفتنا غربا فرأينا فرج الله عبد أولاد حاج محمد بحماره الذى يحمل عليه فى السوق بالأجرة أمسك مختار الحمار ليركب المجروح عليه فأبى فرج الله وقال انى منتظر أحمد ومحمد أسيادى وكانا من أصدقائى فقلت لفرج الله انى رأيتهما رجعا وسنجدهما فى بيت عثمان حسن سوار الذهب فصدقنى رغم كذبى عليه وسلمنا الحمار فأركبنا المجروح وتوجهنا ، فلما وصلنا ديم عثمان دقنا رأينا النساء يهدمن بيوتهن البروش ويحملن ما استطعن منهن ويجرين صوب أم درمان فالتفتنا غربا فرأينا خليفة المهدى راكبا حمارا أبيض ومعه جماعة ذاهبين الى أم درمان ولما وصلنا منزل عثمان حسن وجدنا أولاد حاج حمد هناك فعلا فحمدت الله الذى صدقنى وخلصنى من السبه والعداوة التى كانت تلحقنى ، فجلست معهم قليلا . واستأذنتهم فى فرج الله وحماره للجريح يوصله

منزله فسمحا لى جزاهما الله خيرا ــ بقيت معهم قليلا حتى جاءنا رجل لا أعرفه قال انه من جماعة السيد المكى وكان مع السيد المكى فى مجلســه مع خليفــة المهدى ــ قال السيد مكى عند الخليفة الذى كان يتكلم مسفر الوجه لم يظهر عليه علامة يأس أو خوف حتى جاءه من أخبره ان الأمير يعقوب استشهدفأطرق مليا وجرى عرقه ولم يتكلم بعدها ــ وأخبرنى الشيخ محمد عمر البنــا الذى كان مع خليفة المهدى مثل هذه الرواية وزاد أنه لما قرب منهم العدو قال السيد المكى يا خليفة المهدى ما دمت حيا الدين منصور فلنتحيز من العدو لئلا يتمكنوا من أسرنا وفينا خليفة المهدى ، قال الشيخ محمد عمر البنا لما سمعت كلام السيد المكى ونظرت الخليفة لم ينكره قمت وأمسكت خليفة المهدى من عضده الذى لا يلمس لغيره وأنهضته فتبعنى وخطونا خطوات بأرجلنا ثم لحقنا أحد بحمار أركبنا عليه خليفة المهدى ثم جاء صاحب حصان أركبنا عليه السيد المــكى ثم لحقنى عبدى بحمارى فركبته حتى قابلت شارع بيتى فنزلت عليــه • حكاية جزع الخليفة على شقيقه الأمير يعقوب اذكرتنى ما حكى عن لقمان الحكيم انه أتى من غيبة لبلده فلقيه أحد مواطنيه خارجها فقال له لقمان ما فعل أبى ؟

قال مات

فقال لقمان ملكت أمرى ، ما فعلت أُمى ؟

قال ماتت :

فقال لقمان زال همى ، ما فعلت أختى ؟

قال ماتت :

فقال لقمان سترت عورتى ، ما فعلت زوجتى ؟

قال ماتت :

فقال لقمان جدد فراشى ، ما فعل ابنى ؟

قال مات

فقال لقمان خلقته من ظهرى ، ما فعلت ابنتى ؟

قال ماتت :

فقال لقمان هذا خير اصهارى ، ما فعل أخى ؟

قال مات

فقال لقمان الآن انقصم ظهرى •

فان الأمير يعقوب نعم الأخ والوزير الأزر لخليفة المهدى رحمه الله رحمة واسعة . فان الأمير يعقوب كان مثال التواضع والاعتدال ـ قمت من باب عثمان حسن سوار الذهب فمررت على منزل يوسف أخى لأطمنهم على حياتى وخرجت منهم نحو الساعة ٣ بعد الظهر فوجدت عساكر الأورطة الثالثة عشر جالسين فى شارع الهجرة شمال بيوت الياس أم برير وكنت أعرف الكثير منهم من أصوان سنة ١٣٠٧ هـ و ١٣٠٨ هـ فسألت الذين فى طريقى عن اليوزباشى فرج صدقى . قالوا نقل للاورطة السابعة . فقلت البتجاويش بخيت موافى فمشى معى أحدهم حتى أوصلنى له فلما رآنى عانقنى وقال لى ان هذا العجيب نحن الآن قبـل ساعتين أعداء نتحارب والآن أصدقاء نتسالم فقلت له الحمد لله على نعمتـه . فلما رأى سيفى فى كتفى قال لى أعطنى هذا السيف أحفظه لك ربمـا يستبيح الجيش المدنية فيضيع مثل هذا السيف . فسلمته اياه ووصلت بيتى القـريب وبينما أنا أشرب فى الماء سمعت صوت امبابا يصيح فأطلعت أحد عبيدى ، فطلع على الديوان وقلت له : أنظر الأورطة فى مكانها أو قامت فقـال فى مكانها . فقلت أنظر الى جامع المهدى ماذا ترى فيه ؟ قال فيـه خيول تجول وعليهـا فرسانها . فقلت أنظرهم هل هم من الأنصار أم من الترك ؟ فقال من الأنصـار بحرابهم . ثم خفت عليه فأمرته بالنزول ونحو الساعة ٥ مساء خرجنا من منازلنا مغربين (جهة الغرب) حتى وصلنا شارع الهجرة ، فرأينـا الجيش الانجليزى ماشيا نحو الجامع فتبعناه حتى قربنا من مقابر الشهداء بجوار الاسبتالية رجعنا وبعد قليل سمعنا ان اللورد كتشنر أباح نهب الغلال من كل بيوت الخليفـة وكان عندى كثير من الرقيق فمنعتهم أن يأخذوا قيراطا واحدا . فأصبح أردب الغلال من ستة وثلاثين ريالا الى ستة ريالات فهـذه أول حسنة من اللورد كتشنر للمساكين الجائعين الذين لو أراد أن يقسم عليهم الغـلال كصرفيه لمات بعضهم قبل أن يصله نصيبه ، فترى الناس فى تلك الليلة يجولون مابين الشونة الغربية منهم وبين منازلهم وبعضهم مما أعرف حق المعرفة سـاعده الحظ حيث كان بعض حواصل الغلال يلتصق بغرفته فكسر غرفته وصار يدخل فيها الغلال بالواسوق والفاس حتى كاد يملؤها ، فأصبح غنيا مما باعه ، ومن هؤلاء بعض الرباطاب المجاورون للشونة الغربية من بيت عباس رحمة الله ـ وفى تلك الليلة جاء عسكرى كان عبدا لابراهيم البك اليعقوبابى ، وقف بالباب وناداه باسمه

فلما خرج عليه رحب به وظنه جاء ليحرسه وأولاده فمد يده ليصافحه ، فما كان من العسكرى الا أن أصابه بطلقة أرداه فى الحال قتيلا وتركه يتخبط فى دمه ، فخرج أهله وجيرانه فوجدوا العسكرى المعروف عندهم منذ صغره يطؤه على بطنه وهو ميت بجزمته . فرجع الكل مختبئا فى كنه خوفا من القتل ومضى العسكرى لحاله .

ومما رأيته بعينى ما يأتى : خرجنا من منزلى أنا ومعى بعض أقاربى الضيوف عندى لنزور محمد ولد ابشر الذى خرج فى الموقعة بكررى فلما وصلنا طرف السوق الجنوبى الشرقى رأينا عسكريا سودانيا يقود خدامة خرج بها من السوق بجهة المشانق (شرق البوستة) ورأينا التاجر ابراهيم تميم الأصولى وأظنه سيد الخادمة جاريا عليهما فلما وصلهما أمسك بيد الخدامة ليرجع بها فاذا العسكرى يضع ظرفا فى بندقيته ويرميه به فارتفع للهواء وسقط ابراهيم تميم ونحن ننظر اليه على أقرب من مائتى متر وأخذ العسكرى الخدامة ومشى بها وهما يضحكان ضحكا عاليا . وبالسؤال علمنا ان هذه الخادمة كانت سريه لابراهيم تميم وهذا العسكرى أخوها وكانا مولدين بمنزله فمثل هذه من فضائح الفتوحات لجيش منظم تحت حكومة متمدينة اما قتل عوض الكريم كانون بواسطة الميرغنية وقتل أحمد حمزة بواسطة الجعليين فهنا جائز لأنهما محكوم عليهما بالقتل قصاصا أو شبهه وقد رأينا فى ثانى يوم الفتوح جنائز مطروحة فى طريق الهجرة مجهول قاتلوها ومجهول أهلوها . اما عبداى اللذان كانا معى بالميدان فكانا كغيرهما من أمثالهما واقفين بظهرنا على شفير الوادى فلما اصطفنا امتد الصف شرقا ولما خرجنا من الوادى لم نذكرهما طبعا لننجو بأنفسنا اما جابر فانه أخذ الركوة (وهى ابريق من جلد) وجرى للبيت اما عبد الله فانه ظل ممسكا بحمارى حتى أسر وغنم الحمار منه فبعد يومين علمت انه ضمن الأسرى بجامع المهدى فأخذت والدته له طعاما فلما أوصلت اليه الطعام قال لها أخرجى وأتركى لى أوانى الطعام لأخرج بها وفعلا خرج بالباب كأنه من الذين أتوا بالطعام لأسير له وجاءنا بالمنزل فهذه حيلة تدل على نباهته وفعلا هو نبيه .

لم أعرف شيئا آخرا عن خروج خليفة المهدى من أم درمان غير انى سمعت انه لما أراد الخروج تمهل حتى أرسل لمن يأمل انهم يصحبونه فى هجرته كأولاد

هاشمى والشيخ بان النقا والسيد المكى ومدثر الحجاز وغيرهم وقد علمت من أحدهم انه لما طرق رسول الخليفة بابه أرسل اليه أحـــد أولاده فلما علم ان الطارق رسول خليفة المهدى يطلبه للهجرة معه قال لرسوله أقفل الباب فى وجهه ولا تخاطبه على انه كان قبل ذلك حينما يعلم ان الطارق رسول الخليفة يسرع بالاستعداد ويهرول مع الرسول الذى يجرى حتى يصلا باب الخليفة فهذا منه يعد عدم وفاء فلو كنت مكانه لقابلت الرسول وحملته سلامى للخليفة ووعدى بلحوقه وانى مشغول بالاستعداد للخـــروج بعائلتى لأن الوقت ضيق وقلت لمحدثى هـــذا الرأى فعـــلا وغلطته فيما صنع • لا أعلم شيئا أكتبه عن عمـــل الحكومة العليا فى المهدية فى أعمالها الرســمية لأنى أصغر ممن يتصلون بهـــا لشغلى بالتجارة فقط وامتناعى عن السياسة •

(انتهى الجزء الأول)